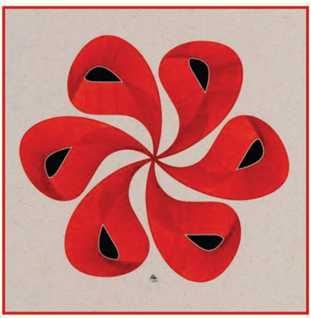
جواد ختام

التداولية

أصولها واتجاهاتها



كنوز المعرفة

بسم الله الرحمن الرحيم

جواد ختام

التداولية

أصولها واتجاهاتها

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ ٢٠١٦م

كنوز المعرفة

التداولية: أصولها واتجاهاتها
تأليف: جواد ختام
الطبعة الأولى 2016م 1437هـ
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: 2015/8/3778
ردمك: ISBN: 978-9957-74-530-1

دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع
www.darkonoz.com
عمان - وسط البلد – شارع الملك الحسين – طلوع سرفيس جبل الحسين رقم(9)
هاتف 877 4655 فاكس 875 4655 6 00962
خلوي 494 5525 79 00962
E-mail: info@darkonoz.com , dar_konoz@yahoo.com

تصميم الغلاف والإشراف الفني: محمد أيوب mohayyoub@gmail.com

المحتويـــات

الفصل الثاني

اتجاهات التداولية ومباحثها

المقدمة

لقد تطورت الدراسات اللسانية أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بشكل ملحوظ، وقدمت أبحاثا رائدة للغة في مستوياتها الصواتية والتركيبية. والملاحظ أن هذا التطور لم يواكبه انشغال متعمق ببعض إشكالات الاستعمال اللغوي، من قبيل أفعال الكلام والإحالة، والافتراض المسبق والأقوال المضمرة. . . ومن ثم ظلت النماذج والنظريات اللسانية المختلفة تتحاشى هذه الإشكالات بذريعة أنها عصية عن البحث، فحقها أن يطويها النسيان. بيد أن التحولات المعرفية التي تفجرت مع خمسينات القرن العشرين، أظهرت أنه من المتعذر الاستمرار في تجاهل قضايا الاستعمال اللغوي، فجاءت محاضرات أوستن وأبحاث تلميذه سورل لتعلن عهدا جديدا في الدراسات اللسانية، ولتؤرخ لثورة منهجية على النماذج اللسانية البنيوية، هي ثورة التداولية.

وتتويجاً لهذه الثورة، حظي الدرس التداولي الحديث باهتمام كبير، وغدا مجالا خصبا لإثارة قضايا محورية مرتبطة بالتواصل الإنساني. ويعزى هذا الاهتمام إلى الالتباس المصاحب للفظ التداولية، وهو التباس راجع إلى تعدد مباحثها، وتباين روافدها، واختلاف وجهات النظر حول وضعها الاعتباري، كما يعزى إلى التقاطع الذي يتيحه الدرس التداولي بين حقول معرفية متنوعة، فلسفية ولسانية ونفسية واجتماعية وأنتربولوجية. . . على نحو جعل التداولية ملتقى عدة تخصصات. وكان من حسنات هذا التقاطع إعادة النظر في جملة من القضايا ذات الصلة باستعمال اللغة ومقتضيات التواصل من قبيل الإحالة والحجاج ومقاصد المتخاطبين والاستلزامات الحوارية الناشئة أثناء التفاعل الإنساني. . .

وإذا كانت التداولية قد استأثرت باهتمام الدارسين، وأضحت حدثا معرفيا مهما خلال النصف الثاني من القرن العشرين، تُعقد لأجله الندوات، وتُدبَّج حوله الدراسات والبحوث والمقالات والمجلات. . . فإن ذلك لم يبدّد كليا الإشكالات الكثيرة الملازمة لهذا الحقل المعرفي. لذلك كرّسنا هذه الدراسة المتواضعة لبلوغ ثلاثة أهداف: الهدف الأول يتلخص في رفع الالتباس عن التداولية، من خلال التعريف بها وبيان أهميتها وسياق ظهورها، والثاني مداره حول التعمق في دراسة تقاطع التداولية مع غيرها من الحقول المعرفية، خاصة الفلسفة التحليلية والذكاء الاصطناعي ونظريات التواصل والسيميائيات . . . أما الهدف الأخير فمحوره التعرّف عليمباحث التداولية، ومجالات انشغالها بدءاً بالإشاريات وصولا إلى ما حققته من انفتاح على مبحثي الحجاج والعلوم المعرفية.

واللهَ نسأل السداد في الرأي والإخلاص في العمل.

جواد ختام

خريبكة بتاريخ **2014/10/03**

الفصل الأول

تعريف التداولية وروافدها

- المقدمة
- المبحث الأول - التداولية تعريفها وأهميتها
- المبحث الثاني - روافد التداولية

الفصل الأول
تعريف التداولية وروافدها

المبحث الأول
التداولية تعريفها وأهميتها

1 - تعريف التداولية:

1.1 الدلالة اللغوية:

التداولية أو التداوليات أو البراغماتية أو البرجماتية أو الوظيفية أو السياقية. . . دوال متواترة في اللغة العربية في مقابل كلمة pragmaticus اليونانية، المشتقة من Pragma وتعني الحركة أو الفعل Action بيد أن مصطلح التداولية يظل الأكثر استعمالا وشيوعا بين الباحثين. وهو مصطلح مركب من وحدتين إحداهما معجمية "تداول" والأخرى صرفية "ية" دالة على مصدر صناعي. والدال والواو واللام في اللغة أصلان أحدهما يدل على تحول الشيء من مكان إلى مكان. والآخر يدل على ضعف واسترخاء[1] والدولة: انقلاب الزمان من حال البؤس والضر إلى حال الغبطة والسرور، والدولة العقبة في المال. والدولة في الحرب أن تدال إحدى الفئتين على الأخرى، يقال كانت لنا عليهم الدولة[2] وقد أداله، ومنه قول الحَجّاج "إن الأرض ستدال منا كما أدلنا منها" قيل معناه ستأكل منا كما أكلناها. وتداولوه: أخذوه بالدول. وقد

(1) ابن فارس أحمد بن زكريا (ت395 هـ)«مقاييس اللغة» تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1979، ج2، ص 314.

(2) ابن منظور محمد بن مكرم (ت711 هـ)«لسان العرب» دار صادر للنشر، بيروت، لبنان، ج5، ص 327.

تداولته الأيدي: أخذته هذه مرة وهذه مرة، وقوله تعالى: ﴿إن مسكم قرح فقد مس القومَ قرحٌ مثله، وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾[3] أي نديرها، من دال أي دار، وقالوا دواليك أي مداولة على الأمر.

هذه المعاني والدلالات نصادفها أيضا في معاجم أخرى، منها ما ورد في تاج العروس "والدَّولة في الحرب: أن تُدال إحدى الفئتين على الأخرى، يُقال كانت لنا عليهم الدولة. قال الفراء: قوله تعالى: ﴿كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾[4] قرأها السّلمي فيما أعلم بالفتح، وَقال: ليس هذا للدولة بموضع، إنما الدَّولة للجيشين، يهزم هذا هذا، ثم يُهزم الهازم، فتقول: قد رجعت الدَّولة على هؤلاء، كأنها المرة. قال والدُّولة بالضم في المِلْك والسُّنن التي تُغيّر وتُبدّل عن الدهر، فتلك الدُّولة. (أو هما سواء) بمعنى واحد، يُضمان ويُفتحان. (أو الضم في الآخرة والفتح في الدنيا). وقال أبو عبيد: الدُّولة، الدولة بالضم: اسم الشيء الذي يُتداول به بعينه، وبالفتح: الفعل"[5]

من هذا المنطلق نستشف أن المعاجم القديمة تتواطأ بصفة عامة على ربط الدلالة اللغوية للمدخل المعجم د- و-ل بمعنى التحول والتبدل والتغير من حال إلى حال. أما البعض فيعمد إلى التمييز بين دلالتين بناءً على الحركة الملازمة للدال. فالفتحة تدل على الحرب، أما الضمة فتدل على السُّنن التي تُغيّر وتُبدّل، في حين يتساوى الضم والفتح عند البعض الآخر.

فإذا حاولنا رصد دلالة المدخل المعجمي د-و-ل في المعاجم العربية الحديثة، اتضح لنا تقاطعها مع نظيرتها القديمة، في الدلالة على تبدل الأحوال وتغيرها، إلا أنها تتفرد ببعض الدلالات المستحدثة، وهو ما نكتشفه مع المعاني التالية: "أدال الشيء جعله متداولا، وداول كذا بينهم جعله متداولا، والمداولة في القضاء إجالة الرأي في القضية قبل الحكم فيها وداول كذا بينهم:

(3) القرآن الكريم، آل عمران،الآية 140.

(4) القرآن الكريم، الحشر، الآية 7.

(5) الزبيدي محمد مرتضى الحسيني (ت1205 هـ)«تاج العروس من جواهر القاموس» تحقيق عبد الستار أحمد فراج، سلسلة التراث العربي تصدرها وزارة الإرشاد والأنباء بالكويت، 16، 1965، ج 28، ص 506 .507 ؟

جعله متداولا تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء "(6) . فمن خلال هذا التحديديتضح أن المدخل المعجمي د-و-ل أضحى يرتبط بالتدوال أي التبادل المعمّم، كما يتصل بالتحاور، ومنه المداولة، وتعني تقليب القضية لمعرفة وجوهها المختلفة قبل البت في الأمر؛ وهذا الفعل يقتضي الاستشارة وتبادل الآراء والأخذ بوجهات النظر المختلفة.

2.1 الدلالة الاصطلاحية:

رغم تواتر استعمال لفظ "التداول" قديما وحديثا إلا أن الدلالة الاصطلاحية تأخرت في المعاجم اللسانية الغربيةإلى بدايات القرن العشرين، حين أشار شارل موريس إلى أن دراسة السيميوزيس أو سيرورة التدليل Sémiosis لها ثلاثة مستويات هي: التركيب والدلالة والتداولية. وأوضح أن هذه الأخيرة تبحث في العلاقة بين العلامات ومؤوليها(7) إلا أن المرحلة الحاسمة في تطور التداولية تزامنت مع أبحاث أوستن وغرايس في إطار فلسفة اللغة، لتنفتح بعد ذلك على روافد معرفية متعددة جعلتها ملتقى عدة تخصصات.

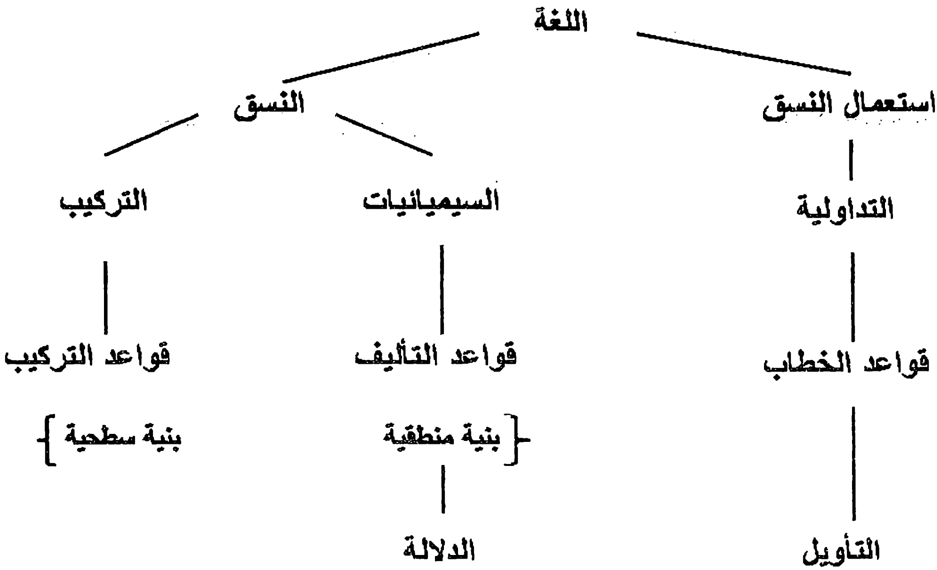
وقد تضافرت جهود المنظرين لرفع الالتباس عن التداولية. فذكرت آن ربول وجاك موشلار أنها "يمكن أن تُعرّف بصفة عامة على أنها دراسة استعمال اللغة، في مقابل دراسة النسق اللغوي الذي يدخل بصيغة صريحة في اختصاصات اللسانيات. وعندما نتحدث عن استعمال اللغة، فإن هذا

(6). مجمع اللغة العربية (إبراهيم أنيس وعطية الصوالحي وعبد الحليم منتصر ومحمد خلف الله أحمد)»المعجم الوسيط« المجلد الأول دار الفكر، ط 2 ، د ت، ص 304-305.

(7) ت يضرح شارل موريس في كتابه « Fondements de la théorie des signesÅ»بما يلي:

"A partir des trois termes corrélatifs (véhicule du signe,designatum, interprète) de la relation triadique de la sémiosis, on peut abstraire, pour les étudier, plusieurs relations dyadiques. On peut étudier la relation des signes aux objets auxquels ils sont applicables. Cette relation s'appelle la dimension sémantique de la sémiosis(ì). L'objet d'étude peut aussi être la relation des signes aux interprètes. Cette relation s'appellera la dimension pragmatique de la sémiosisÅ: elle est symbolisé par «Dp» et l'étude se cette dimension se nomme la pragmatiqueÅ « »Fondements de la théorie des signesÅ», traduction de Victor Guérette, François Latraverse et Jean-Pierre Paillet. In: Langages, 8éme année, n'35, 1974. pp. 15-21.

الاستعمال ليس محايدا. فالإشاريات على سبيل الذكر لا يمكن أن تؤول إلا داخل سياقها التلفظي، كما أن الكلمات تدل في مناسبات كثيرة على معان تفوق ما ننوي التعبير عنه"[8] وقد أوضحت آن ربول وجاك موشلر العلاقة بين دراسة النسق ودراسة استعمال النسق من خلال الخطاطة التالية:[9]



والتداولية تعني أيضا "دراسة استعمال اللغة في الخطاب، ودراسة الإشارات النوعية التي تثبت وظيفتها الخاطبية في اللغة"[10]. ولا تختلف هذه الأقوال عما ذكره ڤان دايك حين أوضح أن "البناء النظري للعبارات على المستويين الصوري والدلالي ينبغي أن يكمل ويتمم بالمستوى الثالث، أعني بمستوى فعل الكلام. وذلك أن كل عبارة متلفظ بها ينبغي ألا توصف فقط من وجهة تركيبها الداخلي والمعنى المحدد لها، بل ينبغي أن ينظر إليها كذلك من جهة الفعل التام الإنجاز المؤدي إلى إنتاج تلك العبارة. ووصف هذا

(8) Moeschler Jacques et Reboul Anne «Dictionnaire encyclopédique de Pragmatique »Seuil, 1994, p 1.

(9) نفسه، المقدمة، ص 9.

(10) Armengaud françoise. «la pragmatique», In Que sais-je', 1985, p 5.

المستوى هو الذي يهيئ شروطا حاسمة لغاية إنشاء وتركيب جزء من ضروب التواضع والاتفاق، مما يجعل العبارات مقبولة، أعني أن يصير تركيبها مناسبا لمقتضى الحال بالنظر إلى السياق التواصلي " .(11)

وقد عدّد جورج يول جملة من التعريفات للتداولية، حاول من خلالها رسم حدودها وامتدادها. إذ ذكر أن "التداولية تُعنى بدراسة المعنى كما يعبر عنه المتكلم (أو الكاتب) ويؤوله المستمع (أو القارئ)، وبالتبعية فإنها تهتم أكثر بتحليل ما يرميه إليه المتخاطبون من ملفوظاتهم، أكثر مما تُعنى بما يُحتمل أن تعبر عنه الكلمات أو الجمل نفسها. وعليه فإن التداولية دراسة لمقاصد المتكلم.

ويقتضي هذا الصنف من الدراسة بالضرورة تأويل ما يقصده المتكلمون ضمن سياق محدد، والتأثير الذي يمارسه هذا السياق على ما يُقال. لذلك فهي تأخذ بعين الاعتبار كيف ينظم المتكلمون خطابهم، وما يرمون إليه، وانسجام ذلك مع ما يتحدثون عنه، ومكانه وزمانه، وفي أي ظروف. ومن ثم فإن التداولية هي دراسة المقاصد السياقية.

كما تقتضي هذه المقاربةأيضا التعمق في الكيفية التي بمقدور المستمعين أن ينجزوا بها الاستدلالات حول ما قيل، من أجل الوصول لتأويل مقاصد المتكلم. لهذا يمكننا القول إن التداولية هي البحث عن المقاصد الخفية. وعليه فالتداولية هي دراسة ما يعبر عنه أكثر مما ترتبط بما يقال.

والسؤال الذي يفرض نفسه هو كيف نحدد ما ينبغي التصريح به وما ينبغي إضماره؟ الجواب عن هذا السؤال يرتبط بمفهوم المسافة، والقرب، هل هي فيزيائية، أم اجتماعية، أم مفهومية، أم اتفاقية. وعلى افتراض مدى قرب المستمع، يحدد المتكلم ما يجب قوله. ومن ثم فإن التداولية هي دراسة دلالة التعالق الوجوديين المتكلم والمستمع " .(12)

---

(11) فان دايك «النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي»، ترجمة عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، 2000، ص 18.

(12)Georges Yule «Pragmatics», Oxford University Press, New York,1996, p3.

في سياق متصل أحصى فليب بلانشيه عدة تعريفات للتداولية، فذكر أن "التداولية هي مجموعة من البحوث المنطقية اللسانية (...)، وهي كذلك الدراسة التي تعنى باستعمال اللغة، وتهتم بقضية التلاؤم بين التعابير الرمزية والسياقات المرجعية والمقامية والحدثية والبشرية الموسوعة الكونية (Encyclopaedia Universalis)

وقد رُصد للتداولية تعريف آخر، وهو "أنها تمثل دراسة تهتم باللغة في الخطاب، وتنظر في الوسيمات الخاصة به، قصد تأكيد طابعه التخاطبي". وهو تعريف أتى به أ.م. ديلر (A.M. Diller) وف. ريكناتي (F. Récanati).

كما تُحدُّ التداولية بكونها "دراسة للغة بوصفها ظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية، في نفس الوقت" انظر ف. جاك (F. Jacques)

وتُحد أيضا، كالتالي: "هي الدراسة أو التخصص الذي يندرج ضمن اللسانيات، ويهتم أكثر باستعمال اللغة في التواصل" ل. سفز (L. Sfez).[13]

والخيط الناظم بين هذه التعريفات هو اتفاقها على أن التداولية تركز على كل ما له علاقة باستعمال النسق، في مقابل اللسانيات البنيوية - على اختلافها وتنوعها - والمنشغلة أساسا بدراسة النسق اللغوي، لذاته ومن أجل ذاته. ومن تبعات المنزع الذي تبنته التداولية، اهتمامها بدراسة التواصل البشري.

وتنص التعريفات أيضا على أن التداولية تتوخى تعميق الفهم ببعض الظواهر الخطابية المتولدة عن التواصل، من قبيل الحجاج والاستلزام الحواري والاقتضاء، وهي ظواهر تفرض نفسها وتطفو على السطح أثناء التخاطب البشري.

علاوة على ذلك يُلاحظ أن التعريفات السالفة تسلم بأن التداولية تهتم بسياق إنتاج الخطاب، على اعتبار أن استعمال النسق يفرض النظر في الظروف المصاحبة له، من قبيل مقاصد المتخاطبين، ومسافة القرب والبعد الفاصلة بينهما، سواء أكانت فيزيائية أم اجتماعية...

(13) فليب بلانشيه «التداولية من أوستن إلى كوفمان»، ترجمة صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، ط1، 2007 صص 18-19.

وبصرف النظر عن هذه الحدود، فإن الحقيقة التي لا مراء من الإقرار بها هي أن التداولية أضحت ملتقى لعدة تخصصات لسانية وفلسفية وأنتربولوجية ونفسية... وبالتالي "لم تعد علماً لغوياً محضاً بالمعنى التقليدي، علماً يكتفي بوصف وتفسير البنى اللغوية، ويتوقف عند حدودها وأشكالها الظاهرة، ولكنها علم جديد للتواصل يدرس الظواهر اللغوية في مجال الاستعمال؛ ويدمج من ثمّ مشاريع معرفية متعددة في دراسة ظاهرة "التواصل اللغوي وتفسيره"[14].

وبقدر ما أفادت التداولية من هذا الانفتاح المعرفي والمرونة النظرية والمنهجية، بقدر ما أثارت الأسئلة حول وضعها الاعتباري، مما دفع بلانشيه للتحفظ على وجود تداولية بصيغة المفرد، مفضلا اعتبارها تداوليات بصيغة الجمع، رغم الدلالة القدحية لهذا التعدد.[15] وقد أكد فان دايك هذه الحقيقة، حين اعترف قائلا: "وبينما كانت أغراض التراكيب النحوية والسيمانطيقية ومكانتهما من علم النحو أغراضا واضحة شيئا ما، فإن مهام التداولية وإسهامها في النظرية اللسانية لا تزال محل خلاف على الإطلاق"[16].

وإذا كان هذا الاعتراف يشخص واقع التداولية، فإننا في الآن نفسه لا نعدم انشغال أعلامها ببعض المباحث المهمة من قبيل:

- الإشاريات وما يتصل بها من ضمائر وظروف الزمان والمكان.
- أفعال الكلام.
- الاقتضاء والاستلزام الحواري.
- الملاءمة.
- الحجاج.

(14) سعود صحراوي» التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة "الأفعال الكلامية" في التراث اللساني العربي«، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط2005،ص 16.

(15) فليب بلانشيه، مرجع سابق، ص 19.

(16) ڤان دايك، مرجع سابق، ص 255.

2. نبذة تاريخية موجزة عن التداولية:

قطعت التداولية في تاريخها الممتد من خمسينات القرن العشرين إلى حدود الآن أشواطا مهمة، ومرت بعدة تحولات. فبعدما كانت تُنعت قبل عقود بسلة المهملات، أضحت حقلا معرفيا خصبا ومتجددا، لا حدود تحده، ولا حواجز تمنعه من اقتحام حقول أخرى. وقد أوجزت آن ربول تاريخ التداولية في ثلاث محطات.(17) فبدايات التداولية تعود إلى 1938 حين تحدث شارل موريس عن السيمزويس في أبعادها الثلاثة؛ البعد التركيبي والبعد السيميائي الدلالي وأخيرا البعد التداولي.

إلا أن التداولية في هذه الحقبة ظلت حبيسة الإشارايات، أي لائحة محدودة من المصطلحات كالضمائر وظروف الزمان والمكان. وقد استقر في ذهن موريس "أن التداولية تقتصر على دراسة ضمائر التكلم والخطاب وظرفي المكان والزمان (الآن، هنا) والتعابير التي تستقي دلالاتها من معطيات تكون جزئيا خارج اللغة نفسها، أي من المقام الذي يجري فيه التواصل"(18). كما أن تعريف موريس للتداولية ظل واسعا وفضفاضاً يتعدى حدود ما هو لساني إليما هو سيميائي، بل ويتعدى المجال الإنساني إلى الحيواني والآلي.(19)

أما مرحلة الخمسينات فكانت حاسمة في صياغة معالم التداولية، خاصة مع سلسلة من المحاضرات التي ألقاها أوستن سنة 1955 بجامعة هارفرد حول فلسفة وليام جيمس، حيث بلور في هذه المرحلة مبحثاً محورياً تناقلته الدراسات التداولية اللاحقة، خاصة سورل، مداره حول أفعال الكلام، أبان أوستن من خلاله أن عددا هائلا من الجمل الخبرية التي نستعمل لا تتغيا وصف العالم، وإنما تغييره، أي أنها جمل عملية. مثال ذلك عندما يتلفظ

(17)- Anne Reboul «la pragmatique à la conquête de nouveaux domainesÅ: la référenceÅ» In l'information grammaticale 66, 1995,p 32-37.

(18) آن روبول وجاك موشلير «التداولية اليوم علم جدد في التواصل» ترجمة سيف الدين دغفوس ومحمد شيباني مراجعة لطيف زيتوني، المنظمة العربية للترجمة، نشر دار الطليعة، بيروت لبنان ط1، يوليوز 2003 ، ص 29.

(19) فرنسواز أرمينكو مرجع سابق «la pragmatique» ص 8.

الحاجب في المحكمة بجملة "فُتحت الجلسة"، فإن هذا القول يترتب عنه فتْحُ الجلسة فعليا، ولا تختلف هذه الجملة عن "وهبتك مالي" أو "زوّجتك ابنتي". علاوة على محاضرات أوستن كانت جهود بول غرايس هي الأخرى مؤثرة وحاسمة، حيث بلور مقاله Logic and conversation[20] ما يعرف بنظرية المحادثة، أوضح من خلالها أن تأويل ملفوظ ما يعتمد على عاملين: معنى الجملة المتلفظ بها من جهة، وسياق التلفظ (سواء أكان لسانيا أو خارج لساني extralinguistique) من جهة أخرى[21]. وإلى هذين العامين أضاف غرايس ما سماه مبدأ التعاون[22][23].

وإذا كانت التداولية في البداية مجرد مشروع، ثم اكتسبت في مرحلة ثانية بعض الأهمية مع أبحاث أوستن وغرايس، وغدت اتجاها قائم الذات، فإن المرحلة المهمة في تاريخ التداولية تزامنت مع انفتاحها على العلوم المعرفية، والأبحاث المتعلقة بالذكاء الاصطناعي؛ وهي أبحاث غيرت الوجه العام للتداولية، وأعلنت ميلاد ما يُعرف بالتداولية المعرفية[24] Pragmatique cognitive) مع نظرية الملاءمة Théorie de Pertinence لسبيربر وولسن (1986_1989). أما ديكرو فأضفى على التداولية بعدا دلاليا، حينما حاول التأسيس لتداولية مندمجة في الدلالة ضمن ما يعرف بنظرية الحجاج في اللغة. إلا أن الصعوبات التي واجهتها نظريته دفعته إلى تبني أطروحة الباحثة ماريون كاريل المعروفة بنظرية المجموعات الدلالية، وهي نظرية تنفتح على النظرية العامة لتعدد الأصوات.

---

(20)–Grice HP «logic and conversation» In syntax and semantic Vol 3, Speech acts, Ed P. Cole and L. Morgan, Academic Press, 1975, pp 41-58.

(21) ننبه القارئ الكريم إلى أن المقابل الأجنبي للمصطلحات الموظفة يتراوح بين اللغتين الفرنسية والإنجليزية، حسب مراجع البحث المعتمدة. لذلك نقترح العودة إلى كشّاف المصطلحات الثلاثي عربي – فرنسي –أنجليزي الذي ذيلنا به الكتاب.

(22)(23) – Deirde wilson & Dan Sperber «Remarques sur l'interprétation des énoncés selon Paul Grice» In Communication, N' 30, Vol 30, 1979, p80.

(24) آن ربول مقال سابق «La pragmatique à la conquête du nouveau domaine» ص 33.

من هذا المنطلق لم يعد مرجع التداولية، في ما تعتقد آن ربول، لائحة محدودة من المفاهيم، وإنما تعدت مجال الكلمة إلى الجملة، أو بالأحرى الملفوظ[25]. كما تخطت مرحلة المشروع لتتحول إلى اتجاه له انشغالاته الخاصة. بيد أن ذلك لم يحل دون الاستمرار في تحاشي التداولية، بالنظر لما تطرحه من غموض والتباس متصلين بحدودها ومفاهيمها، وصلاتها بحقول معرفية أخرى.[26]

3 - أهمية التداولية:

أشرنا في ما سلف إلى أن التداولية أضحت حدثا لسانيا ومعرفيا خلال العقود الأخيرة، بعدما كانت إلى عهود قريبة تنعت بسلة مهملات اللسانيات، حيث تُرمى كل القضايا اللسانية المربكة. وأصل هذه الصفة القدحية راجع إلى أنها تثير موضوعا شائكا لا سبيل إلى ضبطه وحصره، مداره حول أمزجة مستخدمي الرموز واستعمالاتهم غير المتناهية للغة[27].

غير أن هذا القدح لم يكن عائقا لتتبوأ التدوالية مكانة متميزة. ومن الدلائل المؤشرة على ذلك تزايدعدد الدراسات والبحوث والندوات... التي اتخذت التداولية موضوعا لها. ويمكن تفسير ذلك من زوايا مختلفة، منها على سبيل الذكر تطور الدراسات النحوية والصواتية والمعجمية ابتداءً من محاضرات دي سوسير، وهو تطور أفضى إلى تعميق المعرفة بجملة من القضايا اللسانية التي تخص اللغة في مستوياتها المختلفة. غير أن الباحثين اللسانيين انتبهوا إلى أن حل بعض القضايا غير متوقف على دراسة اللغة باعتبارها نسقا فقط، وإنما هناك حاجة ماسة للاهتمام بقضايا أخرى لها صلة باستعمال النسق. في هذا الإطار اقترح كاتز وفودر (1963) وكاتز وبوسطال (1964) ـــ ضمن ما يُعرف بالدلالة التأويلية ـــ نموذجا لسانيا توليديا يعطي

---

(25) نفسه ص 33.

(26) جورج كليبر مقال سابق «les différentes conceptions de la pragmatique» ص4.

(27) Leech Geoffrey«Principles of PragmaticsÂ », Longman, USA, 1983 ,p15.

للدلالة دورا نسقيا في تحليل اللغة[28]. والتنصيص على دور الدلالة في تحليل التراكيب اللغوية اعتراف صريح بعجز الأنحاء ذات المنزع التركيبي عن توليد الجمل، وفقط الجمل النحوية ذات المقبولية المثالية. ومن ثم الحاجة إلى إضافة مستويات أخرى للتحليل، كالمستوى الدلالي والمستوى التداولي.

كما تعززت مكانة التداولية بعدما انتهى مسعى التوليدية إلى أفق مسدود[29]. فالناظر في برامج النحو التوليدي التحويلي المختلفة ــ بدءاً من كتاب البنى التركيبية (1957)، مرورا بالنظرية المعيار (1965)، وبالنظرية المعيار الموسعة، ثم نظرية الربط العاملي، وصولا إلى البرنامج الأدنى ــ يلاحظ أن سقف التوقعات التي عُلقت على النحو التوليدي التحويلي في إيجاد آلة قادرة على توليد عدد غير متناه من الجمل اعتمادا على عدد متناه من القواعد كان عالياً. وبالفعل، أحدث شومسكي ثورة في دراسة التركيب، ومارس تأثيرا ثوريا في مجالين آخرين هما الفلسفة وعلم النفس، لكن ذلك لا يخفي المأزق الذي آل إليه النحو التوليدي. إذ تبين أن المعرفة التي يمتلكها شخص ما عن معنى الجمل تستند في جزء كبير منها إلى معرفته بالطريقة التي تستعمل بها هذه الجمل لإطلاق الأحكام، وطرح الأسئلة، وإلقاء الأوامر، وإجراء التحقيقات، ونثر الوعود، والتنبيه.. وكذلك إلى معرفته بالطريقة التي يفهم بها هو نفسه الآخرين، حينما يستعملون الجمل لغايات مماثلة[30]. وبالتالي فإن الملكة التي يحتاجها متكلم اللغة ليست تركيبية نحوية فقط، بل إنها ملكة موسوعية مركبة، تتشكل من مختلف المعارف اللغوية والثقافية...

ومما زاد التداولية أهمية وثراء انفتاحها على روافد معرفية مختلفة فلسفية ولسانية وأنتربولوجية ونفسية... ساهمت في إغناء هذا الحقل بجملة من

(28) عبد المجيد جحفة » مدخل إلى الدلالة الحديثة « دار توبقال للنشرالدار البيضاء، المغربالطبعة 1، 2000ص 60.

(29) Kleiber Georges “les différentes conceptions de la pragmatique ou Pragmatique, où es tu’ »In l’information grammaticale année 1982, Vol 12, N’ 12, p 3.

(30) Searl J. ‘Chomsky et la révolution linguistique »In la recherche N’ 32 V4,Mars 1973,p 239.

المفاهيم والفرضيات. فتحولت التداولية بذلك إلى ملتقى العلوم والاختصاصات، على نحو ما سنبين لاحقا. ولئن كان لهذا التنوع أهميته وقيمته، إلا أنه أضحى مثار قلق وحيرة، يدفعان الدارسين إلى التساؤل:

ـ التداولية اتجاه أم نظرية أم فلسفة أم كل هذا في الوقت عينه؟

ـ أهي اتجاه فلسفي أم لساني؟ أم هما معا؟

ـ أهي تداولية بصيغة المفرد أم تداولية بصيغة الجمع؟

ـ ما هي حدودها ؟ وما فرضياتها؟

المبحث الثاني
روافد التداولية

إن البحث في تاريخ المعرفة هو بحث في الصلات الممكنة أو الموجودة بين الحقول المعرفية. وقد أبان تاريخ العلم أن الأفكار والمعارف لا تولد من فراغ، بل هي سلسلة من التراكمات والمراجعات والتصويبات والامتدادات والتأثيرات... يبدو ذلك جليا عندما نعمل النظر في الأصول المرجعية للتداولية. فهي ملتقى جملة من الاختصاصات المعرفية كالفلسفة والسيمائيات والرياضيات والبحوث النفسية والاجتماعية والذهنية، وهي اختصاصات بقدر ما تؤسس لفروضها ومفاهيمها الخاصة، بقدر ما كانت رافدا خصبا للتداولية.

معنى ذلك أن اقتحام مجال التداولية يستدعي منا إعادة النظر في اعتقاد ترسّخ لدى عموم الباحثين، مفاده أن شارل موريس كان أول من اهتم بالتداولية، عندما صرح منذ 1938 أنها تدل على "ذلك الفرع من السيمائيات الذي يعنى بدراسة العلاقة بين العلامات ومستعمليها". ولئن كان هذا القول صحيحا، فإنه لا يظهر لنا الحقيقة كاملة، كما أن التسليم به سيكون سببا في تجاهل جملة من الجهود الرائدة والمتقدمة على محاولة شارل موريس، منها على سبيل الذكر جهود بورس الذي راح ضحية السلطة الرمزية لخطاب من يصفون أنفسهم بالنقاد من جهة، والتأويلات الخاطئة لبعض أفكاره من جهة أخرى.[31]

لأجل ذلك كرسنا هذا الفصل بمباحثه الأربعة القادمة للتنقيب في بعض روافد التداولية وخلفياتها النظرية تنقيبا لا يتوقف عند حدود 1938 تاريخ نشر كتاب Foundations of the theory of sings لموريس[32]، كما هو حال جملة من الدراسات. والأمل يحذونا لأن نوفق في بيان الصلات القائمة بين

(31) RethoréJoelle la pragmatique linguistique de PEIRCEÅ études littéraires, Vol 21-N'Å3, HIVER 1988-1989 p 49.

(32) Morris Charles the foundation of theory of sign In international Encyclopedia of unified sciences 12, Chicago, University of Chicago Press.

التداولية وما جاورها من التخصصات.

1 - الفلسفة التحليلية:

إن المتصفح للدراسات المؤرخة للعلم الحديث تستوقفه حقيقة ساطعة، تكشف طبيعة الطفرات المعرفية المهمة التي مرّ بها. فقد أبان نيكولا كوبرنيك وتيخو براهه وجوهنس كبلر وجاللو وإسحاق نيوتن[33] عن حقائق جديدة لم يكن بالإمكان قبولها أو التسليم بها خلال القرون السابقة. غير أن التحول الجذري في تاريخ العلم تزامن مع القرن العشرين. إذ أحرزت الرياضيات تقدما علميا كبيرا، بتطويرها للفرض الاستنباطي، وكذلك كان الحال مع الفيزياء؛ حينما عمّق الإنسان معرفته بالذرة واستطاع تفتيتها، واستغلال جزئياتها لإنتاج الطاقة. في سياق متصل استطاع ألبرت إينشتين صياغة "النظرية النسبية العامة والخاصة" لحل جملة من القضايا العالقة في الهندسة الأقليدية، ولتفسير مجموعة من الظواهر، كحركة الموجودات في الكون وسرعة الضوء... مؤكدا الحاجة إلى بعد رابع لتفسير الظواهر الفيزيائية بإضافة الزمان إلى الطول والعرض والارتفاع.

وفي مجال اللسانيات مثّل صدور كتاب "دروس في اللسانيات العامة" حدثا معرفيا مهما، غيّر بشكل كبير ملامح البحث اللساني، حيث نصّ دي سوسير على ضرورة تحديد موضوع اللسانيات، وحصره في دراسة اللغة لذاتها ومن أجل ذاتها، كما دعا إلى تعديل منهجية الدراسة باعتماد مقاربة تزامنية تقطع مع المنظور التاريخي الذي تسيّد مجال اللغة لقرون عديدة سواء مع نحاة بور ريال أو مع لسانيي القرن 18م.

أما الفلسفة فلم تكن هي الأخرى بمنأى عن هذه الثورات العلمية، وظهر مصطلح معبر عن هذا المنزع الجديد هو "فلسفة العلم"[34] الذي يجسر لعلاقة

(33) يمنى طريف الخولي «فلسفة العلم في القرن العشرين» عالم المعرفة ع 264، الكويت، شتنبر 2000، ص 72 وما بعدها.
(34) نفسه ص 129.

وثيقة بين العلم والفلسفة. فقد انتبه كثير من الرياضيين والمناطقة والفزيائيين إلى أن حل جملة من القضايا الفلسفية العالقة من قبيل قضية المعنى والدلالة، وقضية اللغة وقدرتها على التعبير عن الفكر، وقضية علاقة اللغة بالعالم... يمكن أن يتحقق بإعادة النظر في منطق التفكير الفلسفي ذاته. لهذا اتخذ البحث في القضايا الفلسفية بعدا تجريبيا جديدا، يبتعد عن منطق التأمل الفلسفي المجرد الذي ساد منذ قرون قديمة، وأصبح "الطابع العام للفلسفة المعاصرة هو الطابع التحليلي الواقعي، المتناسق مع روح العصر العلمية والرياضية، والذي يساير المكتشفات العلمية والتطورات الرياضية، من منطلق أن الفلسفة تعبير عن العصر الذي تنشأ فيه، كما أنها تعميق نظري للأحداث الخاصة به". والصورة الصارخة لهذا المنزع الجديد تتمظهر مع الفلسفة التحليلية.(35)

وتجدر الإشارة إليأن مفهوم التحليل شاع في حقل الفلسفة على نطاق واسع. ويوجز عزمي إسلام اتجاهات التحليل الفلسفي في ثلاثة وهي:(36)

- تحليل المفهوم أو الفكرة عن طريق تطبيقاتها الجزئية لمعرفة المبدأ الكامن وراءها كما هو واضح في المنهج الديالكتيكي عند سقراط وفي محاورات أفلاطون وأخلاق أرسطو.
- تحليل المعرفة الإنسانية وردها إلى مجموعة من البسائط والعناصر الأولية، وكذلك تحليل الوجود كما هو عند ديكارت ولوك.
- تحليل الإطارات التي تصف فيها المعرفة الإنسانية (أي اللغة)، كما هو الحال عند فلاسفة كامبدريج ورسل وفتجنشتاين وجماعة فيننا وكارناب.

"إلاأن كلمة تحليل، وإن تكن قد فاتتها هذه الدقة في تحديد المعنى، فهي ليست خلوا من كل تحديد من حيث انطباقها على عدة معان، إن تكن مختلفة

(35) سماح رافع محمد ،«المذاهب الفلسفية المعاصرة» مكتبة مدبولي ط 1 ، 1973 ص 78.
(36) نفسه ص 68.

فيما بينها بعض الاختلاف، فهي كذلك متشابهة تشابها يبرر جمعها تحت هذا الاسم"[37]. وقد انفردت الفلسفة التحليلية بهذه الصفة، وأصبح التحليل عنوانا دالا عليها، لاستخدامها إيّاه بوصفه منهجا مقصودا لذاته، وليس مجرد غاية كما هو الحال في الفلسفات الأخرى.

ويمكن أن نعزو هذا الاهتمام بالتحليل إلى ما لاحظه الفلاسفة الإنجليز المحدثين من كون جملة من القضايا الفلسفية زائفة وغير صائبة. والسبب راجع إلى أن الفلاسفة لم يتجشموا عنت تبسيط أسئلتهم، وتدقيقها قبل الشروع في الإجابة عنها. لذلك وجب الإقرار من منظور الفلاسفة التحليليين بأن الفلسفة لم تعد مهتمة أساسا باكتشاف الحقائق، وإنما تحليل الموجود منها، وتمييز الزائف من الصحيح. والسبيل إلى ذلك هو تحليل العبارات اللغوية والألفاظ المستعملة.

1.1 مميزات الفلسفة التحليلية ومدارسها:

لئن كانت دلالة مفهوم التحليل متعددة، فإن اتجاهات الفلسفة التحليلية هي الأخرى متنوعة. في هذا الصدد يذكر محمد مهران رشوان أنه "لو شئنا أن نميز هذه الحركة الفلسفية على أنها "فلسفة التحليل" لما قدم لنا هذا الوصف الكثير عن طبيعتها، لأن لفظ "التحليل" عندهم يستخدم بكثرة، وبطرق مختلفة في مناسبات كثيرة على وجه يصبح معه هذا اللفظ في الغالب بلا معنى"[38]. غير أن ذلك لا يحول دون استنباط جملة من المميزات التي تؤلف الفلاسفة التحليليين. من هذه المميزات:[39]

- التركيز على اللغة: باعتبارها هدفا من أهداف التحليل الفلسفي، وليست مجرد أداة.

(37) عزمي إسلام "لودفينج فتجنشتاين نوابغ الفكرالغربي" 19 دار المعارف مصر ص 61.

(38) محمد مهران رشوان "مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة" دار الثقافة للنشر والتوزيع ط 2، 1984، ص153.

(39) نفسه ص 154 وما بعدها.

- تفتيت القضايا: إذ يفضلون أن يكونوا على معرفة تامة بالمسائل الصغيرة، تلك التي تؤدي في نظرهم إلى الدقة والإتقان. وهذا الاتجاه هو عكس المقاربة الشمولية L-approche Totalitaire التي تهدف إلى بناء التأليفات الفلسفية الشامخة.

- الخاصية المعرفية: ويوضح محمد مهران رشوان أن مقصوده بهذه الخاصية هو اتجاه الفلسفة التحليلية نحو الكشف عن العالم الخارجي، وذلك عن طريق فحصه، لأجل اكتساب المعرفة، وليس لأجل أي سبب آخر. وهو ما دفع البعض إلى نعتها بالفلسفة العلمية.

- البين ـ ذاتية: إن الفلسفة التحليلية تستخدم نوعا من التحليل له معناه المشترك بين الذوات بالنظر إلى اللغة التي يتحقق فيها (...) وباختصار فإن مفهوم التحليل الذي لا يرتبط باللغة المشتركة بين الذوات لا بد أن يكون ــ على أقل الفروض ــ واقعا في التناقضات، وقد يكون على أسوء الفروض عديم النفع بالنسبة للعملية الفعلية للتحليل. وعلى ذلك فلا بد للفظ التحليل أن يقتصر استخدامه على التحليلات الخاصة باللغة المشتركة بين الذاوات كما هو الحال في الفلسفة التحليلية.

إن اشتراك الفلاسفة التحليليين في المميزات السابقة لا يرادف تطابق أبحاثهم، ولا مجالات اهتمامهم. يبدو ذلك جليا عندما نقارن ــ بصفة عامة ــ القضايا التي أثارتها مدرسة كمبردج (رسل ومور وفتجنشتاين...) مع مدرسة أكسفورد (أوستن وهيرث ستراوسون وهتمشاير...) مع ما قدمته مدرسة فيينا الوضعية المنطقية (شليك وكارناب...)[40]

40 نشير مقدما إلى أننا سنتوقف عند مدرستين هما كمبرودج وأكسفورد، لصلتهما بقضايا التداولية، وسنحجم عن الحديث على الوضعية المنطقية بحكم انشغال أعلامها بقضايا أخرى لا يحتل فيها تحليل اللغة الأولوية.

2.1 مدارس الفلسفة التحليلية:

1.2.1 مدرسة كمبردج:

1.2.1.1 جورج مور والحس المشترك:

يعتبر جورج إدوارد مور George Edward MOORE (1873 -1958) من رواد الفلسفة التحليلية. بدأ حياته مثاليا على خطى أساتذته برادلي Bradley وكرين Green وماكتجارت Mactaggart، غير أن اتصاله بفلاسفة مدرسة كمبردج، أمثال فتجنشتاين ورسل، عجل بتخليه عن المثالية الألمانية التي كانت تزحف على انجلترا، ليتحول إلى ألذ أعدائها. فكتب مور سنة 1903 مقالة بعنوان "دحض المثالية" the refutation of idealism، نشرها في مجلة Mind عدد أبريل، سعى فيها لتقويض أسس الاتجاه المثالي، مؤكدا أن كثرة الإشكالات الفلسفية ترجع لطبيعة الأسئلة المطروحة. فالفلاسفة لا يعنون بتبيان حقيقة الأسئلة التي سيجيبون عنها، ولو أنهم حاولوا تدقيق أسئلتهم قبل الشروع في الإجابة، وتوضيحها بما لا يدع مجالا للالتباس أو الغموض، لكان بمقدورهم تجنب جملة من الإشكالات الفلسفية الزائفة. وفي ذلك يقول في مقدمة كتابه "مبادئ الأخلاق": "يبدو لي أنه في الأخلاق ـ وفي سائر الدراسات الفلسفية ـ تكون الصعوبات والاختلافات، التي اكتظ بها التاريخ، راجعة إلى سبب بسيط، وهو محاولة الإجابة عن أسئلة، قبل أن يكتشف الإنسان بدقة عما هو السؤال الذي يرغب في الإجابة عنه. فهناك يكمن أصل أخطاء لا نهاية لها، كان من الممكن تلافيها لو حاول الفلاسفة أن يكتشفوا المعنى الحقيقي للسؤال الذي يواجهونه، قبل أن يشرعوا في الإجابة عليه"(41). لهذا يفضل مور توضيح الأسئلة المراد الإجابة عنها، ورفع اللبس عن القضايا المطروحة، من خلال الوقوف عند أدق التفاصيل والجزئيات، بدل الاهتمام ببناء

(41) Moore George Edward Principia EthicaCambridge, University of Press, 1903, introduction.

الأنساق الفلسفية الكبرى أو العناية بصحة الأجوبة نفسها.

فضلا عن ذلك انشغل مور ــ في إطار فلسفته التحليلية ــ بما سماه الحس المشترك، ويقصد به الإدراك الفطري والتمثل العفوي الذي يعبر عنه الإنسان البسيط بخصوص جملة من القضايا التي تستأثر باهتمامه. في هذا الصدد يؤكد مور أن الحس المشترك يكشف عن معتقدات صادقة وواضحة، يؤمن بها الناس، ويقبلونها لأنها نتاج تفكير ساذج وفطري، لا تثقل كاهله التصورات ولا المذاهب، كما أن اللغة التي يعمد إليها الحس المشترك هي لغة شفافة صادقة، تبتعد عن التجريد الذي يطبع لغة الفلاسفة. على هذا الأساس فإن الحس المشترك مصدر لا محيد عنه لمقاربة الأسئلة الفلسفية، كما أن اللغة العادية أداة لا غنى عنها لتجاوز كثير من القضايا الفلسفية الزائفة. بناءً على ما تقدم يخلص مور إلى ضرورة إخضاع النصوص الفلسفية لتحليل لغوي لتبيان مدى انحراف لغة الفلسفة عن اللغة العادية.

1.2.1.2 تفتيت القضايا الفسفية مع برتراند رسل:

كان لالتحاق برتراند رسل Bertrand Russell (1872–1970) هو الآخر بكمبردج أثر كبير على حياته الفكرية. إذ اتصل بنخبة من الفلاسفة والمفكرين أمثال ألفرد نورث واتهيد وجورج مور، واستطاع بذكائه المتقد، ومعرفته الموسوعية أن يقتحم حقولا متنوعة كالرياضيات والفلسفة والسياسة والتربية، وأن يؤسس لما يعرف بالذرية المنطقية .logical atomism أما غاية رسل فتتجلى في جعل الفلسفة أداة لفهم العالم وحل مشكلاته. وسبيله لتحقيق هذه الغاية رفض الميتافيزيقا، واصطناع لغة منطقية مختلفة عن اللغة الطبيعية.

لأجل ذلك، انشغل رسل باللغة في فلسفته الذرية، وقد اتخذ هذا الانشغال منحيين: التحليل الصوري للعالم من خلال تحليل الوقائع والقضايا من جهة، وتحليل اللغة من خلال نظرية الأنماط ونظرية الأوصاف من جهة أخرى.

ففي المنحى الأول سعى رسل لحصر الصور المنطقية للوقائع facts وصور

القضايا المعبرة عن هذه الوقائع، مسلما بأن العالم يتألف من وقائع نعبر عنها من خلال قضايا. والواقعة عند رسل هي"(. . .) ذلك الشيء الذي يجعل قضية ما صادقة أو كاذبة. فإذا قلت "السماء تمطر" فإن قولي هذا يكون صادقا في حالة معينة من حالات الطقس، وكاذبا في حالات الطقس الأخرى. فحالة الطقس التي تجعل قولي صادقاً (أو كاذبا حسب ما يمكن أن يكون عليه الأمر) هو ما سأسميه واقعة" .(42) وبالمثل عندما نقول "مات سقراط" فليس المقصود شيئا جزئيا هو سقراط، لأن سقراط نفسه لا يجعل أي قول صادقا أو كاذبا، وإنما الواقعة بأكملها هي التي تحتمل الصدق أو الكذب. إنه بناء منطقي نتوسل به للتعبير عن العالم، ووصف ما يحيط بنا، أما حين يرد اللفظ سقراط لوحده، فيمكن رد ذلك إلى سياق غير معبر عنه.

علاوة على ذلك تتصف الواقعة بكونها لا بد أن تكون مركبة، وقابلة للتحليل إلى بسائط. والبسائط هي ما نكون على معرفة مباشرة بمعناه، معرفة غير معطاة، وإنما وصلنا إليها بطريقة استدلالية من خلال تفتيت الوقائع إلى أجزائها الصغيرة. ويذهب رسل أبعد من ذلك حين يعترف بأن الوقائع ليست من اختراع عقولنا، وإنما هي موضوعية ومستقلة، تنتمي إلى العالم الموضوعي، لا هي عقل ولا هي مادة، متجاوزا بذلك الثنائية الديكارتية (عقل / مادة) أو التصور المثالي (العقل وحده) أو التصور المادي (المادة وحدها).(43)

وبموازاة مفهوم الواقعة، صبّ رسل اهتمامه على مفهوم القضية. والقضية في نظره مجرد رمز، هي رمز مركب، بمعنى أن له أجزاء هي رموز. ففي العبارة المحتوية على ألفاظ عديدة، يكون كل لفظ من هذه الألفاظ رمزا، والعبارة التي تؤلف بين هذه الرموز تكون إذاً رمزا مركبا بهذا المعنى. في هذا الصدد يميز رسل بين القضية والعبارة. فهذه الأخيرة تتصل بالألفاظ المؤلفة وفق

---

(42) Russell Bertrand Logic and knowledge, George Allen & Unwin, 1950, p182.

(43) يمنى طريف الخولي مرجع سابق «فلسفة العلم في القرن العشرين» ص 271.

تركيب نحوي محدد، في حين أن القضية ترادف ـ إلى حد ما ـ المعنى. يظهر ذلك جليا عندما نلجأ إلى ترجمة واقعة ما مثل "السماء تمطر" إلى الفرنسيةil pleut وإلى الإنجليزية it rains وإلى الإسبانية .lluve ففي هذه الأمثلة نلاحظ أن القضية المعبرة عنها واحدة، لكن طرائق التعبير عنها تختلف باختلاف اللغة. ولا يختلف هذا المثال عن المثال التالي: 3+2= 5 1+2+2=5 1+1+1+2=5. . . من جهة أخرى تختلف الواقعة عن القضية في كون الوقائع تنتمي ـ كما أشرنا ـ للعالم الموضوعي لا إلى فكرنا، لذلك لا تحتمل الحكم عليها بالصدق أو الكذب، في حين أن القضايا تنتمي لمجال الفكر، وينطبق عليها معيار الصدق والكذب. أما العلاقة بين القضية والواقعة فتتأسس على مبدأ التطابق أو التناسب Correspondance.[44]

في سياق متصل اهتم رسل بتحليل اللغة منطقيا، على اعتبار أن بيان خواصها قد يساعدنا على فهم العالم؛ ذلك أن دراسة صور القضايا تمكننا من الوصول إلى تحليل صور الأحداث الموجودة في العالم. وسبيله لتحقيق هذه الغاية تحليل اللغة البشرية. غير أنه يؤكد أن اللغة الطبيعة المستعملة في حديثنا اليومي سبب في إثارة جملة من القضايا الفلسفية الزائفة. ويرجع هذا الزيف إلى مفرداتها وتراكيبها النحوية التي تسمح بانتشار تعابير فجة مثل "الجبل الذهبي" و"المربع الدائري". فالعبارة الأخيرة مثلا تؤدي صورتها النحوية إلى الاعتقاد بأنها تتناول موضوعا، غير أنها في الحقيقة لا تشير إلى موضوع محدد. ووظيفة التحليل الفلسفي أن يكشف لنا عن الصورة الصحيحة المنطقية للجملة، لأن ما تقوله حقا هو أنه لا يوجد موضوع يمكن أن نلصق به صفة التربيع والتدوير في الآن نفسه. لذلك نحتاج إلى إعادة صياغة الصورة المنطقية للجملة على النحو التالي المربع الدائري غير موجود، تعني أنه لا يمكن أن يوجد موضوع يكون مربعا ودائريا في الوقت نفسه.

44 يقول لالاند في معجمه: التطابق "علاقة منطقية أساسية قوامها حين يكون طرفا ما معطى، أن طرفا أو عدة أطراف محددة تكون بذلك معطاة أيضا، إما بمقتضى جدول سابق، وإما بمقتضى صيغة عامة تشكل قانونها التطابقي" ويضيف " نظرية التطابقات عقيدة ترى أن العالم مركب من عدد معين من الدوحات أو الممالك المتماثلة، تتطابق عناصره المتتالية واحدا بواحد..." المجلد الأول ص 233.

لهذا نحا رسل نحو ترجمة العبارة المصوغة في اللغة العادية/ الطبيعية إلى صيغ منطقية دقيقة وواضحة، في أفق تجاوز العيوب الناتجة عن استعمال اللغة الطبيعة. وقد استند رسل لنظريتين تفردت بهما فلسفته التحليلية هما نظرية الأنماط the theory of logical types ونظرية الأوصاف The theory of descriptions

وقد انتهى رسل من خلال تحليله للغة إلى وجود نوعين أساسيين من القضايا: قضايا جزئية بسيطة تدور حول وقائع جزئية بسيطة، يطلق عليها رسل اسم القضايا الذرية، ثم قضايا مركبة غير مباشرة، وتدور حول قضايا أخرى ذرية تشرحها وتتحدث عنها. واعتبر رسل القضايا الذرية هي الوحيدة التي يرتدّ إليها التفكير، والتي تنحل إليها اللغة؛ ومعيار التحقق من صدق القضايا عند رسل يرتبط بنوع القضية، فصدق القصية الذرية مرهون بمطابقتها للعالم الخارجي، أما صدق القضية المركبة فيكون بتحليلها أولا إلى القضايا الذرية التي تتكون منها، ثم البحث عن مدى تطابق تلك القضايا الذرية الأخيرة مع الواقع الخارجي(45).

1.2.1.3 لودفينغ فتجنشتاين وألعاب اللغة:

على النهج مور سار لودفينغ فتجنشتاين (1889Ludwing Wittgenstein-1951) الذي اعتبر اللغة حجر الزاوية في تحليلاته الفلسفية، حين صرح في مقدمة كتابه "رسالة منطقية فلسفية" بأن: "كتابه يعالج مشكلات فلسفية. وفيما أعتقد ـــ أن الذي دعا إلى إثارة هذه المشكلات هو أن منطلق لغتنا يساء فهمه. ويمكن أن نلخص معنى الكتاب كله على نحو قريب مما يلي: إن ما يمكن قوله على الإطلاق، يمكن قوله بوضوح، وأما ما لا نستطيع أن نتحدث عنه فلا بد أن نصمت عنه". ويضيف: "إن معظم القضايا والأسئلة التي كتبت عن أمور فلسفية ليست كاذبة، بل هي خالية من المعنى. فلسنا نستطيع إذاً أن نجيب عن أسئلة من هذا القبيل، وكل ما يسعنا هو أن نقرر أنها خالية من المعنى. فمعظم الأسئلة والقضايا التي يثيرها الفلاسفة إنما تنشأ عن حقيقة كوننا لا نفهم منطق لغتنا "(46).

(45) سماح رافع محمد،مرجع سابق «المذاهب الفلسفية المعاصرة» ص 91.

(46) Ludwig Wittgenstein tractaçus logoco-philosophicus Traduction préambule et notes de Gilles Gaston Granger, Gallimard, 1993 (pour la traduction française), p31.

وتأسيسا على ذلك، فإن الفهم الصحيح للفلسفة يفرض ألا نقول شيئا إلا ما يمكن قوله، أي قضايا العلم الطبيعي.(47)

ويتوقف فتجنشتاين عند بعض الأسباب الكامنة وراء سقوط الفلسفة ضحية للميتافيزيقا بسبب سوء فهم منطق اللغة. من هذه الأسباب:(48)

- الخلط بين الصورة المنطقية الظاهرة للقضية وصورتها الحقيقية. ففي لغة الحديث اليومي تطالعنا كلمة واحدة بمعان مختلفة. فالفعل المساعدis "يكون" مثلا يستعمل رابطا بين موضوع ومحمول في قضية ما، كما قد يستعمل بمعنى يساوي أو للدلالة على الوجود. وظواهر من هذا القبيل تفسح المجال لانتشار الأخطاء والمغالطات. لهذا لابد في نظر فتجنشتاين من استخدام جهاز من الرموز يجنبنا هذه الظواهر بتخصيص العلامات اللغوية بدلالات معينة. ولا يعني ذلك أن موقف فتجنشتاين هو موقف من المجاز والتورية والجناس. . وإنما هي قضية فلسفية عميقة، ترتبط باستعمال اللفظ في سياق ما للدلالة على معنى مختلف عن المعنى المراد التعبير عنه. مما يدفعنا للاعتقاد بأن الصورة المنطقية للجملتين ـ رغم اختلافهما ـ واحدة. كأن نظن أن عبارة I am existing لها الصورة المنطقية نفسها لعبارة I am goingعلى أساس أن الخبر في الجملة الأولى "موجود" من نفس النمط المنطقي للخبر "ذاهب" ما يدفعنا لإثارة أسئلة متناقضة عن الوجود من قبيل هل الوجود موجود أم لا ؟ هل هو واحد أم متعدد؟
- الظن بأن معنى اللفظ عبارة عن شيء يمكن الإشارة إليه، ونقول هذا هو المعنى.
- الخلط بين التصورات المنطقية أي المعاني الكلية وبين تصوراتنا عن الأعلام. فمثلا عندما نقول "إنسان" فنحن لا نشير إلى فرد بعينه، وإنما تشير إلى عدة صفات مشتركة بين بني الإنسان. بخلاف ذلك نجد الأسماء الجزئية تشير إلى

(47) لا يمكن أن نفصل هذه الآراء عن موقف التجريبية الإنجليزية من الوجود والميتافيزيقا.
(48) عزمي إسلام "لودفينغ فتجنشتاين"، ص 140 وما بعدها.

فرد معين (زيد محمد...) أو شيء محدد (طاولة، كتاب...). وبصيغة أوضح نستعمل جملة من قبيل "هناك كتب" و"هناك مائة كتاب"، فنخطيء عندما نفترض أن بمقدورنا أن نقول "هناك أشياء" و"هناك مائة شيء". فرغم ما بين المثالين من شبه فإن التعبيرين الأخيرين لا يشكلان قضايا حقيقية، أو هما تعبيران خاليان من المعنى، لأن "شيء" ليس تصورا أصلا كما هو الحال مع كتاب، بل هي أشبه بالمتغير الذي يمكن أن نستبدله بلفظ كتاب أو مدرسة...

- استحالة التعبير عن صورة التمثيل الموجودة بين القضية وبين الواقعية التي تمثلها هذه الواقعة. فبمقدور الرسم مثلا أن يمثل الوجود الخارجي ما دامت له صورته، إلا أن الرسم لا يستطيع أن يمثل ما في من صورة التمثيل، وإنما يعرضه. إن الرسم يمثل الشيء المرسوم، لكنه لا يستطيع أن يضع نفسه خارج الصورة. لذلك فإن هذا الرسم مما يمكن الإشارة إليه لا الإخبار عنه، فإذا حاولنا أن نعبر عنه في اللغة كنا بمثابة من يتجاوز حدود اللغة، لأنه أصبح يتكلم عما لا يمكن قوله أو الحديث عنه.

وفي كتابه "مباحث فلسفية" يبوئ فتجنشتاين أيضا اللغة أيضا منزلة مهمة في تحليل القضايا الفلسفية، على اعتبار أن "المشكلات الميتافيزيقية تُحلُ بالبحث في الطريقة التي تعمل بها لغتنا، أي بالتعرف على طريقة عمل اللغة واستعمالها. فالمشكلات لا يتم حلها بذكر معلومات جديدة، بل بترتيب ما كنا نعرفه بالفعل"(49). وقد نصّ فتجنشتاين على أن اللغة المقصودة هنا ليست اللغة المنطقية الصورية، كما هو الحال مع رسل، بل هي لغة الحديث اليومي. لذلك فإن الفلسفة مدعوة إلى التخلي عن الاستخدام الميتافيزيقي للغة والعودة إلى لغة الحياة اليومية.(50)

(49) Wittgenstein Ludwig Philosophical Invesigation »Trasnlated by Anscombre, G. E and edited by Anscombre and Rhees, R., Oxford, Basil Blackwell, 3rd impression, 1963, p47.

(50) نفسه ص 48.

والتنصيص على دور لغة الحياة اليومية مرده تخلي فتجنشتاين عن البحث في ماهية اللغة، ورفضه التعامل معها على أساس أنها مجرد عناصر جامدة في تصوره المنطقي. في مقابل ذلك اعتبر فتجنشتاين أن اللغة وسيلة حيوية وفعالة نلجأ إليها للتعبير عن فكرنا في سياقات مختلفة. ومن ثم أصبحت لها وظيفة تؤديها في "مباحث فلسفية" بعدما كانت محصورة في نطاق التحليل الصوري المنطقي. وفي ذلك يقول: "كما يقال في الرياضة "دع البرهان يوضح لك ما ما يمكن البرهنة عليه"، فإننا نقول كذلك "دع الألفاظ تعلمك وتوضح لك معناها"[51]. ومعاني الألفاظ هذه لا تتحدد إلا ضمن سياق معين، لأن الثياب التي ترتديها لغتنا تجعل كل شيء شبيها بالآخر. مما يدعونا إلى التدقيق في استعمالاتنا للغة، حتى نتجنب كل المغالطات أو القضايا الزائفة. بل إن القضايا الفلسفية نفسها لا تستلزم بالضرورة تجريدا ميتافيزيقيا، فحسبنا أن ننظر في حياة الناس وما يتكلمون به.

وقد انقاد فتجنشتاين بسبب هذا الموقف للحديث عما أسماه "ألعاب اللغة". والمراد بذلك أن اللفظ لا يستعمل للدلالة على صورة منطقية واحدة كما في "رسالة منطقية فلسفية" وإنما يعبر عن معان كثيرة بحسب سياق الكلام. ذلك أن معنى الكلمة قد يختلف بين استعمال وآخر، لأن الكلمة ليست ماهية ثابتة، وإنما معناها يتحدد من خلال المواقف الفعلية المختلفة.

على هذا الأساس أصبحت اللغة صورة عن الحياة وأداة للفعل والتأثير "إنني لا أقول بدون اللغة ما كنا نستطيع أن نتصل ببعضنا البعض فقط، بل أقول أيضا بدون اللغة ما يمكننا أن نؤثر في غيرنا من الناس على هذا النحو أو ذاك. ولم يكن ليمكننا إقامة او وضع الطرق وبناء الآلات..."[52]. وإذا افترضنا وجود لغة لا نستطيع بواسطتها إعطاء الأوامر أو وصف شيء، فإن ذلك يعني أن مثل هذه الأنشطة لا وجود لها في حياة الناس أصلا.

---

(51) نفسه الجزء الثاني الفصل 11 ص 220.
(52) نفسه الجزء الأول المبحث 491 ص 137.

1.2.2 مدرسة أكسفورد:

توقفنا في ما سلف عند مدرسة كمبردج، واتضح لنا في حينه أن جهود أبرز أعلامها تمحورت حول نقد الفلسفة المثالية التي طفقت تزحف على الفلسفة الإنجليزية. ولنا الآن أن نتساءل ما أهم القضايا التي أثارتها مدرسة أوكسفورد؟

تُعرف مدرسة أوكسفورد أيضا في الأدبيات الفلسفية بـ"فلسفة اللغة العادية"، وتُعزى هذه التسمية إلى الانشغالات التي عبّر عنها أهم روادها مثل أوستن Austin وستراوسن StrawsonPeter ورايل RyleGilbert وهارت H.L.A Hart، وسورل John Searl وكفال Stanley Cavell. وتتمحور هذه الانشغالات حول السعي نحو حل بعض الألغاز الفلسفية العالقة، من خلال تحليل التعابير المنطقية وإيضاحها، حتى تغدو بسيطة وغير ملتبسة. والسبيل إلى ذلك يتحقق بتجنب النقاشات الفلسفية الميتافيزيقية، والإعراض عن طرح بعض الأسئلة المضافة من قبيل "ما دلالة س؟" و "ما معنى س؟" والانطلاق بدل ذلك من سؤال "ما استعمالات س؟". والإجابة عن هذا السؤال الأخير، وإن لم تكن خاتمة المطاف End-all في النشاط الفلسفي، إلا أنها تمثل كما يقول أوستن بداية المشوار(53) Begin-all

ورغم تقاطع فلاسفة مدرسة أكسفورد في الانشغالات والأهداف العامة والمنهجية (تحليل اللغة العادية)، إلا أن ذلك لا يخفي حجم التباين والاختلاف بينهم. لذلك يعترف وايتز بأن فلاسفة أكسفورد ينفون أن يكونوا قد شكلوا حركة فلسفية، على غرار الوضعية المنطقية(54).

وإذا كانت المنهجية المعتمدة لدى فلاسفة أكسفورد تتأسس على مساءلة

(53) Morris Weitz «Oxford Philosophy»InThe Philosophical Review, Vol 62, N' 2, Apr 1953, pp 187-233.

(54) نفسه ص 187.

القضايا استنادا إلى ما تدل عليه في الاستعمال اليومي، فإن الإشكال الذي يعترضنا هو ما المراد باللغة العادية؟ إن الإجابة، وإن بدت في ظاهرها سهلة وبسيطة، إلا أنها في واقع الحال ليست كذلك. في هذا الإطار يشير محمد مهران رشوان أن رايل في مقاله المعنون بـ "اللغة العادية" يميز بين:(55)

- الاستعمال العادي للتعبير، حيث يكون المقصود بلفظ "عادي" هنا الاستعمال المقياسي Standard بوصفه قائما ضد الاستعمال غير المقياسي للتعبير.
- استعمال اللغة العادية، حيث يكون المقصود بلفظ "عادي" هنا التعبير المشترك الذي يقال في مقابل التعبير الاصطلاحي أو غير المشترك.
- العرف اللغوي Usage وهو الاستعمال الشائع أو العادة اللغوية.

والخيط الناظم بين هذه التمييزات يتمثل في إقرارها بأن اللغة العادية ترادف الاستعمال المعياري والشائع والمشترك والدارج بين الناس، وهو استعمال لا يقتضي معرفة لغوية عميقة ولا متخصصة لفهم الخطاب. إنها اللغة التي يتداولها الناس، ويفهمها الجميع بصرف النظر عن مستواهم الثقافي والمعرفي والمعجمي. ومن ثم تكون اللغة العادية مختلفة عن لغة الشعر والفلسفة والفيزياء والرياضيات والحاسوب... لأن الأخيرة تستلزم معرفة عالمة، ومتخصصة.

أما التفسير الذي يسوقه أعلام مدرسة أكسفورد لتعليل عنايتهم باللغة العادية، فيتمثل في كونها لغة شفافة بسيطة، مفهومة ومباشرة، يستعملها الناس في حياتهم اليومية للتعبير عما يجول في خاطرهم. بيد أن واقع الحال ينبئ بأن الحدود بين اللغة العادية واللغة الشعرية ـ على سبيل التمثيل لا الحصر ـ غير مرسّمة.(56)

وبصرف النظر عن الإشكالات التي يثيرها تحديد المقصود باللغة العادية،

(55) محمد مهران رشوان، مرجع سابق، "مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة" ص 185.
(56) للتفصيل في هذا الطرح انظرمقال "ما الشعر؟" ضمن:
–Roman Jakobson Huit Questions de Poétique, Editions de Seuil, 1977, pp 31-49.

فإن الحقيقة المؤكدة هي عناية فلاسفة أكسفورد بمعالجة القضايا الفلسفية الكبرى من خلال منهجية تحليلية ترتد بالمعرفة إلى أصلها الأول، الحس المشترك. في هذا الصدد يوضح وايتز أن مقالات أوستن وزملائه شكلت تحولا جذريا في منهجية معالجة الإشكالات التقليدية حول طبيعة المعرفة. فمنذ أفلاطون، مرورا بديكارت، وصولا إلى رسل كانت موضوعات الابستومولوجيا قد تبوأت منزلة رفيعة، حيث غدت المعرفة صادقة، لا يطالها الشك أو التصحيح. بيد أن فلاسفة أكسفورد تمردوا على هذه النظرة التمجيدية، وذلك بالبحث في فهم المعرفة من خلال التوضيح الحقيقي لبعض الكلمات المفاتيح المرتبطة بالمعجم التقليدي للإبستومولوجيا. مصداقا لذلك استبدل أوستن ورايل وستراوسن وغيرهم سؤال "ما المعرفة؟" بسؤال آخر مؤداه "ما الاستعمال الحالي للفعل عرف/ علم؟"، مع ما يتصل به من عبارت من قبيل معرفة ماذا؟ ومعرفة كيف؟.[57]

ومن الأمثلة الأخرى الدالة على هذا المنزع الجديد في تحليل القضايا الفلسفية التساؤل مثلا عمّا الحقيقة؟[58]. وسؤال من هذا القبيل تداوله الفلاسفة منذ أقدم القرون، وخُصصت له المصنفات الكثيرة، غير أن الجواب عنه بالنسبة لفلاسفة اللغة العادية يستلزم تمحيص استعمال كلمة حقيقية في لغة الحديث اليومية. ففي بعض الحالات يصرح الناس بعبارات من جنس "مسدس حقيقي"، وهم بذلك لا يقدمون توصيفا فلسفيا لطبيعة الحقيقة، وإنما يقصدون أن هذا المسدس ليس لعبة، وأنه يختلف عن مسدس آخر مزيف.. .وبالمثل فإننا عندما نصرح بعبارة مثل "في الحقيقة" فإنها تعني أن المتكلم يكشف عما يعتبره صادقا.

وقد توسع أعلام فلسفة اللغة العادية في تطبيق هذه المنهجية، فشملت

---

(57) وايتز فلسفة أوكسفورد مقال سابق ص 200-201.
(58) نفسه ص 211، حيث توقف وايتز عند منظور ستراوسن للحقيقة.

مفاهيم أخرى، حيث توقف رايل عند التميز بين أعتقد وأعلم، كما شملت بعض الظواهر، حيث تحدث أوستن عما سماه بالإيهام الوصفي the descrip-tive falla cy/L-illusion descriptive وأصل هذه الظاهرة يرجع إلى الاعتقاد الراسخ في البلاغة والفلسفة بأن الملفوظات كلها وصفية، تحتمل الصدق تارة والكذب تارة أخرى. بيد أن حيزا مهما من هذه الملفوظات لا يصف وقائع، بقدر ما ينجز أفعالا. وقد ساق أوستن عدة أمثلة منها:

ـ أُسمي هذه السفينة الملكة إلزبيث.

(I name this ship the Queen Elizabeth)

ففي هذا المثال يتضح أن المتكلم لا يصف حالة، وإنما ينجز فعلا، هو فعل التسمية. لذلك ميز أوستن بين ملفوظات تقريرية وصفية، وملفوظات إنجازية. من هنا صاغ أوستن عنوان كتابه المشهور: كيف ننجز الأشياء بالكلام How to do Things with WordsÅ / Quand dire c'est faireÅ/.

علاوة على ذلك نص أوستن في محاضراته حول وليام جيمس على أهمية الأثر الذي يحدثه فعل القول في المخاطَب. إذ بيَّن أن نجاح فعل القول لا يستند بالأساس إلى صدقه أو كذبه، وإنما إلى مدى المخاطَب واقتناعه بمقاصد المتكلم.

1.3 خلاصة:

لقد استطاعت الفلسفة التحليلية أن تخطَّ لنفسها طريقا فريدا في معالجة القضايا الفلسفية المستعصية منذ أمد بعيد، وسبب استعصائها عن الحل عائد ـ من وجهة نظر التحليليين ـ إلى أن الفلاسفة والمناطقة على حد السواء تحاشوا طرح الأسئلة الجوهرية بسعيهم لتجريد القضايا الفلسفية، بينما لا تحتاج في نظر أعلام الفلسفة التحليلية سوى لمعالجة تنطلق مما يوافره الحس المشترك، وتقدمه اللغة العادية. والجدير بالذكر أن المنهجية التي اعتمدتها مدرسة أوكسفورد في تحليل القضايا الفلسفية مثلت منطلقا لكل من أوستن وسورل

لتفتيت القضايا اللغوية والفلسفية على حد السواء. وقد تجلى ذلك بوضوح من خلال وقوف أوستن عند ظاهرة الإيهام الوصفي، وتنصيصه على ضرورة رصد خواص الأفعال الكلامية، وسعيه للتميز في الملفوظات بين الإنجازية والتقريرية.

وإذا كانت الفلسفة التحليلية قد لعبت دورا مهما في تعديل بوصلة الاهتمامات الفلسفية، بإحجامها عن التحليلات المثالية التي طبعت الفلسفة لعقود، ورفضها الانهماك في بناء الأنساق الفلسفية الكبرى قبل كل تحديد دقيق للأسئلة المطروحة، وللمفاهيم الفلسفية الموظفة، فإن الدراسات التداولية جسدت هذا التحول المعرفي والمنهجي من خلال انشغال أعلامها أيضا بتفتيت القضايا اللغوية، وتحليل الظواهر الناتجة عن استعمال النسق اللغوي، كقضايا الاستلزام الحواري، ومضمرات القول.. دون أن تكون غايتهم القصوى بناء أنساق لسانية كلية بمقدورها إنتاج عدد لامتناه من الجمل اعتمادا على عدد متناه من القواعد، كما هو الحال مع النحو التوليدي.[59] واحجام التداوليين عن بناء الأنساق الكبرى مرده إلى اعترافهم بتعدد الظواهر اللغوية وتشابكها وصعوبة حصر اللامتناهي من خلال المتناهي. لهذا ركز معظمهم على عملية التحليل المفضي إلى تعميق الفهم بقضايا التواصل الإنساني.

ومن حسنات توجيه دفة الاشتغال صوب تفتيت القضايا اللغوية إيلاء أهمية كبرى لكل ما يطرأ أثناء التفاعل الكلامي. في هذا الصدد أوضح التداوليون ـ على اختلاف انشغالاتهم ومجالات بحثهم ـ أن التواصل الإنساني ظاهرة معقدة تحيط بها ملابسات كثيرة، ذات صلة بأمزجة المتخاطبين وخلفياتهم ومقاصدهم ومضمراتهم وقدراتهم على الحجاج والاستدلال. لذلك كرسوا جهدا ليس بالهين لمقاربة هذه الملابسات، من خلال تعميق الفهم

(59) مثال ذلك، نموذج الحالات المنتهية الذي ناقشه نوام شومسكي في كتاب "البنى التركيبية"، انظر:
Chomsky Noam structûre syntaxiques traduit parÅMichel Bradeau,Paris, Seuil 1969.

بالسياق الكلامي، ودراسة الاستدلالات التي يقدم عليها المتخاطبون أثناء تفاعلهم، وتحليل البنيات الحجاجية اللغوية المنبتة في الخطابات.

علاوة على ذلك خصّ التداوليون ألعاب اللغة بعناية كبيرة، وهي ألعاب تثبت أن التفاعلات الكلامية لا تقتضي اكتساب ملكة لغوية فقط، وإنما تستدعي كذلك عدة ملكات، منها الملكة التداولية التي تمكّن المتخاطبين من الانخراط في سيرورة التواصل إيجابا، وتتيح لهم إدراك المقاصد المعلنة والمضمرة من خلال جملة من الاستدلالات الذهنية. ولتوضيح صلة الملكة التداولية بألعاب اللغة نشير إلياالتلوينات التي ينطبع بها الكلام خلال التواصل، ومراوحته بين الحقيقة والمجاز، وخروجه لا على مقتضى الظاهر، ودلالته على معان تتعدى ما نصرح به... ومن ثم فإن التداولية بتركيزها على تحليل الاستعمال اللغوي، تكون قادرة على الاقتراب أكثر من هذه الظواهر المصاحبة للتواصل البشري.

ولا تفوتنا كذلك الإشارة إلى أن التداولية بقدر ما هي حريصة على تحليل ألعاب اللغة ومحجمة عن بناء الأنساق اللسانية الكبرى، بقدرما هي مهتمة بدراسة ملفوظات يتواتر استعمالها في حياتنا اليومية، وتجد لها صدى في حواراتنا العادية. وهذا التنصيص على تحليل الاستعمال اللغوي يأتي متساوقا مع انشغال الفلسفة التحليلية بدراسة الحس المشترك بعيدا عن كل تجريد فلسفي.

2- السيميائيات والذرائعية(60) Pragmatism

يقترن الحديث عن السميائيات بعلمين بارزين تركا بصمة واضحة في التاريخ الفكري الحديث، هما عالم اللغة السوسري فردناند دي سوسير

(60) هناك خلط شائع بين اتجاهين متباينين هما التداولية pragmatic والذرائعية pragmatism. فالاتجاه الأول مداره حول تحليل اللغة باعتبارها فعلا وقصدية وسياقا كلاميا، أما الاتجاه الثاني والأخير فعبارة عن اتجاه فلسفي، انتشر في أمريكا يسلمبأن المعيار الوحيد للحقيقة هو فعاليتها ومنفعتها.

Ferdinand de SAUSSURE (1913-1757) والفيلسوف الأمريكي شارل سندر بيرس Charles Sanders PEIRCE (1914-1839). ورغم انشغالهما معا بموضوع العلامة، إلا أن تصور كل مهما مباين لتصور الآخر.

2.1 السيميائيات والتداولية:

لقد بشر دي سوسير بعلم أطلق عليه السيميولوجيا قائلا: "ونستطيع إذن أن نتصور علما يدرس حياة الرموز والدلالات المتداولة في الوسط المجتمعي. وهذا العلم يشكل جزءا من علم النفس المجتمعي(...) ومادام هذا العلم لم يوجد بعد فلا نستطيع أن نتنبأ بمصيره، غير أننا نصرح بأن له الحق في الوجود وقد تحدد موضوعه بصفة قبيلة. وليس علم اللسان إلا جزءاً من هذا العلم العام"[61]. ولئن كان العالم السويسري دي سوسير قد أقر بأحقية هذا العلم في الوجود، وجعله سبيلا لدراسة العلامة اللسانية، على أساس أن اللسان واقعة اجتماعية توجد بمعزل عن الفرد، فإن بورس جعل السيميائيات علما شاملا موضوعه التجربة الإنسانية بصرف النظر عن كونها لسانية أم حركية أم لونية... وفي ذلك يقول: "لم يكُن في وسعي أن أدرس أي شيء، سواء

(61) دي سوسير «محاضرات في علم اللسان العام» ترجمة عبد القادر قنيني، مراجعة أحمد حبيبي، إفريقيا الشرق، 1987، ص 26. وفي ما يلي النص كما ورد في Cours de linguis-tique générale:

«La langue est un système de signes exprimant des idées, et par là, comparableà l'écriture, àl'alphabet des sourds-muets, aux formes de politesse, aux signauxmili-taires,etc. Elle est seulement le plus important de ces systèmes. On peutconcevoi-rune science qui étudie la vie des signes au sein de la vie sociale ; [ì]nous lanomme-rons sémiologie [ì]. Elle nous apprendrait en quoi consistentlessignes, quelles lois les régissent. Puisqu'elle n'existe pas encore, on ne peutdire ce qu'elle sera; mais elle a droit à l'existence, sa place est déterminéed'avance. La linguistique n'est qu'une partie de cette science générale, les loisque découvrira la sémiologie seront applicables à la linguistique [ì] La tâchedu linguiste est de définir ce qui fait de la langue un système spécial dansl'ensemble des faits sémiologiques.»
De Saussure Ferdinand «Cours de linguistique générale», Payot, 1916, p. 33-34. Synthèse éditée par seséléves C. Bally et A. Sechehaye à partir des notesdu cours donné entre 1906 et 1911 à l'université deGenève.

تعلق الأمر بالرياضيات أو الأخلاق أو الميتافيزيقا أو الجاذبية أو الديناميكية الحرارية أو علم البصريات أو الكيمياء أو علم التشريح المقارن أو علم الفلك أو علم النفس أو علم الأصوات أو الاقتصاد أو تاريخ العلوم وكذا الويست (ضرب من لعب الورق) والرجال والنساء والميتولوجيا، إلا من زاوية سيميائية "(62). وقد كرس بورس مجمل جهوده المعرفية لتشييد مفاهيم هذا العلم الجديد، وبيان مواضيعه وحدوده مستندا لمبادئ المنطق الذي يعتبر اسما آخرَ للسيميائيات؛ فإذا كانت غاية السيميائيات هي ضبط قواعد اشتغال العلامات، فإن أهداف المنطق تنحصر في ضبط قواعد التفكير البشري، وجعل أفكارنا واضحة(63)، إذ لا يمكن أن نحكم على وضوح الفكرة ما إلا بواسطة الفعل المغاير الذي تنتجه: إن نفس الفكرة، مهما كانت تظهر واضحة، هي فكرة غامضة إذا نتج عنها فعلان مغايران.

والناظر في المشروع الفكري والفلسفي الذي انخرط فيه بورس يلاحظ أن السميائيات أضحت بالنسبة له علما ضاربا بجذوره في طبيعة الإدراك الإنساني. وهو إدراك يتحدد من خلال مقولات فانيروسكوبية categoriesphaneorosco-pique، تمثلها ثلاثة مستويات أساسية تحدد كيفية إدراك الذات لنفسها وللعالم وللوجود. فإدراك الذات للعالم الخارجي يبدأ في عالم احتمالي مفصول عن أي سياق زماني ومكاني مجرد عن القصدية المحسوسة، يطلق عليه بورس المقولة الأولى التي تتألف من كل الأحاسيس والمشاعر والنوعيات بعيدا عن تحققها. ثم ينتقل إدراك الذات للعالم الخارجي إلى مستوى ثان تبرز فيه الأشياء على هيئة متجسدة، أي أنها تدخل مرحلة التحقُّق الفعلي والوجود المادِّي في عالم الموجودات والتعيين مجسدا في الهنا والآن، وهذه هي المقولة الثانية. غير أنه تعيين هش وعرضي، لا يستقر على حال، لذلك لا بد من تصور مقولة ثالثة تبرز

(62) سعيد بنكراد «السيمائيات النشأة والموضوع» عالم الفكر المجلد 35 العدد 3 يناير مارس 2007 ص 30.

(63) Charles S. Peirce «How to make our ideas clear »In popular science Monthly 12, (January 1878), pp 286-302.

الرابط بين المقولة الأولى والثانية، وتمنحه بعدا قانونيا، إنها مقولة الرمزي ومقولة المفاهيم والوجود الاستقبالي. والإمساك بالبعد الرمزي للتجربة الإنسانية هو الكفيل بإنتاج المعرفة وتداولها واستهلاكها وإعادة إنتاجها[64].

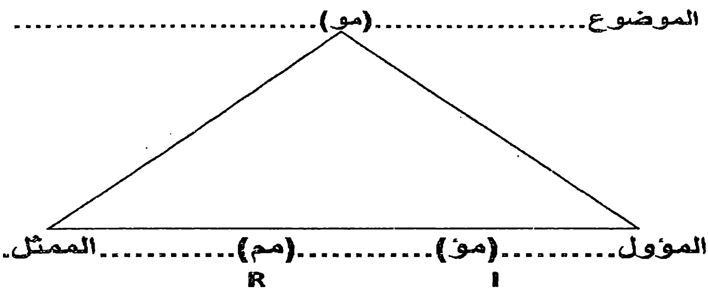
هذا التصور الثلاثي Tracheotomy للوجود والإدراك الإنساني انعكس على تمثل بورس للعلامة التي اتخذت عنده طابعا ثلاثيا يتألف من ممثل يحيل على موضوع عبر مؤول؛ وهذه العناصر الثلاثة هي ما يُطلق عليه بورس السيميوزس sémiosis أو سيرورة التدليل،[65] أي النشاط الترميزي الذي يقود إلى إنتاج الدلالة وتداولها. والمراد بالممثل "représentamen شيء ما يمثل شيئا ما بالنسبة لشخص ما بمظهر ما أو إمكانية ما". ويعني ذلك أن الممثل يظهر بوصفه أداة أولى للتمثيل، ننتقل من خلاله إلى شيء آخر، سواء أكان هذا الشيء لغة أم لونا أم حركة... خلافا للتصور السوسيري للعلامة ذي الطابع اللساني الصرف. أما الموضوع objet فالمقصود به ما يحيل عليه الممثل، ويميز فيه بورس بين نوعين: موضوع مباشر وهو المعرفة المباشرة المرتبطة بالعلامة، والمعطى الأوّلي البارز فيها، وموضوع غير مباشر وهو حصيلةٌ لسيرورة سيميائية يُطلق عليها بورس "التجربة الضمنية" ويتّسم هذا الموضوع بالديناميكية، فهو مُتجدد، ويتعلّق بما ينضاف إلى العلامة من إيحاءات ودلالات ناتجة عن التجارب الضمنية التي تتّسم بالتجدُّد والتغيُّر والاختلاف، تبعاً لما تحمله الذات المدركة أو الذوات تجاه الموضوع، في حين أن المؤول interprétant هو عنصر التوسط الإلزامي الذي يمنح العلامة وجودها وصحتها، إنه القانون الذي ينظم إحالة الممثل على الموضوع، وهو كذلك تكثيف للممارسات الإنسانية في أشكال إنسانية يتم تحيينها من خلال فعل العلامة، لذلك فهو مختلف عن الذي يقوم بالتأويل.[66]

(64) سعيد بنكراد، مقال سابق ص 31- 32.

(65) جيرار دولودال بالتعاون مع جويل ريتوري «السيميائيات أو نظرية العلامات» ترجمة عبد الرحمان بوعلي، دار الحوار ط1، 2004، ص 34.

(66) سعيد بنكراد، مقال سابق ص 36.

وقد أوضح جيرار دولودال العلاقة بين هذه المكونات من خلال الشكل التالي:[67]



العلامة بوصفها علاقة ثلاثية

ولتبسيط دلالات المفاهيم السابقة يمكننا الوقوف عند كلمة حمامة التي تتألف من:

1- ممثل وهو عبارة عن متوالية صوتية مكونة من الصوامت التالية ح/ م/ ا/ م/ ة نستعين بها من أجل استحضار صورة ذهنية غير ماثلة.

2- موضوع للتمثيل، بصرف النظر عن كونه واقعيا (حمامة) أم متخيلا أو قابلا للتخيل (الغيلان).

3- العالم الذهني الذي يربط رمزيا بين الموضوع وأداة التمثيل، ويسوغ العلاقة بينهما. وهو تسويغ ذو طابع اصطلاحي مبني على التواضع والاتفاق.[68]

اعتمادا على ما سبق، يتضح أن البحث في العلامة اتخذ عند بورس منحى أنطولوجيا وجوديا، مداره حول ماهية العلامة ووجودها وعلاقتها بالموجودات الأخرى، مستفيدا من الإرث الكانطي والفلسفة الظاهراتية، وهو

---

(67) جيرار دولوذال، مرجع سابق ص 35.

(68) خلافا لبورس تتخذ العلامة عند دي سوسير طابعا ثنائيا حيث تتألف من دال ومدلول أي من صورة صوتية وصورة ذهنية.

ما عبر عنه جيرار دولودال قائلا: "إن ظاهرية بورس لها كأصل ظاهرية كانط وليس كظاهرية هوسرل. ولكي يعطيها بورس تميزا عن ظاهرية كانط (وهيجل) فقد أعطاها اسم الفانيروسكوب، وفهمها وعرفها في حدود واقعيته دون استتباع سيكولوجي[69]. غير أن هذا القول لا يعبر عن مشروع بورس في شموليته، على اعتبار أن البعد الأنطولوجي لا يمكن فصله عن بعد آخر ذي طبيعة تداولية يهتم بفاعلية العلامة ووظيفتها في الحياة البشرية.[70] ويظهر هذا المنحى التداولي جليا عندما نتأمل سيرورة التدليل.

فالعلامة كيفما كان نوعها لا معنى لها في ذاتها، بل إن معناها يتحدد من خلال استعمالها ضمن سياق معين. فعندما نتحدث عن الميزان باعتباره رمزا محيلا على العدالة، فإن هذه الإحالة تظل مشروطة بالمواضعات الاجتماعية والأنساق الثقافية المهيمنة. بيد أن ذلك لا يرادف وجود قانون ثابت يجعل الميزان يشير في كل مكان وزمان إلى العدالة، لأن هذه الرابطة من الممكن أن تنحل في ظل مواضعات اجتماعية أخرى. ولتوضيح ذلك يكفي أن ننظر في رمزية الألوان كيف تختلف من مجتمع لآخر. ففي بعض الثقافات يُعبر الناس عن حزنهم بارتداء اللون الأسود، بينما يرتدي آخرون الأبيض في ثقافات مختلفة. لذلك يؤكد دولودال أن فلسفة بورس تختلف عن الثنوية والواحدية على أساس أن الفكر ليس ملكة عارفة خارج الشيء المراد معرفته، بل سيرورة في الأشياء، واستمرار مبدع معها. من هنا الطابع الجدلي والسياقي لهذه الفلسفة.[71]

كما تتخذ السيرورة الدلالية بعدا تداوليا من خلال ربط التأويل بسياق الكلام. فعندما يتلفظ شخص ما بجملة من قبيل: "الجو غائم" فإن دلالات هذه الجملة تختلف باختلاف المؤولين. فهي تعني بالنسبة للمؤول المباشر[72]

(69) جيرار دولودال، مرجع سابق ص 23-24.
(70) سيزا قاسم «السميوطيقا حول بعض المفاهيم والأبعاد، مدخل إلى السيميوطيقا»، مقالات ودراسات، إشراف سيزا قاسم ونصر حامد أبو زيد، دار إلياس العصرية، القاهرة 1986، ص 19.
(71) جيرار دولودال، مرجع سابق ص 21.
(72) المؤول المباشر والمؤول الدينامي والمؤول النهائي مفاهيم إجرائية توسل بها بورس للتمييز بين السيرورات والمستويات المختلفة للتأويل.

المعنى المصرح به، وتكون غاية المتكلم في هذه الحالة إفادة المخاطب حكما تتضمنه الجملة، مما يجعلها ذات طابع إخباري. أما بالنسبة للموؤل الدينامي فيستأثر باهتمامه لفظ غائم، ويتساءل في نفسه ما الذي جعل المتكلم يتلفظ بهذه الجملة؟ أيتوخى الإخبار أم أن له مقاصد أخرى؟ ربما يتوخى المتكلم الدعوة إلى المكوث في المنزل أو ربما الدعوة إلى حمل المظلة. . . بينما يشغل المؤول النهائي معارفه وخبراته المتعددة، ويسعى للربط بين الملفوظ وسياق التلفظ من أجل تحديد مقصد المتكلم، وبالتالي الخروج من دائرة التعميم إلى دائرة التحديد، حتى لا ينتهي التأويل إلى متاهة تأويلية[73].

أما التجلي الآخر للمنحى التداولي في سيميائيات بورس فنستشفه من خلال الإشارة إلى أن كل موضوع أو مفهوم لا دلالة له إلا في إطار ما يترتب عنها من أثار أو أفعال. في هذا الصدد نشير إلى أن بورسكتب مقالتين مهمتين هما "تثبيت الاعتقاد" 1877، و"منطق العلم: كيف نجعل أفكارنا واضحة" 1878، أكد من خلالهما أن غاية الفكر هي إبداع عادات فعلية، وهذه العادات مقرونة بسؤالين هما متى يتم الفعل؟ وكيف يتم الفعل؟ بالنسبة للسؤال الأول يكون الفعل مقرونا بالإدراك الإنساني، وفي الحالة الثانية يؤدي الفعل إلى نتيجة ملموسة[74].. وهو ما سنحاول توضيحه في قادم الفقرات.

2.2 الذرائعية والتداولية:

لقد عمّق بورس تصوره للعلاقة بين الموضوعات وآثارها من خلال بحثه "الذرائعية Pragmatism 1905"، حيث نص على أن مفهوما ما يصبح ذا معنى

(73) سعيد بنكراد مقال سابق ص 42.

(74) مقال سابق how to make our ideas clear ص 289:

»NowÅ, the identity of a habit depends on how it might lead us to act, not merely under such circumstances as are likely to arise, but under such as might possibly occur, no matter how improbable they may be. What the habit is depends on when and how it causes us to act. As for when, every stimulus to action is derived from perception; as for the how,every purpose of action is to produce some sensible result«. » how to make our ideas clear »Popular Science Monthly 12 January 1878p 289.

إذا ترتبت عنه نتائج عملية. على هذا الأساس يتحدد موضوع التداولية بالنسبة لبورس في معرفة ما ينبغي فعله، وكيف ننجز الفعل "what to do and how to do it" [75] إنها يجب أن تسمح بإمكان قيام فعل معين في المستقبل، وتكوين استعداد للتصرف على هذا النحو نفسه في جميع الظروف المماثلة" [76].

من هذا المنظور يتضح جليا أن الذرائعية في تناولها لقضايا الفكر تتقاطع مع انشغالات التداولية. فالأفكار لا معنى لها إلا ضمن تجربة واقعية. وبالمثل فإن الكلام لا معنى له إلا ضمن سياق كلامي محدد، مشروط بجملة من الظروف.

ولئن ظل الاعتقاد راسخا بأن وظيفة اللغة هي التواصل والإخبار والتعبير عما يجول في خاطرنا، فإن هذه الحقيقة سرعان ما انكشف زيفها لمّا اتضح أننا نوظف اللغة من أجل التأثير في الآخرين. وعليه، فإن عددا هائلا من الجمل المتداولة في أحاديثنا اليومية لا نتوخى منها وصف الواقع بل تغييره. مما يضفي على اللغة بعدا عمليا صرفا، وهو ما جسده أوستين بكتابه ذي العنوان الدال "Qaund dire c'est faire" / how to do things with words. وللنظر في جملة من صنف "الجو حار" فهي تحيل في معناها القضوي إلى وصف واقعة، وبالتالي فإن المتكلم ظاهريا يخبر عن الجو بكونه حارا. لكن هذه الجملة في سياقات محددة قد تتضمن دعوة مبطنة لفتح النافذة، أو اشعال المكيف. . . كذلك الحال عندما نسمع في المحكمة جملة من جنس "فُتحت الجلسة" فهو قول يترتب عنه فعل، مادامت الجلسة تفتح مباشرة بعد النطق بتلك الجملة. وهذا الطابع العملي للعبارات اللغوية هو ما جاءت الفلسفة الذرائعية لتوضيحه على اعتبار أن الوقائع تقاس بفائدتها العملية.

إلى جانب ما ألمعنا إليه يمكن أن نتبين ـ بوضوح ـ الطابع التجريبي العملي الذي وسم الفلسفة الذرائعية في تعاملها مع القضايا والموضوعات. فلا حديث عن الجوهر والعقل كما فعلت الفلسفة المثالية، وإنما عن المنفعة والعمل. على

(75) La classification des sciences MS 1345.

(76) برتراند رسل «حكمة الغرب» ج 2 الفلسفة الحديثة والمعاصرة ترجمة فؤاد زكريا عالم المعرفة ع 365، يوليوز 2009 ص205

النهج نفسه انصرفت التداولية إلى تحليل العبارات اللغوية، ومعرفة متضمنات القول، والاقتضاء. . . من خلال وقائع لغوية ملموسة، نعاينها بشكل مستمر في خطاباتنا اليومية. ومن ثم تجاوزت التداولية السمة التجريدية التي انطبعت بها الجمل في النحو التوليدي التحويلي، لأن المهم بالنسبة للتداوليين ــ كما سنوضح لاحقا ــ ليس كيف ننتج عددا لا متناهيا من العبارات اللغوية اعتمادا على عدد متناه من القواعد، وإنما ماذا نفعل حين نتكلم؟ ماذا نقول؟ لمن نقول؟ لماذا؟ في أي سياق؟ كيف نتجنب قول ما لا نريد قوله؟ هل من الجائز أن نكتفي بالمعنى الحرفي لجملة القول؟ وغيرها من الأسئلة.

3 . نظرية التواصل communication theory

إن الحديث عن الروافد التي ساهمت في بلورة الخطاب التداولي يستدعي منا استحضار أهمية نظرية التواصل في إثارة جملة من القضايا ذات الصلة باستعمال اللغة، وفهمها وتأويلها. . . في هذا الصدد من المفيد أن نتوقف عند جهود عالم اللسانيات ورائدها السويسري فردناند دي سوسير، على اعتبار أن هذا العالم أثر بشكل كبير في صياغة المعالم الكبرى للبحث اللساني والنقدي الحديث، من خلال رفضه للدراسات التاريخية، واعتماده على جهاز مفهومي ونظري يتأسس على جملة من الثنائيات، تهمّنا منها ثنائية اللسان والكلام.

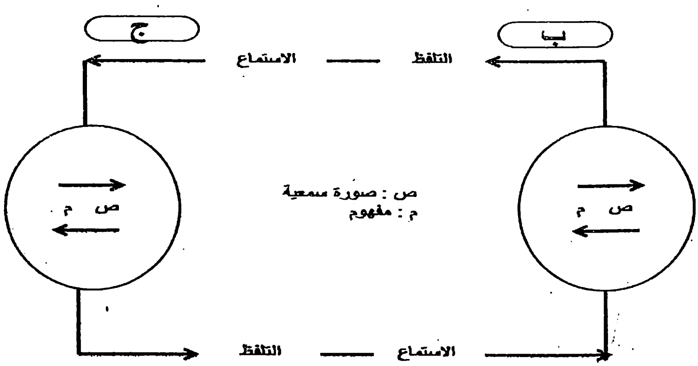
3.1 النموذج الترميزي:

اللسان langue نظام أو نسق من العلامات، إنه ملكة ذهنية مخزنة لدى كل متكلم، في حين أن الكلام Parole هو التحقق الفعلي، أي الإنجاز العملي. لذلك يتصف اللسان بطابعه الجماعي، أما الكلام فله بعدفردي.[77] انطلاقا من هذا التمييز أقر دي سوسير بأن موضوع اللسانيات هو دراسة اللغة وليس الكلام. ولئن كان هذا الإقرار قد أفاد الدراسات اللسانيات، خاصة ذات المنزع البنيوي، فإنه ساهم بقدر كبير في إهمال دراسة الكلام، وما يرتبط

(77) دي سوسير «محاضرات في علم اللسان العام» ترجمة عبد القادر قنيني ص 18.

به من تنويعات واختلافات تتصل بالمتكلم باعتباره ذاتا تتوسل باللسان للتعبير عن احتياجاتها الدائمة للتواصل. وبالتالي نظر اللسانيون إلى هذه الظواهر نظرة مريبة بوصفها غير جديرة بالدراسة، وحقها النسيان والتجاهل. غير أن مساعي البنيويين على اختلاف اتجاهاتهم (بنيوية وصفية أو توزيعية، أو كلوسيماتيكية أو توليدية تحويلية) لصرف النظر عن الدلالة والتداول انتهت إلى الإقرار بدور هذين المكونين. فوسع شومسكي نموذجه التوليدي، وضمّ إليه مكونا دلاليا يساهم في تأول العبارات وفهمها، أما التداولية فسعت لتجاوز التهميش الذي طال الكلام، وحاولت رد الاعتبار لكل ما يتعلق بسياق الكلام ومتضمنات القول...

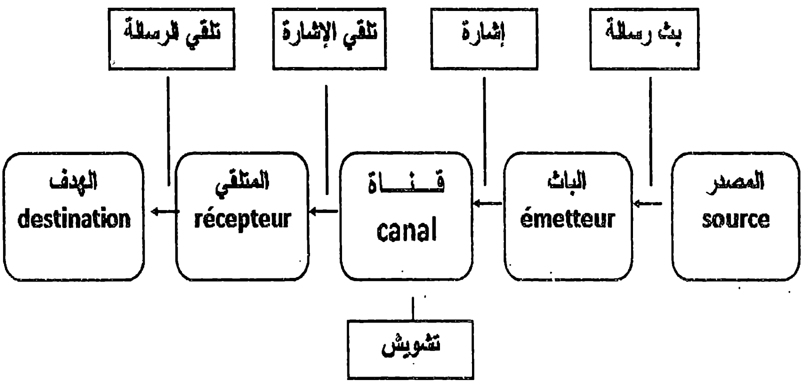
في سياق متصل، تحدث دي سوسير عن دائرة التواصل البشري، وأقر أن أساسها يعتمد تواصلا رمزيا codiquecommunication يقوم على التأليف بين دال ومدلول لإنتاج الدلالة، أي التأليف بين صورة سمعية ومفهوم على نحو ما نوضح أسفله : (78)



ب و ج شخصان يتحاوران

(78) نفسه ص 21.

على النهج نفسه سعى كلود شانون Claud Channon ووارن ويقر Warren Weaver نحو تسليط الضوء على مفهوم التواصل الآلي. فنَشَرا سنة 1948 "نظرية رياضية للتواصل" تنهل من انشغالهما بميدان الاتصالات الهاتفية، واقترحا فيها خطاطة تُعرف بالنسق العام للتواصل، غايتها تحسين مردودية الاتصالات الصوتية التي تتم عن بعد، والحد من التشويش الذي يطرأ على الإرسالية، ويساهم في ضياع المعلومات المبثوثة. وقد جاءت خطاطة شانون وويقرعلى الشكل التالي:



ففي هذه الخطاطة يتبين أن نجاح عملية التواصل يقتضي تضافر عدة مكونات مترابطة في ما بينها خطيا ـ من اليمين إلى اليسار في اللغة العربية ـ حيث ينطلق الخبر من مصدر للإرسال، يعمل فيه الباث على تسنينcodage رسالة ما، ثم ينقلها عبر وسيط مادي معين (قناة) إلى المتلقي الذي يتلقى الرسالة ويفك سننها Décodage، بناءً على سنن مشترك بين الطرفين. وقد لاقت نظرية شانون الرياضية للتواصل انتشارا مهما خلال الخمسينات وبعدها، وأصبحت مرجعا لا بديل عنه في الفيزياء وعلم الاجتماع وعلم النفس واللسانيات...

والملاحظ أن هذه الجهود التنظيرية ـ وغيرها ـ نزعت نحو التعامل مع ظاهرة التواصل تعاملا بسيطا، ثابتا. فشانون وويقر مثلا كانا ينظران إلى اللسان باعتباره نسقا من العلامات والرموز التي توظف لنقل المعلومات من الباث إلى المتلقي. ومعناه أن الحرص ـ كل الحرص ـ كان على وصول الخبر واضحا، لأن الخبر في نظرهما وحدة إحصائية مجردة لا علاقة لها بالباث أو المتلقي، لذلك كان الخبر عند شانون كيانا أعمى.(79) سمة أخرى تميز خطاطة شانون تتمثل في طابعها الخطي الأحادي، والصورة التي تتبادر إلى الذهن هي صورة السهم الذي يصدر عن الباث وينتهي إلى المتلقي. وبمجرد ما تبلغ الإرسالية المتلقي يتنهي الفعل التواصلي.

أما حلقة التواصل كما تحدث عنها دي سوسير فلم تتخلص هي الأخرى من طابعها الخطي الدائري. "فنقطة انطلاق الحلقة الدائرية يكون مبتدؤها من دماغ أحد الشخصين حيث توجد ظواهر الشعور وآثارها التي نسميها معاني ومفاهيم، مترابطة مع تمثلات الرموز اللغوية، أو الصور السمعية المستخدمة للتعبير. ولنفترض أن تصورا ما أو مفهوما قد أثار في الدماغ صورة سمعية مقابلة: إنها ظاهرة سيكولوجية بتمامها، وهي بدورها تعقبها عملية فسيولوجية: فالدماغ ينقل إلى أعضاء التصويت محتوى القوى الاندفاعية، وهي قوة سيكولوجية مقابلة للصورة السمعية، فتنتشر حينئذ التموجات الصوتية من فم "أ" إلى أذن "ب". وهي عملية محض فيزيائية ثم تمتد الدورة في الشخص "ب" على ترتيب معكوس، إذ يتم ذلك من الأذن إلى الدماغ (...). ولو أن الشخص "ب" تكلم بدوره فإن هذا الفعل الجديد سيتبع ـ من دماغ "ب" إلى دماغ "أ" ـ نفس الخطوات الأولى ويمر من نفس المراحل المتتالية"(80). هذا ما أوضحه دي سوسير من خلال الشكل التالي:

(79) Bateson, Birdwhistell, Goffman, Hall, jackson, Scheflen, Sigman, watzlawick «la nouvelle communication», textes recueillis et présentés par Yves Winkin, Seuil, Paris, 1981 p18-19.

(80) دي سوسير مرجع سابق ص 20 ـ 21.



ومعنى ذلك أن التواصل عبارة عن نشاط سيكولوجي (مفهوم) وفسيويزلوجي (صورة سمعية)، يعتمد على عملية التسنين codage التي يقوم بها الباث، بعد ضم صورة سمعية إلى مفهوم من جهة، وعملية فك السنن décodage التي ينجزها المتلقي لفهم الإرسالية من جهة أخيرة.

بيد أن الدراسات التي ازدهرت في أحضان النموذج السبرنطيقي للتواصل خلال مرحلة الخمسينات استثمرت مفهوما جديدا يختلف عن النموذج الترميزي الرياضي. إذ بلور نوربرت وينر Norbret Weiner (1894-1964) مفهوم الإرجاع feedback، وهو مفهوم دال على تبادل المواقع بين الباث والمتلقي، حيث يتحول كل منهما إلى موقع الآخر ضمن سلسلة كلامية لامتناهية. وقد أخذ هذا المفهوم صياغته الواضحة بعدما خرج من دائرة التواصل الآلي إلى دائرة التواصل الإنساني.

أما التداولية فحرصت على تغير الملامح العامة لطريقة فهم الملفوظات في التواصل والتفاعل البشري من خلال تجاوز التصور الثنائي لمفهوم العلامة اللسانية كما قدمه دي سوسير من جهة، والابتعاد عن الطابع الخطي الذي ميز نظرية التواصل الآلي كما قدمها شانون وويقر من جهة أخرى. والسبيل إلى ذلك هو التنصيص على أن الكلام ليس مجرد تطبيق للغة، والتأكيد على أن النسق اللغوي يعتمد بالأساس على السياق، بل إن فهم المعنى لا يعتمد فقط على البنية التركيبة أو الصوتية أو الدلالية للملفوظات، وإنما يستدعي مجمل

المؤثرات المحيطة بعملية التواصل من قبيل زمكان التواصل، ونوايا المتكلم والاقتضاء والتضمن ومضمرات القول. والمثال التالي يوضح لنا هذا الأمر:

س :هل تشرب القهوة؟

ج : سأسافر غدا.

فالتحليل البنيوي، يوضح أن الجملتين تستجيبان لشروط المقبولية التركيبية والصواتية والدلالية، لكنه غير قادر على توضيح العلاقة بين السؤال والجواب. إذ يظهر أن المجيب يرفض دعوة السائل لشرب القهوة لأنها تحول بينه وبين النوم الذي يحتاج إليه لإتمام سفره في أحسن الظروف، وهو ما لا تصرح به الجملة قضويا. وقد جاءت التداولية لدراسة هذا النوع من الظواهر التي تعجز النظرية التواصلية والنحو التقليديين عن حلها، من خلال تمييزها بين دراستين: دراسة النسق (صواتيا وتركيبيا ودلاليا) ودراسة استعمال النسق (التداولية).

ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد فقط. إذ اتضح مع الدراسات التداولية أن غاية التواصل لا تقف عند حدود نقل المعلومات، كما ادعت النظرية الرياضية للتواصل. وقد أصبح في حكم الشائع الإشارة إلى أن الإنسان يوظف الرموز والعلامات اللغوية وغير اللغوية لغايات كثيرة، منها التأثير في الآخرين وحملهم على تغيير مواقفهم، وإخفاء الحقيقة... كما أننا نشعر في أحيان كثيرة بغياب التواصل، ومرد ذلك ليس إلى القناة أو الخبر في حد ذاته، وإنما إلى عوامل اجتماعية ونفسية ومعرفية ملازمة للخبر. لهذا لم يعد النسق اللغوي هو مركز الجذب في مختلف الأبحاث والدراسات، وإنما استعمالات هذا النسق.

3.2 النموذج النسقي الإركسترالي:

تأكيدا للتحول المعرفي والمنهجي الذي وقعت عليه التداولية في مقاربته الظاهرة التواصل بلورت مدرسة بالو ألطو Palo Alto ـ المعروفة أيضا بالمدرسة

الخفية Le collège invisible (81) ـــ خلال حقبة الخمسينات تصورا منهجيا ينظر للتواصل باعتباره ظاهرة معقدة وحيوية. ومن ثم لم يعد مجرد نقل للمعلومات كما هو الحال مع النموذج التلغرافي، وإنما نشاط تفاعلي وعملية بناء تشاركية co-contruction وقد تجسد هذا التصور المنهجي من خلال نموذج نسقي/ أركسترالي للتواصل modéle orchestral/systématique de communi-cation

ويعتمد النموذج الأركسترالي على مقاربة نسقية لدراسة العلاقات الإنسانية، والتفاعلات البشرية ضمن سياقات ثقافية مخصوصة، في محاولة لبناء نظرية عامة للتواصل، تتجاوز النموذج الخطي الرياضي الذي اقترحه شانون وويقر، وتقدم في الآن نفسه إجابات عن بعض الأمراض العائلية النفسية كمرض انفصام الشخصية schizophrenia وقد عضد أعلام مدرسة بالو ألطو هذه المقاربة النسقية بمفاهيم مستوحاة من مجال السيبرنطيقا، كمفهوم الإرجاع أو التغذية الراجعة .Feedback

ويعود الأصل النسقي لمدرسة بالو ألطو إلى تسليمها بأن دراسة الظواهر تقتضي تناولها في كليتها، وعموميتها، دون فصل بين أجزائها، على اعتبار أن إلغاء عنصر أو عزله أو استبداله يفضي إلى تغيير بنية النسق ككل.

ولئن كان النسق يتسم بطابع الكلية والعمومية، فإنه في الآن نفسه يتصف بسعيه نحو المحافظة على هويته وتوازنه، وهو ما عبرت عنه مدرسة بالو ألطو بمبدأ الاتزان .l'homéostasie وقد طورت مدرسة بالو ألطو، أكثر من هذه النظرية العامة للتفاعل، وتحديداً عبر أعمال فاتسلافيك ("واقع الواقع"، Seuil، 1984) نظرية "تكوينية" للروابط بين اللغة والواقع. ويرى خبراء بالو

(81) مدرسة بالو ألطو نسبة لمدينة بالو ألطو بولاية كاليفورنيا الأمريكية،ضمت عدة باحثين من مختلف التخصصات كالانتربولوجيا وعلم النفس وعلم الاجتماع... من بينهم كريكوي باتسون Grégory Bateson وبول واتزلويك Paul Watzlawick نوربرت وينر Norbert Wierner وجون فان نيومن John Von Neuman وبرتراند راسل Bertrand Russel ملتون إيركسون Milton Erikson.وتركز اهتمامها على التعمق في دراسة التواصل، من خلال نموذج اركسترالي modèle orchestralÅ بعيدا عن النموذج التلغرافي الذي بلوره شانون وويثقر.

ألطو أنه لا يوجد فرد مريض نفسيا، بل ثمة أنساق من التفاعلات تسبب تأويلات مؤلمة للواقع. فيمكن أن تكون لنا إذن إدراكات ذهنية لـ"نفس الواقع. وبناءً عليه، فإن دور العلاجات النسقية يتمثل في جعل المرضى يعدلون رؤيتهم للأشياء" [82].

ورغم الطابع العلاجي l'aspect thérapeutique الذي ميز بحوث مدرسة بالو ألطو، فضلا عن تركيزها على الجوانب النفسية والاجتماعية المصاحبة لعلمية التواصل، إلا أن منظورها يعد قطيعة مع النموذج الترميزي ومع النظرية الرياضية للتواصل من جهة، ويدعم الطرح التداولي في مقاربته لقضايا الاستعمال اللغوي من جهة أخرى. وهو ما يتجلى في تنصيصها على مفهوم الإرجاع الذي يؤكد أن كل فرد يشارك في سيرورة التواصل بصرف النظر عن كونه باثا أو متلقيا، وتسليمها أيضا بأن التواصل ظاهرة معقدة وحيوية تتداخل فيها عوامل كثيرة، ليست بالضرورة لسانية. وقد أثبتت بحوث غرايس وسبربر وولسن هذه الحقيقة حينما توسعوا في دراسة الاستدلال باعتباره نشاطا ذهنيا ملازما للنشاطات اللغوية التخاطبية دون أن يكون ذا طابع لغوي.

4. العلوم المعرفية:

4.1 من السلوكية إلى العلوم المعرفية:

استحضرنا في المباحث السابقة بعض روافد التداولية ـ باعتبارها اتجاها يسعى لمقاربة قضايا الاستعمال اللغوي كالاستلزام الحواري والاقتضاء... ـ من منظور جديد يأخذ بعين الاعتبار بعدها الفلسفي واللساني. وقد اتسع هذا المنظور بانفتاح التداولية على رافد آخر يستمد مقوماته من العلوم المعرفية، خاصة علم النفس المعرفي، وفلسفة الذكاء الاصطناعي، وعلوم الأعصاب. في هذا الإطار تؤكد آن ربول وجاك موشلر أن تاريخ العلوم المعرفية يكاد يتطابق وتاريخ ميلاد التداولية. "فلقد ألقى أوستن محاضراته (محاضرات وليام جيمس) سنة 1955، وفي عام 1956 صدرت بعض المقالات المهمة التي شكلت انطلاقة العلوم

(82) فليب بلانشيه مرجع سابق ص 112.

المعرفية. وفي 11 سبتمبر/ أيلول 1956، وبمناسبة ندوة التأمت في معهد ماساشوستس للتكنولوجيا MIT قدم ألان نيوال Allen Newell وهربرت سيمون Herbret Simon مداخلة تضمنت أول إثبات آلي لمبرهنة رياضية. واقترح نعوم شومسكي مقاربة توليدية للمسائل اللغوية، كما تقدم جورج ميلر بنتائج تجاربه (غير السلوكية) حول الذاكرة"[83]

وللوقوف عند الدور الذي لعبته العلوم المعرفية من المفيد أن نستقرئ بعجالة التحولات التي مرّت بها البحوث النفسية في أمريكا خلال أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. إذ نحت منحى سلوكيا تجريبيا، مستفيدة من ازدهار الفلسفة الوضعية مع أوكست كونت من جهة، والفلسفة الذرائعية مع شارل سندرس ويرس ووليام جيمس وجون ديوي من جهة أخرى. لأجل ذلك سلم علماء النفس خلال هذه المرحلة بأن دراسة الظواهر تقتضي الابتعاد عن الطابع الذاتي والحدسي الذي ميز الاتجاه الجشطالتي، والاعتماد ـ بدل ذلك ـ على الملاحظة، أي ملاحظة السلوكات موضوعيا وإجراء التجارب المخبرية من أجل الوصول إلى بعض التعميمات. وقد وجد العلماء ضالتهم في السلوك الحيواني باعتباره الأكثر قدرة على الخضوع للتخمين وللتعزيز عن طريق التكرار المستمر للمحاولات الناجحة.

غير أن مرحلة الخمسينات مهدت لتبلور منظور جديد لمقاربة الظواهر السلوكية سواء أكانت نفسية أم لسانية، يستوحي هذا المنظور أسسه ومفاهيمه من التطورات التي شهدتها فلسفة العقل والبرمجة العصبية والذكاء الاصطناعي. ومن ثم لم تعد الغاية محصورة في دراسة السلوكات، بقدر ما تمثلت في الاهتمام ببنية العقل البشري وتبيان أنماط اشتغاله.

4.2 - شومسكي وثورة العلوم المعرفية:

لقد تجلى المنزعالجديد في مقاربة الظواهر، خاصة اللسانية، مع مقالات وكتب نوام شومسكي التي تجاوزت البنيوية المزدهرة آنذاك بأوروبا وأمريكا، باعتماد مقاربة رياضية تطمح لإنتاج عدد لا محدود من العبارات انطلاقا من

(83) آن روبول وجاك موشلار مرجع سابق التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ص 51.

عدد محدود من القواعد. وهو ما دفع شومسكي إلى تغيير منهجية اشتغاله، حيث تخلى عن المنهج الوصفي القائم على استقراء المتون اللغوية، بذريعةأن هذه المتون فردية وغير محصورة. وبالتبعية توجه شومسكي نحو دراسة الكفاية اللسانية Competence بدل الإنجاز Performance، مركزا اهتمامه على الإجابة عن أسئلة أربعة تتمثل في[84]:

- ماذا نعرف لنتكلم لغة ما ولنفهمها؟
- كيف تكتسب هذه المعرفة؟
- كيف تستعمل؟
- ما العمليات العضوية التي تتدخل في تمثيل هذه المعرفة؟

تبعا لشومسكي، الإجابة عن السؤال الأول توجه البحث اللساني إلى ضرورة صياغة نظرية ترصد نمط الإدراك الذهني للتعبير اللغوي،من حيث شكله ومعناه؛ الشيء الذي يقود إلى بناء نظرية للنحو الكلي، تعيّن المبادئ الكلية المشتركة بين اللغات، وتحدد في الآن نفسه، الوسائط Parmeters أو المتغيرات المؤسسة للاختلاف بينها.

السؤال الثاني يصب في ما يطلق عليه شومسكي مشكل أفلاطون. فمن خلال هذا المشكل، يحاول شومسكي الإطلالة على قضية: كيف للمخلوقات البشرية أن تعرف هذا الكم الهائل من المعارف، على الرغم من اتصالها المحدود بالعالم؟ والجواب يقضي بالاعتراف مع أفلاطون، بأن الإنسان لا يكتسب معارف جديدة، وإنما يعيد اكتشاف معارف معطاة سلفا. وهو ما جرّ شومسكي للحديث عن قدرات عقلية مستبطنة في الذهن، تولد مع الإنسان فطريا، ثم تعمل التجربة المجتمعية المحدودة على تخصيصها.

أما السؤال الثالث: فيحيل إلى المعطى الإنتاجي في اللغة، ويربطه

---

(84) شومسكي نوام «اللغة ومشكلات المعرفة» ترجمة حمزة بن بقلان المريني، سلسلة المعرفة اللسانية دار توبقال،ط 1990 ،1 ، ص 117 وما بعدها.

شومسكي بمشكل ديكارت؛ ذلك المشكل الذي يكشف عن المظهر الإبداعي في اللغة، وعن قدرة الفرد غير المحدودة على إنتاج عدد لا حصر له من التعابير حسنة السبك Wellformed بما فيها تلك التي لم يسمع بها، ولم ينطق بها من قبل.

ويؤكد شومسكي، بخصوص السؤال الرابع، أن الأمر مازال غامضا، وأن البحث فيه رهين بما قد يحمله العلم مستقبلا. ويرجع هذا الغموض، من جهة إلى تدخل اعتبارات خلقية، تمنع التجريب والاختبار على الإنسان، ومن جهة أخرى، إلى قصور التجريب على الحيوانات عن تلمس نوعية العمليات التي تطرأ في الذهن، ما دام السلوك اللغوي سلوكا بشريا أساسا- كما يؤكد ديكارت- دون سائر الكائنات.

وبموازاة أبحاث شومسكي انشغل المهتمون بالعلوم المعرفية بنقد النموذج الترميزي للتواصل، وهو نموذج ـ كما أوضحنا آنفا ـ يحصر الدراسة اللسانية في المستوى الدلالي والتركيبي والصواتي، كما يحصر عملية التواصل في ثلاثة إجراءات: التسنين ونقل الرسالة وفك السنن. في مقابل ذلك اهتمت العلوم المعرفية "بدراسة بنية العمليات العقلية الذكية وأنشطة التفكير والمعالجة المطلوبة في الإدراك والتذكر وحل المشكلات، وآليات إجراء هذه العمليات وتنفيذها"[(85)]، مستفيدة من التطورات الهائلة التي حققها الذكاء الاصطناعي والبرمجة العصبية واللسانيات الحاسوبية والفيزياء، وفلسفة اللغة.

ومن ثم يتضح أن العلوم المعرفية ظل يحذوها الطموح لوصف وتحليل العمليات العقلية التي ينجزها الأفراد حين يستقبلون مدخلات العالم الخارجي، فيخضعونها للمعالجة، ثم التخزين على شكل بنيات وخوارزمات ورموز في انتظار استعادتها عند الحاجة. وهو ما دفع جيري فودور Jerry Fodor للحديث عن نظرية تمثيلية للذهن Representational Theory of Mind تعتبر أن الحالات

(85) الزغلول رافع النصير والزغلول عماد عبد الرحيم «علم النفس المعرفي» دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، دون تاريخ،دون تاريخ، ص17.

الذهنية مرتبطة بعلاقات حوسبية، وأن الذهن يشتغل بطريقة تراتبية لمعالجة المعلومات، وهي معالجة تتدخل فيها ملكات متعددة لا وجه لتخصيصها برقعة ما من الذهن البشري.

4.3- العلوم المعرفية والاستدلال التداولي:

عبرت التداولية عن هذا التحول المعرفي الجديد من خلال جهود فلاسفة اللغة، خاصة بول غرايس الذي ركز على قضايا الاستدلال، وبيّن في مقاله المشهور "المنطق والمحادثة" Logic and Conversation (86) أن تحديد معنى عبارة ما يقتضي أمرين متكاملين أولهما القدرة على اكتساب حالات ذهنية، وآخرهما القدرة على نسبتها للآخرين. ونستشف من ذلك أن التواصل الجيد يتأسس على التزام المتحاورين بجملة من القواعد الخفية غير المعلنة، أطلق عليها غرايس مبدأ التعاون. وتتمثل الفكرة الأساسية في أن المتخاطبين عندما يتحاورون، إنما يقبلون ويتبعون عددا معينا من القواعد الضمنية اللازمة لاشتغال التواصل، كما أن الشركاء في التفاعل اللغوي يتقاسمون، في العادة، هدفا مشتركا، إذا انعدم، لن يكون ثمة سبب للتواصل، وقد لا يتم التواصل على الأرجح.(87) وعن هذا المبدأ تتفرع أربع قواعد أو مسلمات هي قاعدة الكيفية، وقاعدة الكمية، وقاعدة الجهة، وقاعدة الملاءمة.

وإذا كانت قواعد المحادثة تيسر عمل التواصل، وتساعد على إدراك مقاصد المتكلمين، فإن انتهاكها يدفع بالمخاطَبين نحو القيام بعمليات ذهنية استدلالية، تفضي بهم إلى فهم محتوى الخطاب. والاستدلال كما هو معلوم ـ عبارة عن عملية ذهنية منطلقها مجموعة من المعلومات المفضية إلى نتائج تتساوق مع ما انطلقنا منه. وقد كرّس غرايس جهدا كبيرا لوصف الاستدلالات العقلية، والاستلزامات الحوارية الناشئة عن عملية التخاطب،

---

(86) ترجم إلى الفرنسية في مجلة تواصل Communication، ع 30، دار النشر Seuil سنة 1979، ص 56-72.

(87) فليب بلانشيه «التداولية من أوستن إلى كوفمان»، مرجع سابق ص 84 وما بعدها.

مركزا على طابعها الذهني الاستدلالي، ورافضا الجانب التواضعي الذي ميز أعمال أوستن.

من هذا المنطلق يتضح أن جهود غرايس مثلت خطوة مهمة نحو انفتاح التداولية على العلوم المعرفية، على نحو ما تشهد على ذلك نظرية الملاءمة للباحثين سبربر وولسن، وهي نظرية تدين بالفضل للاستدلال عند غرايس من جهة، وللقالبية عند جيري فودور من جهة أخرى.(88)

والمعطيات السالفة تدفعنا للاعتراف بأن التداولية والعلوم المعرفية تتفقان على أرضية مشتركة، تتمثل في اهتمامهما معا بوصف وتحليل العمليات الذهنية المصاحبة للتخاطب. لذلك لا نستغرب إقرار آن ربول وجاك موشلر بأن تاريخ ميلاد التداولية يكاد يتطابق مع تاريخ ميلاد العلوم المعرفية.

5 - خلاصة الفصل الأول:

لا غرو بعد هذا من الإقرار بأن التداولية أضحت حدثا معرفيا مهما يشد إليه انتباه الدارسين من مختلف التخصصات والمجالات، وقد اكتست التداولية هذه الأهمية بالنظر إلى مرونتها وحيويتها وانفتاحها على الحقول المعرفية المتعددة. وإذا كانت هذه الصفات قد أضفت على التداولية قدرا كبيرا من الخصوبة، فإنها في الآن نفسه كانت مدعاة لإثارة الإشكال حول وضعها الاعتباري. في هذا الصددحاولنا الوقوف عند تباينوجهات نظر الدارسين تبعا لاختلاف منطلقاتهم. فهي بالنسبة للبعض اتجاه لساني محض، وهي عندأخرين مستوى مندمج في الدلالي، أما الفئة الأخيرة فتحدث عن صلتها الوطيدة بالعلوم المعرفية أكثر مما تربطها بمجال اللسانيات.

والواضح أن لتباين وجهات نظر الدارسين حول الوضع الاعتباري للتداولية ما يفسره. فحينما أعملنا النظر في روافدها، ومرجعياتها المعرفية

(88) لنا عودة مفصلة إلى قضية قالبية الذهن عند جيري فودور وصلتها بالعلوم المعرفيةمن جهة، ونظرية الملاءمة عند سبربر وولسن من جهة أخرى.

اتضح لنا أنها ملتقى عدة تخصصات. إذ تنهل من الفلسفة التحليلية، وتحذو حذوها في تفتيت القضايا اللغوية، معتمدة على ما تتيحه ألعاب اللغة من إمكانات تحليلية. كما تتقاطع التداولية مع حقلي السيميائيات والذرائعية من حيث الاهتمام بالبحث في سيرورة إنتاج العلامةوفاعليتها في التدليل، وهذه الفاعلية غير منفصلة عن سياق إنتاج الخطاب ومقاصد المتكلمين... ونجد للتداولية كذلك صدى فيالأبحاث المهتمةبالتواصل، خاصة ذات المنزع التفاعلي، وهي أبحاث أثبتت فشل النموذج الترميزي الرياضي في تحليل هذه الفاعلية البشرية. بلوتمد التداولية أيضا جسور التقاطع مع العلوم المعرفية، على اعتبار أن دراسة استعمال اللغة لا يمكن أن تتم بمعزل عن تحليل الاستدلالات العقلية والذهنية المصاحبة لعملية التخاطب.

لأجل ذلك أضحى من الضروري الحديث عن التداولية بصيغة الجمع لا بصيغة المفرد. وهو ما سنحاول أن نوضحه من خلال الفصل الموالي، حيث سنتوقف عند اتجاهات التداولية ومباحثها.

الفصل الثاني

اتجاهات التداولية ومباحثها

- المبحث الأول - اتجاهات التداولية.
- المبحث الثاني - مباحث التداولية

الفصل الثاني
اتجاهات التداولية ومباحثها

المبحث الأول
اتجاهات التداولية

رغم الأهمية الكبرى التي حظي بها الدرس التداولي بعد محاضرات أوستن، ورغم الاجتهادات المبذولة للتعريف بهذا الاتجاه اللساني، وبيان مباحثه وحدوده إلا أن ذلك لم يحل دون استمرار الغموض والالتباس المصاحبين للفظ التداولية.[89] ومن المؤشرات الدالة على ذلك، تباين وجهات نظر اللسانيين حول وضعها الاعتباري. فمن منظور البعض ليست التداولية سوى مستوى مستقل من مستويات التحليل إلى جانب التركيب والدلالة والصواتة، وهي من منظور آخرين مستوى مندمج في الدلالة. في مقابل هذين التصورين هناك منحى يعتبر التداولية اتجاها لسانيا قائم الذات له قضاياه ومباحثه، بينما ينفي آخرون ذلك، ويقرون بانتمائها للعلوم المعرفية. وفي ما يلي سنعمل على استعراض وجهات النظر هذه ومناقشة منطلقاتها المنهجية.

1 . اقتراح كرني[90] Grunig

إن الحديث عن التداولية بالنسبة لبلانش نويل كرني يقتضي الاعتراف بتعددها وتنوعها، وهو تنوع يحتم التعاطي مع التداولية بصيغة الجمع لا بصيغة المفرد. ويتضح هذا المعطى في تمييزها بين التداولية الإشارية والتداولية

---

(89) مقال سابق «les différentes concepts de la pragmatique» ص 4.

(90) GRUNIG B.N «Plusieurs PragmatiquesÅ» In DRLAV, N' 25, 1981, pp 101-118.

النفسية والتداولية الإنجازية والتداولية الموسعة. وقد توسع جورج كليبر في دراسة هذه الأنواع مستندا إلى مقالة كرني "تداوليات متعددة" على نحو ما سنوضح أسفله.

2. اقتراح جورج كيلبر:

على نهج كرني يقر جورج كيلبر بوجود تداوليات بصيغة الجمع بدل تداولية واحدة. ويميز فيها بين:

1- التداولية باعتبارها قاعدة شاملة للنظرية اللسانية: يعزو كيلبر هذا التصور إلى بورس حيث تعتبر التداولية نظرية حاضنة لمختلف المستويات اللسانية كالتركيب والدلالة والصواتة. في هذا الصدد يعرّف وندرليش (1972 Wunderlich، ص34) التداولية بأنها "نظرية شاملة لمجال الكفاية اللسانية". بيد أن هذا التصور يطرح بعض الصعوبات، منها إمكانية أنتُعطل مستويات التحليل الأخرى، لأن النظر إلى القضايا اللسانية كلها من منظور تداولي فيه إجحاف للدلالة والتركيب على حد السواء. فقضية المعنى مثلا ليست من اختصاص التداولية فقط، وإنما تتشارك فيها مع الدلالة، وبالتالي فإن المعنى قبل أن يكون سياقيا تداوليا، فإنه معنى دلالي. علاوة على ذلك يحمل هذا التصور في طياته صعوبة أخرى تتمثل في الانتهاء إلى عملية استنساخ صناعية بسيطة للتداولية، وللمكتسبات السابقة لكل من التركيب والدلالة. في هذا الصدد تنتقد كروني (1979، ص30-31) الخطاب النحوي المستعار "Pseudo-grammatical" Discours الذي يغلف التحليلات التركيبية بصبغة تداولية فجة.

2- التداولية باعتبارها فرعا لسانيا: يؤكد كيلبر ضرورة الفصل بين تصور يعتبر التداولية مكونا لسانياً يتعارض مع الدلالة والتركيب، يسميه التداولية المستقلة La Pragmatique autonome، وبين تصور لا يقيم جواجز فاصلة بين التداولية وباقي المكونات اللسانية، يسميه التداولية الموسعة La Pragmatique éclatée

- التداولية المستقلة: وتضم بعض اللسانيين أمثال بارهيل Y.Bar-Hillel (1954) مونتاك R.Montague (1968 و 1970) وكاليش D.Kalish (1967) الذي يختزلون ــ دون مواربة ــ التداولية فقط في دراسة الإشاريات، أي كل ما يتعلق بالضمائر وظروف الزمان والمكان التي تقتضي العودة إلى سياق التلفظ. ويوضح كيلبر أن وجهة نظر الاختزاليين les minimalistes هذه تأتي متساوقة مع رغبتهم في معالجة القضية التي يطرحها تحديد قيمة صدق الجمل مع الإشاريات في اللغات الشكلية المنطقية.

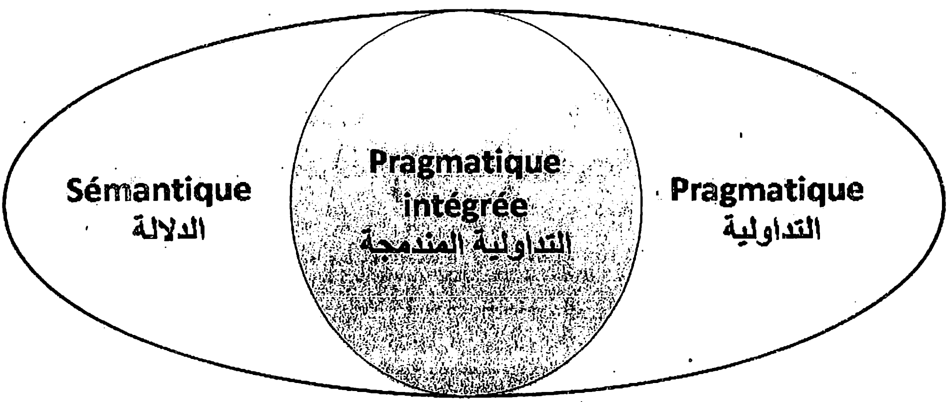
والتنصيص على استقلال التداولية عن باقي المستويات اللسانية نلمسه أيضا لدى شارل موريس الذي اعترف بأن الدلالة تُعنى بدراسة علاقة العلامة بموضوعاتها، في حين اعتبر أن التداولية تدرس العلاقة بين العلامة ومؤوليها، أي أنها تركز على استعمال العلامات. وينبني هذا التعارض بين الدلالة والتداولية على تمييز دي سوسير بين اللغة والكلام. فالدلالة ترتبط باللغة لتركيزها على السمات الدلالية للوحدات المعجمية والجمل، في حين أن التداولية تتصل بالكلام والخطاب لاهتمامها بالمنجز والمتحقق والمستعمل من العبارات.

ويوضح كيلبر أن التمييز الذي يقيمه شارل موريس بين الدلالة والتداول لا يتعارض مع اعتبار التداولية معنية بدراسة استعمال العلامات داخل الخطابات، مادامت هذه العلامات تستعمل فعليا في الخطاب، وهو استعمال يفرض معرفة معنى العلامة. بيد أن قبول هذا الاعتراف يظل مشروطا بتفادي بعض السلبيات. فالإقرار بأن الدلالة موضوعها اللغة، يترتب عنه التسليم بأنها حقيقة بالدراسة، في مقابل تهميش التداولية. كما أن التمييز بين الدلالة والتداولية ترتبت عنه نتيجة سلبية، تتمثل في اعتبار التداولية معنية بدراسة كل ما لا تعيره الدلالة اهتماما، وهو ما دفع بالبعض إلى نعت التداولية بأنها سلة مهملات تُرمى فيها مخلفات الدلالة. والتداولية من هذا المنظور ليست علما

مستقلا، ولكنها ببساطة جملة من الإشكالات التي لم يُعثر لها على حل دلالي. علاوة على ذلك ينحصر دور التداولية غالبا في دراسة الآثار الفردية وغير المتوقعة للمعنى، على اعتبار أن مجالها هو الكلام بالمعنى الذي أضفاه عليه دي سوسير. لكن التداوليين، المعنيين خاصة بدراسة الأفعال الإنجازية لم تتوقف غايتهم عند حدود دراسة الآثار الفردية، بل تعدوا ذلك إلى مقاربة قوانين الخطاب، ومقاصد المتكلمين...

- التداولية الموسعة: إن الملاحظات والصعوبات السالفة أفضت إلى رفض الفصل الجذري بين الدلالة والتداولية. وبالتالي الاعتراف بأن التداولية ليست مكونا لسانيا مستقلا يتعارض مع باقي المكونات، خاصة الدلالة، وإنما تتوزع إلى عدة أجزاء، على نحو يجعلها تتمظهر في مستويات متعددة في الآن نفسه. ويؤكد كيلبر أن هذا التصور يفرض التمييز بين عدة مستويات تداولية:

فالمستوى الأول يتصل بالتداولية المندمجة أو الدلالة التداولية كما قدمها ديكرو وأنكسومبر. ويتأسس هذا المستوى على إدماج بعض القضايا التداولية في صلب التحليل الدلالي، من قبيل الإشاريات، والموجهات، والروابط الحجاجية... والخطاطة التي اقترحها كيلبر تبيّن التعالق القائم بين الدلالة والتداولية:



ويؤكد كيلبرأن هذا التصور يستدعي إعادة تعريف المعنى بما ينسجم مع إدماج التداولية في صلب البحث الدلالي. فأصبح بالإمكان الحديث عن معنيين هما المعنى الحقيقي والمعنى التداولي.

والمستوى الثاني تبلور مع سورل Searl (1975) ومورغا Morgan (1978) حيث تُدرس المؤشرات التداولية المعبر عنها من خلال بعض التعابير على أنها لا تنتمي للمعنى البنيوي لهذه التعابير، بقدر ما تنتمي للاستلزامات الحوارية. والقيمة المسندة للجملة التالية خارج السياق الكلامي توضح طبيعة التواضع التداولي غير السيميائي. هذا ما يتضح جليا من خلال جملة مثل "هل بمقدورك فتح النافذة ؟" ففي هذه الجملة يمكن أن نرصد مستويين من الإيحاء، أحدهما حقيقي، يتضمن قوة إنجازية حرفية، تدل على الاستفهام عن القدرة على فتح النافذة، والآخر تداولي يتضمن قوة إنجازية مستلزمة.

أما في المستوى الثالث والأخير فيتحدث كيلبر عن تداولية سياقية، حيث توجد آليات لاشتقاق المعنى السياقي العام. ويتفرد هذا المستوى بكون القيم التداولية لا تتصل بالتعابير نفسها، وإنما تخضع لمبادئ عامة تحكم السنن اللساني، في علاقته بسياق الحديث. ومعناه أن تحديد دلالة الملفوظ تقتضي ضرورة استحضار السياق الكلامي المؤطر لفعل التلفظ، لأن جملة من قبيل "الجو حار" قد تدل على "أشعر بالعطش" أو الصيد سيكون جيدا" أو "لن أتجول بالدراجة اليوم"... ويبرز كيلبر أن المجال الذي ينفتح عليه المستوى الثالث فسيح شاسع، يشمل بالأساس أفعال الكلام كما قدمها أوستن وسورل، كذلك قوانين الخطاب عند ديكرو، والمسلمات الحوارية عند غرايس.

ويبدي كليبر تحفظين حول تداولية المستوى الثالث، موضحا أن قوانين الخطاب هذه والأفعال الكلامية لا تنتمي لحقل معرفي واحد، وإنما تتقاطع فيها اللسانيات مع علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الإناسة (الانثربولوجيا). من هنا صعوبة قبول الفرضية القائلة بكونية أفعال الكلام وقوانين الخطاب، لأن الأمر يتعلق بظواهر موسومة ثقافيا واجتماعيا.

3. اقتراح جاك موشلر وآن ريبول:

بالعودة إلى كتابهما المهم "المعجم الموسوعي للتداولية" نلاحظ أن حديثهما تمحور حول ثلاثة اتجاهات هي التداولية الكلاسيكية، والتداولية المندمجة، والتداولية المعرفية:

1ـ **التداولية الكلاسيكية:**[91] وقد ارتبط هذا الوصف عند الباحثين بنظرية أفعال الكلام كما قدمها أوستن وراجعها سورل. وهي نظرية تضع بعض أسس الفلسفة الإنجليزية موضع سؤال وتشكيك، خاصة ما يتعلق بوظيفة اللغة. إذ سلم الفلاسفة والمناطقة لأمد طويل بأننا نستعمل اللغة لوصف الواقع، لذلك تظل الجمل خاضعة لمعيار الصدق والكذب، فتكون الجمل صادقة إذا طابقت الواقع، وكاذبة إذا خالفته. بيد أن عددا كبيرا من الجمل لا تخضع لمعيار الصدق ولا الكذب، كما لا تتوخى وصف العالم، بقدر ما تطمح لتغييره. لهذا ميّز أوستن في الأفعال الكلامية بين ثلاثة أصناف هي فعل القول وفعل التأثير وفعل الإنجاز (الذي ينقسم إلى أفعال حُكْمية وأفعال تنفيذية وتعهدية وسلوكية وعرْضية)، بينما أعاد سورل نمذجة أفعال الكلام الإنجازية وصنفها إلى ملفوظات التزامية وإنجازية وتصريحية وتعبيرية وإخبارية.

2ـ **التداولية المندمجة:**[92] هي تداولية مندمجة في الدلالة، تهتم بالبنيات الحجاجية، المنبثة في صميم اللغة، أكثر مما تبحث في شروط صدق الملفوظات. وقد اقترح ديكرو مراجعة المنظور الخطي الذي طبع التحليلات اللسانية السابقة، حيث يجري الفصل بين المكون التركيبي، والمكون الدلالي، والمكون التداولي، واستبدله بمنظور آخر على شكل Y، كما أقدم على مراجعات أخرى منها التمييز بين المعنى والدلالة، الجملة والملفوظ، الحجاج والاستدلال...

(91) جاك موشلر وأن ريبول «Dictionnaire encyclopédique de Pragmatique» ص 34، ولنا عودة إلى هذه الاتجاهات بتفصيل في محور لاحق.
(92) نفسه ص 62.

3ـ التداولية المعرفية: [93] والنظرية الأكثر تمثيلية لهذا الاتجاه هي نظرية الملاءمة لولسن وسبربر (1986 أو1989)، وهي نظرية تتأسس على فكرة بسيطة مدارها حول مفهوم الإنتاجية أو المردودية .Rendement فالذهن البشري كما يعترف سبربر وولسن يصبو إلى تحقيق الملاءمة، وهي ملاءمة تتأسس على الترابط الوثيق بين مقاصد المتكلم من جهة، والنتائج السياقية contextual effects التي يحصدها المخاطَب بعد سلسلة من الجهود costs من جهة أخرى. بيان ذلك أنه كلما قلت الجهود التأويلية (كالانتباه والتخزين والتحليل) وزادت النتائج المتحصل عليها، كان التواصل ملائما؛ وكلما زادت الجهود وقلت النتائج، كان التواصل غير ملائم. وترتبط هذه الجهود بطبيعة المثير stimulus، من حيث طول الملفوظ، وبنيته التركيبية، ومواصفاته المعجمية. أما النتائج السياقية فتمثل في إضافة معلومات جديدة، أو تعزيزها، أو حذف معلومات قديمة مخزنة سلفا تتناقض مع المعلومة الجديدة.

4. خلاصة:

يتضح من خلال الاقتراحات السابقة أن وجهات نظر الدارسين حول الوضع الاعتباري للتداولية تتباين. فالدائرة تتسع لتجعل من التداولية نظرية حاضنة لمختلف المستويات اللسانية، لذلك اعتبرها وندرليش نظرية شاملة لمجال الكفاية اللسانية. في مقابل ذلك يضيق مجالها بعض الشيء، حينما يقر الدارسون بتقاطع الدلالة مع التداولية، وهو تقاطع متعدد الملامح، يقوم على إدماج القضايا التداولية في صلب التحليل الدلالي تارة، أو ربط هذه القضايا بمبحث السياق والاستلزامات الحوارية تارة أخرى. وقد تضيق الدائرة أكثر حين تصبح التداولية مرادفة لدراسة الإشاريات كما هو الحال مع جملة من الدارسين أمثال شارل موريس وبارهيل ومونتاك وكاليش. ورغم تباين هذه

(93) نفسه ص 72.

التصورات، إلا أن ذلك لا يحجب عنا اعترافها الضمني بأن التداولية تقع في صميم البحث اللساني.

خلافاً لذلك يتفرد اقتراح آن ربول وجاك موشلر عمّا سواه بالتنصيص على أن للتداولية صلة وثيقة بالعلوم المعرفية، وهي صلة بقدر ما تفضي إلى تعميق الفهم بالقضايا التداولية، من خلال ما تستعيره من فروض ومفاهيم، إلا أنه يستبطن مقدارا من الخطورة، يتمثل في إبعاد التداولية عن مجال اللسانيات وإلحاقها بالعلوم المعرفية. وقد تجسد هذا الطرح بوضوح لدى كل من سبربر وولسن من خلال حديثهما عن نظرية الملاءمة.

المبحث الثاني
مباحث التداولية

تطورت الدراسات اللسانية خلال القرن العشرين بشكل ملحوظ، وقدمت أبحاثا رائدة للغة في مستوياتها الصواتية والتركيبية والدلالية. والملاحظ أن هذا التطور لم يواكبه انشغال متعمق ببعض إشكالات الاستعمال اللغوي، من قبيل أفعال الكلام والإحالة، والافتراض المسبق والأقوال المضمرة، وبالتبعية ظلت النماذج والنظريات اللسانية المختلفة تتحاشى هذه الإشكالات بذريعة أنها عصية عن البحث، فحقها أن يطويها النسيان. بيد أن التحولات المعرفية التي تفجرت مع خمسينات القرن العشرين، أظهرت أنه من المتعذر الاستمرار في تجاهل قضايا الاستعمال اللغوي، فجاءت محاضرات أوستن وأبحاث تلميذه سورل لتعلن عهدا جديدا في الدراسات اللسانية، ولتؤرخ لثورة منهجية على النماذج اللسانية البنيوية، هي ثورة التداولية. وفي ما يستقدم سنحاول التوقف عند بعض ملامح هذه الثورة في بداياتها مع بنفنيست Benviniste من خلال مبحث الإشاريات، فنظرية أفعال الكلام مع أوستن Austin وسورل Sear، لننصرف في ما بعد لمقاربة بعض امتداداتها من خلال الوقوف نظرية الملاءمة لسبربر وولسن Dan Sperber و Deirdre Wilson، ونظرية الحجاج في اللغة مع ديكرو Oswald Ducrot، على أن نذيل الحديث عن التداولية بالوقوف عند نظرية المجموعات الدلالية التي قدمتها الباحثة الفرنسية ماريون كاريل Marrion Carel، في محاولة منها لاستدراك بعض هفوات نظرية الحجاج في اللغة.

1. الإشاريات:

ليست الإشاريات مبحثا مستحدثا ولا مستجدا على حقل الدراسات اللغوية. إذ تناوله النحاة في مصنفات كثيرة، وانشغلوا بالتعقيد له، وبيان خصائصه الصرفية والتركيبية والدلالية، كما تناولها الفلاسفة في مؤلفاتهم،

في علاقتها بقضية الدلالة والإحالة المرجعية، وانشغل بها اللسانيون أيضا، محاولين كشف أبعادها المختلفة. ورغم الأهمية النظرية التي تكتسيها الإشاريات في النسيج اللغوي، إلا أنها لم تحظ بالعناية المطلوبة، مما يجعلنا أبعد عن فهم حدودها، كما نفتقد النمذجة الملائمة للتعابير الإشارية.(94)

لأجل ذلك تضافرت الجهود اللسانية الرامية لتعميق الفهم بالقضايا التداولية التي يثيرها مبحث الإشاريات، علما أن البداية الأولى للتداولية اللسانية ارتبطت بهذا المبحث. فقدأشار شارل موريس إلى أن البعد الثالث في دراسة السيموزيس يبحث العلاقة بين العلامات ومؤوليها. وقد اتضح له في تلك الأثناء أن مجال التداولية لا يعدو العناية بضمائر الكلام، وظروف الزمان والمكان، ومختلف التعابير التي تستقي مرجعيتها من مقامات التواصل. وإذا كانت دراسة مورس لم تتوسع في تحليل هذه المباحث، إلا أنها حازت قصب السبق من جهة، ومهدت الطريق للدراسات اللسانية اللاحقة التي اهتمت بقضايا التلفظ والملفوظ من جهة أخرى.(95)

1.1 - الإشاريات تعريفها وخصائصها:

تقترن الإشاريات بفعل الإشارة إلى موضوع ما، وتنطبق على زمرة من الوحدات التركيبية والعوامل الدلالية غير المنفصلة عن سياقات إنتاج الملفوظ. يُفهم من ذلك أن الإشاريات عبارة عن علامات محيلة غير منفصلة عن فعل التلفظ، وهو فعل يقتضي متلفظا يتوجه بخطابه إلى مخاطب، ضمن إطار زماني ومكاني محدد. لذلك لا يمكن إسناد دلالة ما إلى ملفوظ معين دون الوقوف عند الإشاريات من جهة، وعند سياق إنتاج الملفوظ من جهة أخرى. فضمير المتكلم "أنا" يظل مجردا، مبهما، ما لم تقترن إحالته بسياق معلوم لدى

(94) LEVINSON Stephen «Deixis »In «The Handbook of Pragmatics »Edited by Laurence R. Horn and Gregory Ward, Blackwell publishing, 2004, pp 97-122.

(95) تشير الباحثة مونيكا فلودرنك أن أوطو جاسبرسن Otto jasperson كان من أوائل اللسانيين الذين أدمجوا مصطلح Shifters في كتابه"فلسفة النحو"1924. انظر مقدمة مقالها:

–Fludernik Monika »Some reflections on Jakobson, Jespersen, and reference «In Semiotica 86, 1991, pp 193- 230

المتخاطبين، وكذلك الحال مع "الآن" و"هنا" وغيرهما. على هذا الأساس يمكن أن نستنتج أن للإشاريات طابعا اصطلاحيا تواضعيا، شأنها في ذلك شأن علامات اللسان الأخرى.

علاوة على ذلك تتصف الإشاريات بخاصية أخرى، تتمثل في كونها عاجزة عن الدلالة إلا إذا كانت على صلة بموضوع تمثله، سواء أكان هذا الموضوع واقعيا أم خياليا. ومن ثم فإنها تضارع ما يسميه بورس بـ المؤشر In-dex والمؤشر هو الحركة التي تدل بواسطتها على شيء (موضوع) ما: وفي غياب الشيء، فإن المؤشر لا يشرك معه شيئاً أبداً، أي أنه لا يدل على أي شيء، والحركة لا تصبح تحديداً إلا إذا كانت على علاقة حقيقية بالموضوع (الشيء)(96).

في سياق متصل أوضح جاكبسون في مقاله "Shifters, verbal categories, and the Russian verb"(97) الطابع الكوني للإشاريات، وحضورها في اللغات كلها، بما فيها تلك التي تضمر بعضها(98). لذلك اعتُبرت هذه الروابط من الكليات اللغوية.

وإذا كانت الإشاريات تحمل طابعا كونيا، فإنها في الآن نفسه تلعب دورا حيويا في تحقيق فاعلية التواصل، وهي فاعلية مرتبطة بدورها في الإحالة إلى

---

(96) جان سيرفوني »الملفوظية« ترجمة قاسم المقداد، منشورات اتحاد الكتاب العرب 1998، ص 27.

(97) Jakobson Roman «Shifters, verbal categories, and the Russian verb »In Selected writings II, the Hague Monton, 1971, pp 130-147.

وانظر كذلك:

–Jakobson Roman »Essais de linguistique générale «Ed de Minuit,1963, p178-180.

(98) تعتبر العربية من اللغات التي تجيزحذف الضمير مثال: وصل [ضمير مضمر] متأخراً. وكذلك الحال مع الإسبانية مثال Pensamos que sería conveniente no dar esta informa-ción. (نعتقد أنه سيكون من غير الملائم الكشف عن هذه المعلومة). ففي هذه الجملة نلاحظ أن الإسبانية تسوغ حذف الضمير " نحن" لأن اللاصقة osالمتصلة بالفعل تدل على ذلك. ويظل هذا الحذف مرهونا بالسياق، فمتى التبس الأمر بين الضمير الدال على المذكر أوالمؤنث احتاج المتكلم لإبراز الضمير. مثال Viene قد يدل على جاء أو جاءت، ولرفع الالتباس عنه، من الواجب إبراز الضمير المناسب (El viene) جاء (Ella vieneÅ) جاءت.

موضوعات ذات مرجعية معلومة بالنسبة لأطراف التواصل. والمرجعية، كما هو معلوم، تمثل عصب الخطاب والضامن لحسن تبليغه.

بناءً على ما تقدم، يتضح أن الإشاريات تتوخى التعيين والتحديد المتعلق بالأشخاص والأشياء والأحداث والأنشطة التي نتحدث عنها والتي نحيل إليها في علاقتها بالسياق الزمكاني المتولد عن فعل التلفظ[99]. وقد قسمها الدارسون إلى ثلاث طبقات هي الإشاريات الشخصية والإشاريات الزمانية والإشاريات المكانية.

1.2 - أصناف الإشاريات:

1.2.1 - الإشاريات الشخصية:

تطرق النحاة لموضوع الإشاريات الشخصية، من خلال باب الضمائر. وقد ذكر السكاكي أن الضمير: "عبارة عن الاسم المتضمن الإشارة إلى المتكلم أو إلى المخاطب أو إلى غيرهما بعد سابق ذكره"[100]. ويكشف هذا الحد أن الضمير يقترن بالإشارة أي الإحالة، وهي إحالة تربط السابق باللاحق، ولا تكون إلا إلى معروف ومذكور سلفا، لأن الإضمار يظل مقرونا بعلم المخاطب والمتكلم على حد السواء، وهو ما عبر عنه سيبويه قائلا: "وإنما صار الإضمار معرفة، لأنك إنما تضمر اسما بعدما تعلم أن من يُحدث قد عرف من تعني وما تعني، وأنك تريد شيئا تعلمه"[101]. ومعناه أن الإضمار يعمد إليه المتكلم لأغراض محددة، تتناغم مع السياق الكلامي، لكنه يبقى معلقا بعلم المخاطَب أيضا، وإلا تحول الخطاب إلى ألغاز ومعمى.

من منظور مختلف، توسع بنفنيست في تحليل الطابع التداولي للإشاريات

---

(99) Lyons John «Sémantique linguistique», Larousse, Langue et langage,1980, p261.

(100) السكاكي «مفتاح العلوم»، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط 2، 1987ص 116.

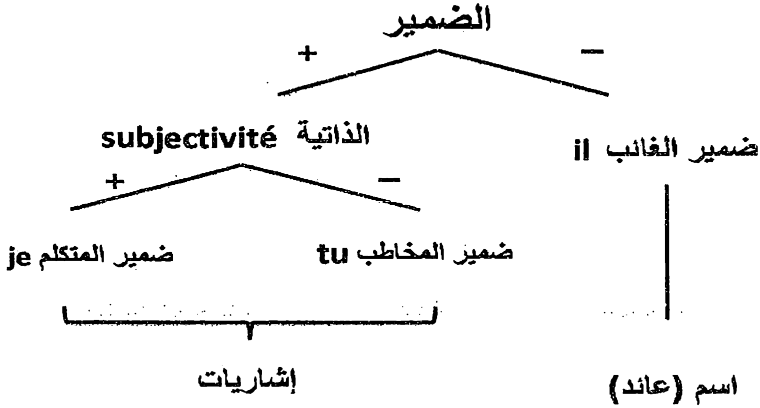
(101) سيبويه «الكتاب»، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي القاهرة، ط3، 1988، ج 2، ص 6.

الشخصية، من خلال فصول كتابه "مسائل في اللسانيات العامة"، ونخص بالذكر فصل "الإنسان في اللسان" L'Homme dans la langue، وما تفرع عنه من مباحث كـ"طبيعة الضمائر" nature des pronomsla و"الذاتية في اللسان" De la subjectivité dans le langageÅ. ففي مبحث "طبيعة الضمائر"[102] مثلا توقف بنفنيست عند التمييز الذي تقيمه اللغة الفرنسية بين ثلاثة أنواع من الضمائر هي ضمير المتكلم je وضمير المخاطب tu وضمير الغائب il. ويؤسس بنفنيست لعلاقة وثيقة بين الضمائر وسياقات الكلام، مؤكدا أنها لا تنتمي لطبقة واحدة متجانسة. فضمير المتكلم والمخاطب لا يحيلان إلى واقعة ما، أو وضعيات موضوعية، وإنما إلى ملفوظ ذاتي ومتفرد. ومعناه أن ضمير المتكلم واحد، لكنه حركي بإمكان أي متحدث أن يستعمله ويطبعه بسماته الخاصة، وأن يحيل من خلاله إلى خطابه الخاص. كذلك الحال مع ضمير المخاطَب الذي لا يحيل إلى فرد بعينه، وإنما تتحدد دلالته من خلال السياق الكلامي.

بالمقابل يلاحظ بنفنيست أن ضمير الغائب il ذو طبيعة موضوعية، لأنه لا يحيل إلى واقعة كلامية معينة، كما أن المرجعيات في هذا النوع من الضمائر لا دلالة لها لأنها لا تقترن بسياق كلامي محدد. لذلك يدرج بنفنيست ضمير الغائب ضمن ما يطلق عليه اللاشخص non-personne، ويستدل على ذلك من خلال استعماله عائدا مثال Pierre est malade, il a la fièvre (بيير مريض، إنه محموم) وفي بعض الأحيان للإحالة على وقائع خارجية مثال il p leut (تُمطر). وقد اقترح جاك موشلر وآن ربول الخطاطة التالية لبيان العلاقة بين ضمير الحضور والغياب:[103]

(102) Benveniste Emile «Problèmes de Linguistique Générale »Tome1, Editions Gallimard 1966, p 289.

(103) جاك موشلر وآن ربول «Dictionnaire encyclopédique de Pragmatique» ص 64.



نستخلص مما سلف أن اللغة تمكن المتحدثين من عدة أشكال فارغة، يعمدون إليها كلما توخوا التعبير عن تجاربهم الحيوية. فضلا عن ذلك أضحت الضمائر مكونا لا محيد عنه لإضفاء بعد تداولي على استعمال اللغة، وهو بعد يثبت أن الضمائر قد تتحول إلى وحدات معجمية لا معنى لها إذا عُزلت عن مرجعيتها الإحالية. ويأتي هذا الإقرار متساوقا مع الاعتراف بأن الضمائر عبارة عن وحدات لا تشير إلى شخص معين، كما أنها لا ترتبط بمعطى ما من معطيات التجربة الإنسانية، لأنها ليست في نهاية المطاف سوى علامات يتوسل بها المتكلمون لإضفاء بعد تداولي على خطابهم.

1.2.2 الإشاريات الزمانية:

شغل الزمن حيزا مهما في دراسة الإشاريات، سواء تعلق الأمر بزمن الفعل أو بظروف الزمان. وهو ما نلمسه بعمق في كتاب بنفنيست "مسائل في اللسانيات العامة"، وتخصيصا في مبحث "علاقات الزمان في الفعل الفرنسي" Les relations de temps dans le verbe français. إذ اتضح لبنفنيست أن دلالة الزمن لا تتحدد بزمن الفعل أو الظرف في حد ذاته، وإنما بزمن التلفظ. معنى ذلك أننا عندما نعمد لظرف زمن مثل أمس، فإن دلالته تتحدد بالزمن الذي أنتج فيه الملفوظ، أي أنه يدل على اليوم الذي سبق يوم إنتاج الملفوظ، وبالمثل فإن غداً تدل على اليوم الذي يلي زمن الحديث. ومن هذا

المنظور يتضح أن الزمن بقدر ما يمثل عنصرا ملازما لكل لغة وحدث لغوي، بقدر ما تتصل دلالته بالخطاب والاستعمال.

1.2.3 الإشاريات المكانية:

ما قيل عن الإشاريات الزمنية ينسحب أيضا على نظيرتها المكانية. إذ إنها لا تحمل دلالتها في ذاتها، بل إن معناها يتحدد بسياق التلفظ. فأن أقول "أنا جالس قرب المنزل" يظهر أن ظرف المكان "قرب المنزل" لا قيمة له إلا في علاقته بمكان التلفظ. كذلك إذا غيَّر المتكلم مكانه، وابتعد عن موضع جلوسه السابق، سيصبح ظرف المكان مجردا من معناه. لذلك، فإن تحديد المرجعية المكانية تفرض على المخاطَب مراعاة سياق إنتاج الخطاب.

والحديث عن الإشاريات الزمانية والمكانية يجرنا للوقوف عند أسماء الإشارة باعتبارها وحدات معجمية ذات طابع إحالي، وهو ما نلمسه في تعريفاتها المختلفة. فقد ذكرأبو حيان الأندلسي أن اسم الإشارة "هو ما وُضع لمسمى وإشارة إليه، وهو في القرب مفردا مذكرا "ذا" ثم "ذاك" ثم "ذلك" و"آلك"، وللمؤنثة "تي" و"تا" و"تهْ" و"ذي" و"ذهْ"، وتكسر الهاءان باختلاس وإشباع، و"ذات" ثم "تيكَ" و"تَيْك" و"ذَيك" (. . .) وأحسن ما قيل في حد اسم الإشارة: اسم الإشارة هو الموضوع لمعين في حال الإشارة. فـ"الموضوع لمعين" جنس يشمل المعارف، و"في حال الإشارة" فصل يخرج سائر المعارف ويخص اسم الإشارة"[104] يستفاد من هذا التحديد أن اسم الإشارة يُستعمل للدلالة على مشار إليه، سواء أكان شخصا أو شيئا. . . يوجد بمعزل عن لفظه، لذلك تلازم أسماءَ الإشارة صفةُ الإبهام، واستخدامها يفرض أن يتصل بها ما يرفعه عنها.

وإذا كان النحاة يتحدثون عن الإبهام الملازم لأسماء الإشارة، فإن اللسانيات التداولية فصلت في هذه الخاصية، حينما سلمت بأن ورودها في

(104) أبو حيان الأندلسي»التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل«، حققه حسن هنداوي، دار القلم دمشق، ج 3، ط1، 2002، ص 181.

الخطابات، واستخدامها يظل رهينا بمقاصد المتكلم، وبسياق الكلام. ومن ثم، فإن أسماء الإشارة لا تحيل بذاتها، بقدر ما تعتمد اعتمادا كليا على غيرها للانتقال من حالة الإبهام إلى حالة التعيين والتحديد.

1.3 بعض قضايا مبحث الإشاريات:

إذا تجاوزنا مختلف الدراسات والتصنيفات التي اقترحها النحاة واللسانيون للإشاريات، فمن الواضح أن هذا المبحث يثير بعض القضايا التداولية، ونخص بالذكر قضيتين جوهرتين هما قضية الذاتية وقضية الإحالة.

فمن نافل القول التذكير بأن الإنسان كائن تواصلي بامتياز، يوظف مختلف ضروب الدلالة للتعبير عما يجول في خاطره. غير أن لاستعمال اللغة طابعا خاصا، إذ إن كل ما نتلفظ به يظل مرهونا بسياق الكلام، أي: من يتحدث؟ مع من؟ متى؟ أين؟... وأسئلة من هذا القبيل تجسد مظهرا خاص لاستعمال اللغة تعرف بـ"الذاتية في اللغة" " .

والذاتية في معناها العام تحيل إلى الذات والوعي الفردي، وما يتصل بذلك من أحكام وعواطف. أما بالنسبة لبنقنيست فتعني الذاتية قدرة المتكلم على التموضع بوصفه ذاتا. وتتحدد باعتبارها وحدة نفسية تحقق الوعي، وتتعدى مجموع التجارب المعيشة، وليست مجرد إحساس يعبر عنه الفرد[105]. لذلك أقر بنقنيست بهيمنة الذاتية على اللغة، واعتبرها خاصية جوهرية وداخلية ملازمة للخطاب، لأنه لا يمكن أن نتصور لغة دون عبارات دالة على الذات[106]، وليس التلفظ سوى التجسيد العملي للغة من خلال إنجاز فردي.[107] ويعترف بنقنيست بأن اللسان يقدم احتمالية لحضور الذاتية، على اعتبار أنه يتألف من عدة أشكال لسانية، أما الخطاب فيتيح إمكانية

(105) بنقنيست، مرجع سابق، ج 1، ص 259.
(106) نفسه ص 259.
(107) نفسه ص 80حيث يصرح :
« L'énonciation est la mise en fonctionnement de la langue par un acte individuel d'utilisation»

تمظهرها بصيغة جلية وواضحة من خلال الترهين الخطابي Instance de dis-cours.[108] ومعناه أن مستعمل اللغة يعبر عن ذاته، ويجسد حضورها الخطابي من خلال عدة وحدات، إلى حد أنه يكاد يتعذر الحصول على نص لا نستشف منه حضور الذات الناطقة به. إن هذه الأخيرة تسجل دائما تجليها في ملفوظها، بيد أن هذا التجلي قد يكون مرئيا إن قليلا أو كثيرا [109]، مما دفع كيربرات أورشيوني للحديث عن الوحدات الذاتية Subjéctivèmes[110]، وهي وحدات تتجلى في الخطابات من خلال الإشاريات (الضمائر والإشارة، والظروف) والموجهات (التوكيدية، الاستفهامية، التعجبية، الأمرية).

اعتمادا على ما سبق يتضح أن المتكلم يفرض حضوره على مستوى اللسان والخطاب بطريقة سافرة، لكن هذا الحضور لا يقتضي إلغاء المخاطًب، بل التنصيص على أهميته، لأنه لا يمكن أن نتصور فعلا تواصليا فعالا إلا بحضور طرفي الخطاب. وهو ما عبر عنه بنفنيست بمصطلح التذاوت L'intersubjectivité. [111]

ولئن كان بنقنيست قد احتفى كثيرا بالذاتية واعتبرها خاصية ملازمة للغة، مؤكدا في الآن نفسه أنها تتمظهر في الخطابات من خلال عدة صيغ أهمها الإشاريات والموجهات، فإن التصورات اللسانية اللاحقة انتقدت التمييز الذي أقامه بنقينست بين الذاتية والموضوعية، على اعتبار أن منتج الخطاب يمكن أن يتوارى خلف صيغ متعددة ليخفي حضوره، دون أن يعني ذلك أن خطابه ذو طابع موضوعي؛ كذلك قد يعمد الصحفي المشهور إلى ضمير المتكلم "أنا/ je " دون أن يضفي طابعا شخصيا وذاتيا على الأحكام المطروحة[112]. وهو ما

(108) نفسه ص 263.

(109) مانغونو دومينيك«المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب» ترجمة محمد يحياتن، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ط1، 2008ص 122.

(110) Kerbrat Orracchioni Catherine «L'énonciation de la subjéctivité dans le langage», Armand Colin, Paris 1980, p32

(111) بنفنيست، مرجع سابق، ص 266.

(112) CERVONI Jean «l?énonciation »,linguistique nouvelle, Presses universitaires de France, Paris, 1987, p60.Å

أوضحته أورشيوني حين بيّنت أن الذاتية يمكن أن تتجلى مع ضمير الغائب، وبالمثل فإن الموضوعية قد تحضر مع ضمير المتكلم، وبطريقة مفارقة فإن ملفوظا مثل "أجد هذا الشيء جميلا" يمكن اعتباره أكثر موضوعية من ملفوظ "إنه جميل"(113).

وبموازاة الذاتية يثير توظيف الإشاريات في الخطاب قضية تداولية أخرى لها علاقة بالإحالة. والإحالة كما يحددها لاينز تستند إلى تلك العلاقة الموجودة بين الأسماء والمسميات،(114) إنها الفعل الذي يدفع المتكلم أو الكاتب لاستعمال بعض الأشكال اللسانية لمساعدة المستمع أو القارئ على تعيين شيء ما.(115) لهذا فإن فاعلية التواصل تقترن بالإحالة إلى مرجع ما، سواء أكانت واقعية أم خيالية، نصية أم خارجية، قبلية أم بعدية. في السياق نفسه أكد هوكيت وألتمان Hockett & Altmann أن خاصية الإحالة سمة مميزة للتواصل البشري، مقارنة مع الكائنات الحية الأخرى. فالإنسان له القدرة على الإشارة إلى ما يوجد بمعزل عنه، سواء تعلق الأمر بالبيئة المباشرة المحيطة، أو الموضوعات المتحركة في الزمان والمكان.(116)

لذلك تعد الإحالة ضربا من التعيين أو التحديد لبعض الموضوعات أو الأشخاص الذين نسعى للتحدث عنهم. والسبيل إلى ذلك يتحقق من خلال الربط بين المعنى وبعض الوحدات المعجمية. والسؤال الذي يفرض نفسه هو: ما العلاقة الموجودة بين هذه الوحدات المعجمية والموضوعات التي تحيل إليها ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تفرض علينا تعريف الإحالة والوقوف عند بعض الجهود التي سعت لمقاربتها. فالإحالة تعني الفعل الذي يستعمل فيه

(113) نفسه ص 60.

(114)-Lyons John «Linguistique général Introduction A La Linguistique Théorique» Traduction de F. Dubois Charlier et D. Robinson langue et langage, Larousse, 1970.p 383

(115) YULE Georges «Pragmatics »Oxford University Press, 1996, p17.

(116) CARLSON Gregory «Reference», In -The Handbook of Pragmatics- Edited by Laurence R. Horn and Gregory Ward, Blackwell publishing, 2004, p74.

المتكلم أو الكاتب أشكال لسانية ليمكن السامع أو القارئ من تعيين موضوع ما.[117] وهذه الأشكال اللسانية عبارة عن تعابير محيلة تتألف من أسماء الأعلام أو أسماء الجنس النكرة والمعرفة، أو الإشاريات. واختيار أحد التعابير يعتمد على تسليم المتكلم بوجود معرفة سابقة لدى السامع. لذلك يؤكد جورج يول أن الإحالة تتصل بأهداف المتكلم واعتقاداته.

في سياق متصل يعترف سورل بأنه "لا يجب أن نستنتج من لفظ" تعبير مرجعي" أن تلك التعابير تحيل، بل على العكس، فقد وُضعت الإحالة موضع البداهة، فهي عمل لغوي، والأعمال اللغوية لا تنجزها الكلمات، ولكن ينجزها متكلمون يتلفظون بكلمات. وفي اصطلاحي الخاص، فإن القول بأن تعبيرا يحيل (أنه يسند، يثبت، إلخ...) (...) هو طريقة مختصرة للقول بأن متكلما يستعمل ذلك التعبير ليقيم إحالة (ليسند، ليخبر، إلخ..) الأعمال اللغوية ص 66.[118]

على هذا الأساس يظهر أن "المسألة لا تتعلق بمعرفة ما إذا كان محتوى الملفوظ صحيحا أم خاطئا، ولكن بمعرفة ما إذا تم تبرير فعل التلفظ. ويُطرح مشكل الإحالة عند أوستن وفي التداولية عموما على مستوى واقع العمل اللغوي/ مرجع الفعل الإنشائي، أو حتى الفعل الخبري. فإذا كان أوستن يعتبر أنه: "من العسير (...) تحديد بين أعطي والإعطاء ذاته" (كيف نصنع أشياء بالكلمات ص 72)، فإنه لا يتعبر أن المشكل يتمثل في الصلة بين الحقيقة والمرجع، بل يتمثل المشكل عنده في مصداقية المقصد"[119].

ويعتبر هذا الموقف بمثابة ردِّ فعلٍ على الطابع المنطقي الرياضي الذي وسم الفلسفة التحليلية، خاصة مع محاولة رسل بناء نظرية دلالية تعول كثيرا على معيار الصدق والكذب. لذلك "يبين سورل مثل أوستن أن الإخبار بأن" ملك فرنسا أصلع (سنة 1972) ليس صحيا ولا خاطئا، ولكنه ناقص .Défectueux وإن

(117) جورج يول «Pragmatics» ص 17.
(118) فليب بلانشيه «التداولية من أوستن إلى غوفمان» ص 121.
(119) نفسه ص 119- 120.

غياب المرجع لا يجعل الملفوظ خاطئا، بل يجعل الإسناد المتعلق بذلك الشيء لاغيا" . (120)(121)

2- **نظرية أفعال الكلام** Speech acts theory:

2.1 أوستن ونظرية أفعال الكلام:

ليس مبحث أفعال الكلام نظرية لسانية محضة، بقدر ما هو مقاربة فلسفية لبعض القضايا التي تثيرها اللغة الإنسانية. ويعود الفضل في تعميق الفهم بالأفعال الكلامية إلى الفيلسوف الإنجليزي أوستن J.L. Austin في كتابه How To Do Things With Words، وهو عبارة عن 12 محاضرة ألقاها سنة 1955 بجامعة هارفرد حول فلسفة وليام جيمس The William James Lectures، توخى منها وضع بعض أسس الفلسفة الإنجليزية موضع السؤال والتشكيك، خاصة ما يتعلق بوظيفة اللغة.

إذ سلم الفلاسفة والمناطقة لأمد طويل بأننا نستعمل اللغة لوصف الواقع، لذلك تظل الجمل خاضعة لمعيار الصدق والكذب، فتكون الجمل صادقة إذا طابقت الواقع، وكاذبة إذا خالفته.

ولا يختلف البلاغيون عما قدمه الفلاسفة. ففي مبحث الخبر والإنشاء لدى البلاغيين العرب مثلا نلاحظ أن الخبر عندهم كلام يحتمل الصدق أو الكذب، ويصح أن يقال لصاحبه صادق أو كاذب. (122)

غير أن واقع الحال يظهر أن عدد كبيرا من الجمل لا تخضع لمعيار الصدق

---

(120) نفسه ص 121.

(121) يثير موضوع الإحالة عدة قضايا تداولية، توقف عندها فليب بلانشيه، خاصة قضية الإخبار واسم العلم، والحقيقة. ونقترح على القارئ العودة لكتابه "التداولية من أوستن إلى غوفمان" للوقوف عندها بدقة وتفصيل.

(122) السكاكي «مفتاح العلوم» مصدر سابق، ص 164.
القزويني التلخيص في علوم البلاغة ضبطه و شرحه عبد الرحمان البرقوقي، دار الفكر العربي، ص 38.

ولا الكذب، كما لا تتوخى وصف العالم، بقدر ما تطمح لتغييره.[123] وقد أطلق أوستن على هذه الظاهرة الإيهام الوصفي the descriptive fallacy/ L'illusion descriptive. ويمكن أن نمثل لذلك بالجملتين التاليتين:

ـ أُسمي هذه السفينة الملكة إلزبيث. "I name this ship the Queen Elizabeth"

ـ أقبل أن تكون هذه المرأة زوجتي.

I do (sc. take this woman to be my lawful wedded wife).

فجمل من هذا النوع، لا تخضع لمعيار الصدق أو الكذب، كما لا تصف حقيقة ما، وإنما تنجز فعلا، هو فعل التسمية، وفعل قبول الزواج على الولاء. بناء على هذه الملاحظة ميز أوستن بين نوعين من الملفوظات: الملفوظات التقريرية الوصفية constative sentences/descriptive وتظل خاضعة لمعيار الصدق والكذب، والملفوظات الإنجازية performative sentences، التي تمتاز بما يلي:

- من الضروري أن يكون الفعل المحوري للملفوظ إنجازيا (وعد. حذر التمس...) مبنيا للمعلوم.
- من الضروري أن يسند الفعل المخوري لضمير المتكلم.
- من الضروري أن يرتبط الفعل المحوري بالزمن الحاضر.

علاوة على ذلك قيَّد أوستن الملفوظات الإنجازية بجملة من الشروط، يفضي الالتزام بها إلى تحقيق الغايات المرجوة من الفعل الإنجازي، كما قد يؤدي الإخلال بها إلى الإخفاق وعدم التوفيق، ومن ثم إنتاج ملفوظات فاشلة

---

(123) حيث يصرح أستن بما يلي:
"It has come to be commonly held that many utterances which look like statements are either not intended at all, or only intended in part, to record or impart straightforward information about the facts" Austin J.L «How To Do Things With Words»)"The William James Lectures) ,delivered at Harvard University in 1955, OXFORD AT THE CLARENDON PRESS,1962; p2.

the infelicity/ les infélicités.[124] وتتلخص هذه الشروط في:[125]

ـ لا بد من وجود إجراء عرفي مقبول، له أثر عرفي محدد، وهو إجراء يقتضي أشخاصا يتلفظون ببعض الكلمات في ظروف خاصة.

ـ لا بد أن ينفذ جميع المشاركين الإجراء بطريقة صحيحة وكاملة.

ـ لا بد للطرف الذي يشارك في الإجراء أن يتوافر فعليا على الأفكار والمشاعر(أو أن يستحضرها)، كما على المشاركين أن تكون لهم نية قبول التصرف المذكور، عندما يقتضي هذا الإجراء لدى القائمين به بعض الأفكار والمشاعر ـ كما يحدث غالبا ـ وعندما يستلزم توليد بعض التصرفات لدى المشاركين الآخرين.

ـــ بالتبعية على المشاركين في الإجراء أن يتصرفوا على هذا النحو.

وإذا كان أوستن قد أوضح أن عدم التقيد بالشروط السالفة يفضي إلى إنتاج ملفوظات فاشلة، فإنه في الآن نفسه حاول التمييز في هذه الملفوظات بين نوعين هما الإخفاقات والإساءات. إذ اعتبر أن الشرطين الأول والثاني ضروريان، فإذا لم نتلفظ بالفعل الإنجازي بطريقة صحيحة، أو أننا كنا عاجزين عن إتمام الفعل، كأن يكون الشخص غير قادر على الوفاء بعهده، فإن الفعل في هذه الحالة لا يتم بنجاح. وهذا ما يحصل عندما نتلفظ بفعل إنجازي قابل للإنجاز لكننا لم ننجزه، وقد أطلق أوستن على هذا النوع إخفاقات Insuccès/Misfires، أما إذا اختل الشرط الثالث كأن يكون الفعل الإنجازي لفظيا، وكان المتلفظ غير صادق في ما تلفظ، أو أنه لا نية له في إتمام الفعل، فستتحدث في هذه الحالة عن إساءة Abus.

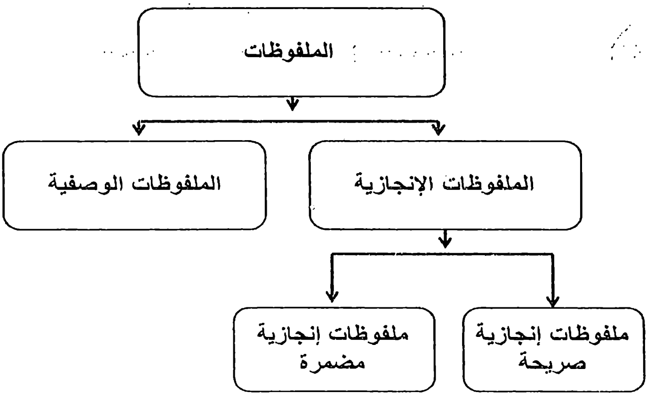
ولم يكتف أوستن بالتمييز السالف فقط، وإنما انتبه أيضا إلى أن الملفوظات الوصفية التقريرية ليست في واقع الأمر سوى ملفوظات إنجازية فعلها الإنجازي

(124) أوستن «How to do things with words» ص18. وانظر كذلك ص52 من الترجمة الفرنسية.

(125) نفسه ص 14 ـ 15، وانظر كذلك ص 49 من الترجمة الفرنسية.

مضمر. يظهر ذلك جليا عندما نتأمل جملة من قبيل: "السماء ستمطر". فظاهرها بالنسبة لأوستن وصفي، وباطنها إنجازي، على اعتبار أن أصلها هو "أحذرك من أن السماء ستمطر".

بناءً على ذلك ميز أوستن في الملفوظات الإنجازية بين جمل إنجازية مضمرة implicit performatives وجمل إنجازية صريحة explicit performatives.(126)



2.2 أصناف أفعال الكلام:

بعد مناقشة مستفيضة للملفوظات، خلُص أوستن إلى ضرورة التفكير في مراجعة أفعال الكلام، واقترح أن تتم هذه المراجعة ضمن نظرية شاملة لأفعال الكلام يجري التفريق فيها بين ثلاثة أفعال كلامية هي فعل القول، وفعل الإنجاز وفعل التأثير:(127)

(126) نفسه:
« The performative utterances I have taken as examples are all of them highly developed affairs, of the kind that we shall later call explicit performatives, by contrast with merely implicit performatives. That is to say, they (all) begin with or include some highly significant and unambiguous expression such as 'I bet', 'I promise', 'I bequeath'-an expression very commonly also used in naming the act which, in making such an utterance, I am performing-for example betting, promising, bequeathing. »

(127) انظر تفصيل هذه الأفعال في المحاضرة الثامنة ص 94 وما بعدها، و انظر كذلك ص 109 من الترجمة الفرنسية.

- فعل القـــول : Locutionary act ويُراد به التلفظ بقول ما استنادا إلى جملة من القواعد الصوتية والتركيبية التي تضبط استعمال اللغة.

- فعل الإنـــجاز: Illocutionary act ويُراد به القـصد الذي يرمي إليـه المتكلم من فعل القول، كالوعد والأمر والاستفهام والتحذير. . . وقد اقترح أوستن نمذجة Typology لهذه الأفعال مميزا بين خمس طبقات [128] Classes:

ـ طبقـة الأفـعال الحُكمـية Verdictives Verbs وتشمـل أفعـالا تعكس قدرة المتكلم على إصدار الأحكام ـ حسب موقعه الاجتماعي ووضعه الاعتباري كأن يكون قاضيا أو حاكما ـ ومن ذلك مثلا: اعترض ـ أعلن ـ صرح ـ أدان ـ برّأ ـ وافق ـ اتهم. . .

ـ طبقة الأفعال التنفيذية Exercitives Verbs وتشمل أفعالا تفصح عن قدرة المتكلم على إتخاذ القرارات وإصدار الأوامر، والتأثير على الآخرين مثل: وافق ـ حذر ـ نصح ـ زوّج ـ سمّى ـ سمح. . .

ـ طبقة الأفعال التعهدية Commissive Verbs وتشمل أفعالا يتعهد فيها المتكلم بفعل ما، مثل: التزم ـ تعهد ـ وعد ـ وافق ـ عزم ـ نوى ـ تعاقد. . .

ـ طبقـة الأفـعـال السلوكـية Behabitives Verbs وتشمـل أفـعالا دالة على سلوك اجتماعي وتصرفات مثل: هنأ ـ لام ـ انتقد ـ تعاطف ـ رحّب ـ شكر ـ اعتذر. . .

ـ طبقة الأفعال العرضية Expositives Verbs وتشمل أفعالا يعرض فيها المتكلم وجهة نظر ويقدم حجة مثل: استشهد ـ مثّل ـ نصّ ـ افترض ـ شهد ـ دحض ـ أثبت. . .

- فعل التأثير: Perlocutionary act ويُراد به التأثير الذي يحدثه فعل الإنجاز في المخاطَب، فيدفعه إلى التصرف بهذه الطريقة أو تلك.

---

(128) نفسه ص 150..

ولتوضيح الاختلاف بين هذه الأفعال الثلاثة ـ فعل القول وفعل الإنجاز وفعل التأثير ـ يمكن أن نسوق المثال التالي:

ـ لا تلعب بالكرة في الشارع.

فهذه الجملة تتضمن فعلا قوليا يتمظهر في مجموع الكلمات المكونة للملفوظ، وهو ملفوظ خاضع لضوابط اللغة العربية وقواعدها الصوتية والتركيبية والدلالية. أما فعل الإنجاز فيتمثل في المعنى الذي يكشف عنه الملفوظ، ومداره حول تحذير الطفل من اللعب في الشارع، في حين يقترن فعل التأثير بالأثر الذي سيخلفه فعل القول في الطفل، فيدفعه للاستجابة.

على هذا الأساس يتضح أن الحكم على الملفوظات لم يعد مرهونا بمعيار الصدق والكذب، كما هو الحال عند المناطقة والفلاسفة والبلاغيين، وإنما مداره حول الأثر الذي يحدثه فعل القول في المخاطب، فيكون فعل الإنجاز ناجحا إذا استجاب المخاطَب، واقتنع بمقاصد المتكلم، كما قد يكون فاشلا حين يعجز المتكلم عن التأثير في المخاطَب، ولا يقدر على دفعه نحو التصرف والفعل.

2.3 نظرية أفعال الكلام لدى جون سورل:

فإذا توقفنا عند جون سورل باعتباره رافدا آخر من روافد التنظير لنظرية أفعال الكلام، فإن الملاحظة التي تستأثر بالاهتمام تتمثل في كون تحليلاته تدين بالفضل الكثير لمحاضرات أستاذه أوستن. إذ كرّس جهوده لإعادة النظر في نظرية أفعال الكلام من خلال محورين متكاملين؛ الأول خصّصه لتحليل شروط نجاح الفعل الكلامي، والأخير مداره حول اقتراح نمذجة عامة لأفعال الكلام.

فبخصوص المحور الأول وجه سورل اهتمامه صوب فعل الإنجاز خاصة، على اعتبار أن البحث في قضايا فعل القول ليس من صميم فلسفة اللغة، وإنما من اختصاص اللسانيات، كما أن البحث في فعل التأثير يبقى محل شك وريبة، لكونه يتعدى مجال التداولية.

وتركيز سورل على فعل الإنجاز قاده إلى التمييز في كل ملفوظ بين الفعل القضوي والقوة الإنجازية. ومعنى ذلك أن الجملة التي نتلفظ بها تتضمن محتوى قضويا، فضلا عن قوة إنجازية ملازمة له. فأن أقول "أعدك بالزيارة عما قريب"، يتضمن محتوى قضويا متمثلا في "سأزورك عما قريب"، وقوة إنجازية متمثلة في "أعدك"، وبذلك يكون المتكلم قد عبَّر عن رغبته في زيارة المخاطَب عما قريب استنادا إلى جملة من الشروط المفضية إلى تأويل الملفوظ، وهي شروط تتعالق فيها مقاصد المتكلم من جهة، والعرف الاجتماعي واللغوي من جهة أخرى.

وقد حدد سورل سبعة شروط متحكمة في الفعل الإنجازي، نوجزها في ما يلي:

- الشروط الأولية: Preliminary conditions وهي شروط تبين ضرورة اشتراك المتخاطبَيْنِ في جملة من المعارف القبيلة التي تمثل خلفية background للتواصل بينهما، كأن يكون المخاطَب قادرا على تنفيذ الأمر الموجه إليه.
- الشروط التحضيرية: Preparatory conditions وهي شروط متصلة بسياق الكلام الذي يؤطر حديث المتخاطبَيْن، وتندرج هذه الشروط التحضيرية ضمن متضمنات القول. مثال ذلك: سأعيركَ سيارتي. فملفوظ من هذا القبيل يفترض أن المتكلم يملك سيارة.
- شروط الغاية: Purpose conditions وتقتضي هذه الشروط أن للمتكلم غايات يرمي إليها، كالإخبار والتعبير والالتزام والتقرير...
- شروط المواضعة: onvention conditions وتتشكل من التعابير اللسانية التي يلجأ إليها المتكلم لإنجاز فعل ما. فعندما يتوخى التعبير عن التزامه بفعل شيء ما يعمد إلى لائحة من الأفعال مثل أعد، ألتزم، أتعهد... وإذا أراد التحذير قال أحذّر، أتوعد، أنذر...
- شروط القصد: Intention conditions وتضم مختلف النوايا التي بمقدور

المتكلم التعبير عنها كالإخبار والاستفهام والأمر. . . وتفترض هذه الشروط أن للمتكلم رغبة في الكشف عن نواياه لمخاطبه من خلال ما يتلفظ به.

- شروط المحتوى القضوي: Propositional content conditions وتتشكل من القواعد التركيبية والدلالية التي توجه القوة الإنجازية للملفوظ ما. فالمحتوى القضوي للوعد مثلا يستلزم أن المتكلم سينجز فعلا ما مستقبلا.
- شروط الوفاء/ الإخلاص: Sincerity conditions وتحدد هذه الشروط الحالة النفسية للمتكلم، من حيث اعتقاداته ورغباته ونواياه أثناء التلفظ بالفعل. فعندما يخبر المتكلم، فمن المفترض أن يكون حديثه صادقا، وعندما يلتزم بفعل شيء ما فذاك يقتضي القدرة على الوفاء بالوعد. وقد تختلف درجة قوة شروط الوفاء Degree of strength of the sincerity conditions من فعل لآخر فأن أقول "أطلب منك فعل كذا وكذا" ليست بالقوة الإنجازية نفسها لجملة "ألح أن تفعل كذا وكذا".

2.4 نمذجة سورل لنظرية أفعال الكلام:

بالاعتماد على هذه الشروط حاول سورل تقديم نمذجة عامة للأفعال الكلامية، مستفيدا من الانتقادات التي وجهها بعض التداوليين لنظرية أوستن. ونقطة الانطلاق بالنسبة لسورل تتمثل في تغيير المنهجية المعتمدة، من خلال التمييز بين الأفعال Verbs والأعمال Acts من جهة، والتركيز على مقاصد المتكلمين من جهة أخرى. وقد انتهى سورل إلى أن هذه الأعمال تقبل القسمة إلى خمسة أصناف هي:

- الملفوظات التعهدية: Commisives تتصف بكون المتكلم يلتزم تجاه المخاطب بإنجاز عمل ما في المستقبل، وتكون الحالة النفسية هي الصدق/ القصد:
  - أعدك بالحضور غدا.
  - سأحضر غدا.
- الملفوظات الإنجازية: Directives تتوخى حمل المخاطَب على إنجاز عمل ما:

ـ آمرك بالخروج من الاجتماع.

ـ اخرج من الاجتماع.

- الملفوظات الإخبارية: Assertives تتميز بكون المتكلم يستهدف الإخبار بمحتوى معين، يعلم بصحته. لذلك فهي ملفوظات ينطبق عليها معيار الصدق والكذب:

ـ سأسافر غدا.

- الملفوظات التصريحية: Declaratives المتكلم في هذا الصنف يكشف عن مضمون واقعة ما، من خلال الإحالة إلى معطيات غير لسانية، مرتبطة بوضعه الاعتباري، وقدرته على بناء علاقة توافق بين الكلمات والواقع الخارجي. لذلك يظل هذا الصنف من الملفوظات خاضعا للعرف المؤسسي والمجتمعي:

ـ أعلنُ الحرب عليكم.

- الملفوظات التعبيرية: Expressives تتحدد الغاية منها في تعبير المتكلم عن حالته النفسية، شرط أن تكون نيته صادقة. وهذا الصنف من الأفعال يوافق طبقة الأفعال السلوكية Behavitives Verbs عند أوستن:

ـ أهنئك على شجاعتك.

وقد مهدت هذه النمذجة الطريق لسورل من أجل إعادة النظر أيضا في مكونات الفعل الكلامي. إذ ذكرنا آنفا أن كل ملفوظ لدى أوستن يتألف من فعل القول، وفعل الإنجاز وفعل التأثير. ولم تختلف جهود سورل كثيرا عما قدمه أستاذه باستثناء إضافة الفعل القضوي لمكونات الفعل الكلامي المباشر من جهة، والتعمق في دراسة الأفعال الكلامية غير المباشرة من جهة أخرى. والسبيل إلى ذلك هو مسايرة أوستن في إقراره بأن نظرية أفعال الكلام هي في الأصل نظرية عمل وأثر، مع إضافة مبدأ آخر يُعرف بمبدأ التعبيرية Principle of expremability، ينص فيه على أن كل ما ننوي قوله يمكن أي يُقال.

على هذا الأساس أضحى الفعل الكلامي المباشر يتألف من أربعة مكونات هي فعل القول والفعل القضوي والفعل الإنجازي والفعل التأثيري، بدل ثلاثة عند أوستن. علاوة على ذلك اهتم سورل بموضع الأفعال الكلامية غير المباشرة Indirect speech acts، إذ اتضح له أن بعض الأفعال تفصح عن معان غير معبر عنها في المحتوى القضوي للجملة:

ـ الجو بارد.

فهذه الجملة تعبر عن معان متعددة، تفهم من سياق الكلام وقرائن الأحوال، إذ يُحتمل أن تكون متضمنة لملفوظ تصريحي مؤداه "أصرح أن الجو بارد"، كما يُحتمل أن تكون دعوة إلى إغلاق النافذة إذا كانت مفتوحة أو غير ذلك من المقاصد.

2.5 الأفعال الكلامية والخطاب التخييلي:

إن المراجعة السالفة لنظرية أفعال الكلام كما قدمها أوستن، قادت سورل إلى توسيع مجال اشتغاله، فامتد به البحث في الأفعال الكلامية غير المباشرة إلى تناول موضوع الخطاب التخييلي عامة، والاستعارة خاصة. وقد تبين له أنها نوع من الخطاب الجدي الخيالي الذي يسعى فيه المتكلم بطريقة واعية مقصودة إلى التعبير عن نواياه بطريقة غير مباشرة. مثال ذلك:

ـ إذا الموت اقترب، فلا رادَّ له.

ـ قال أبو ذؤيب الهذلي:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع[129]

فالجملتان تعبران عن المحتوى القضوي نفسه، ممثلا في وصف موعد اقتراب الموت الذي لا راد لأمره. ووجه الاختلاف بينهما يتجلى في كون

(129) الضبي أبو العباس المفضل «المفضليات» تحقيق عمر فاروق الطباع، دار الأرقم، لبنان، بيروت، ط1، 1998، ص 411.

المثال الأول يفصح عن هذا المعنى بطريقة تقريرية مباشرة، حيث تدل الكلمات على ما وُضعت له في أصل اللغة، ومن ثم يُقال إن القوة الإنجازية في هذه الحالة حرفية، في حين أن الشاعر يعمد إلى التعبير عن المحتوى القضوي نفسه بطريقة غير مباشرة، موظفا الاستعارة حيث شبه انقضاض الموت على الإنسان بانقضاض الحيوان المفترس على فريسته ليجهز عليها. والسبيل إلى إدراك هذه المعنى الإيحائي هو تأويل الملفوظ من خلال الانتقال من القوة الإنجازية الحرفية إلى القوة الإنجازية المستلزمة اعتمادا على ملاحظة التنافر الموجود بين مكونات الملفوظ.

في مقابل الخطاب التخييلي يلاحظ سورل أن الخطاب الكاذب يتصف بكونه غير خاضع لشروط التعبيرية أو لشروط المواضعة أو شروط القصد. لأجل ذلك لا يمكن اعتبار الكذب فعلا إنجازيا، بقدر ما يعتبره فعلا تأثيريا.

2.6 خلاصة:

رغم أهمية نظرية أفعال الكلام ودورها الريادي في مقاربة بعض قضايا اللغة من منظور جديد، إلا أنها لم تخل من نواقص. إذ لاحظ فليب بلانشيه أن المشكلة الأساسية التي تطرحها نظرية أفعال الكلام كما قدمها أوستن تتمثل في أنها لا تصنف أعمالا، بل تصنف أفعالا. ومعنى ذلك أنها تحلل الدلالة مع المعنى، مما جعل أوستن يقترح تصنيفات داخل العلامة اللغوية. ومثل هذه التصنيفات لا تقبل التعميم، بما أنها تستوجب التعديل كلما انتقلنا من لغة إلى أخرى.[130] إلى جانب ذلك تظل نظرية أوستن في فعل التأثير غامضة. فأوستن يشدد على أهمية القصد والأثر Uptake في كل قول نتلفظ به، وهو قصد خاص بالمتكلم، ويعمل المتلقي على تأويله حسب سياقات الكلام. وعندما يقول المتكلم "أعدك بالحضور" فإنه يفصح من جهته عن رغبته والتزامه بالحضور. لكن القصد إلى الفعل لا يحل معضلة الأفعال الكلامية. إذ لا فائدة ترجى من قولنا "ارحل" لشخص لا يدرك القيمة القولية لهذا

(130) فليب بلانشيه «التداولية من أوستن إلى غوفمان» مرجع سابق، ص63.

الفعل، كما لا فائدة ترجى من قولنا "أعدك" إذا لم يوجد مخاطب يتقبل الوعد[131]. ونستفيد من ذلك أن الفعل التأثيري ليس مرهونا دائما بمقاصد المتكلم، بل يتدخل فيه المتلقي من جهة، وإمكانية تحققه ضمن سياق كلامي من جهة أخرى. فضلا عما ذُكر يلاحظ فليب بلانشيه أن طموح نظرية الأفعال الكلامية الكلاسيكية مع أوستن وبعده سورل لوضع نمذجة كونية للأفعال الكلامية تضمن عيبا من حيث المبدأ يتلخص في التعارض بين النمذجة الكونية وبين الطابع الخاص والنسبي المميز للغات. وبالتاليف إنه يعسر أن يحصل الانسجام بين الهدف الكوني وبين النسبية التي يستدعيها أخذ السياق بعين الاعتبار.

ولا ينفصل هذا الحديث عما أشار إليه سرفوني في فصل "تعليقات انتقادات وامتدادات" . إذ أوضح أن علينا إدراك الاختلاف الحاصل بين "اذهب 'Parter' و "آمرك بالذهاب 'Je vous ordonne de partir ، بمجرد ما نقبل فكرة أن للملفوظ قوة تأثيرية. فالملفوظ "اذهب" يمكن أن يدل على أمر، أو التماس، أو نصيحة. . الخ. . إنه ملفوظٌ غامضٌ من ناحية قوّته التأثيرية. خلافا لذلك "آمرك بالذهاب" فهو من وجهة النظر هذه، ملفوظ صريح: إذ لا يمكنه أن يكون إلاّ أمراً. والأثر uptake هنا يضمنه الملفوظ نفسه.[132] ولا يقف الغموض عند هذا الحد فقط، إذ يمتد لأبعد من ذلك حين نفحص علاقة الملفوظات الإنجازية بما تدل عليه. فبالنسبة لسرفوني تسمية الشيء لا ترادف الدلالة عليه. ويمثل لذلك بالاستفهام، فحينما نسأل/ نسمي فعلا، فذاك لا يقتضي بالضرورة أننا نجز فعلا، بل هو مجرد سؤال أو استفهام. بموازاة ذلك يلاحظ سرفوني أن التحليل الذي قدمه أوستن للملفوظات الإنجازية لا يختلف عن التحليل الذي قدمه بيير نيكول ونيكول أرنولد في كتابهما 'منطق نحاة

(131) نفسه ص 61
وانظر كذلك:
-Cervoni Jean »l?énonciation linguistique «nouvelle Presses universitaires de Francé (puf) Paris,1987, p109.

(132) نفسه ص 111.

بورروبال'، وهو تحليل يعتبر أن الفعل "أعتقد أن" في جملة "أعتقد أن الأرض دائرية" هو المكون الرئيس في الجملة. لكن هذا التحليل غير صحيح، لأن الجملة الرئيسة هي "الأرض دائرية" أما الفعل "أؤكد" فليس سوى مكون عارض .Une Proposition Incidente كما أنه فعل لا يغير شيئاً لا من جهة المُسند ولا المُسند إليه، ولا يضيف شيئاً إلى الملفوظ، اللهمَّ إلا دلالة إضافية "للتوجيه التقريري .la Modalité assertive[133]

في سياق متصل حاول دان سبربر ولسن بيان بعض أوجه ضعف نظرية أفعال الكلام في صيغتها الأولية. وقد تمحورت سهام نقدهما حول بعض الجوانب منها: [134]

- موقفها المعارض للحقيقة. فقد توقفنا سلفا عند مسعى أوستن لمساءلة الفاسفة الإنجليزية، ودحض أسسها من خلال ما سماه بالإيهام الوصفي، مؤكدا أن الجمل لا تخضع لمعيار الصدق والكذب. وموقف أوستن من الحقيقة، إن كان مسوغا بالنسبة لبعض الجمل، إلا أن الملفوظات كلها لا تترتب عنها أفعال بالضرورة. ومن ثم فليست جميع الجمل حاملة لقوة إنجازية مستلزمة، أو أنها كلها عبارة عن قول يترتب عنه فعل.
- المظهر التواضعي والاتفاقي لنظرية أفعال الكلام في صيغتها الأولية. مع العلم أن التواضع والاتفاق لا سبيل إلى حدهما أو تدقيق دلالتهما، مادامًا مرتبطين بالمواضعات الاجتماعية السائدة، والأعراف المتداولة.

3 - نظرية الاستلزام الحواري Conversational implicature theory

1.3 غرايس والاستلزام الحواري:

اعتبرت الشروح التي قدمها غرايس لنظرية المحادثة مقدمة مهمة نحو انفتاح التداولية على حقل العلوم المعرفية، وهو انفتاح مهد الطريق لظهور

(133) نفسه ص 112 وما يليها لمزيد من الانتقادات لنظرية الأفعال الكلامية الكلاسيكية.

(134) انظر جاك موشلر وأن ربول «Dictionnaire Encyclopédique de la pragmatique» ص 53.

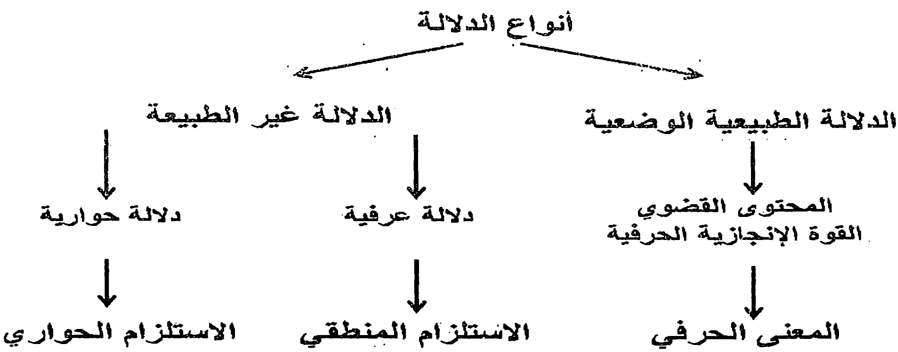
نظرية الملاءمة لدى سبربر وولسن على نحو ما سنوضح في المبحث الموالي. ويكفي أن نعمل النظر في القضايا التي أثارها غرايس، لنتوقف عند العناية الكبرى التي أولاها لقضايا الاستدلال، وهي قضايا أهملها منظرو التداولية، المنشغلون في مراحلها الأولى بالأفعال الكلامية. وكان من تبعات هذه العناية تمكن غرايس من بلورة تصورين منهجيين متكاملين لهما الأثر الكبير على سيرورة التأويل مدارهما حول القدرة على اكتساب حالات ذهنية من جهة، والقدرة على بناء استدلال محكم يحتاجه المتكلم لفهم الملفوظات داخل سياق كلامي معين من جهة أخرى.

وتتضح بعض معالم هذا المنزع التداولي الجديد في أبحاث بول غرايس المتعددة. فقد نشر مقالا في الدلالة (1957) The Meaning، وألقى بدوره محاضرات حول "فلسفة وليام جيمس" بجامعة هارفرد (1967)، كما توسع في توصيف العمليات الذهنية اللازمة لفهم الملفوظات وتأويلها في مقاله المشهور "Logic and Conversation"، [135] حيث نص على أن المتخاطبين عندما يتحاورون، فإنما يقبلون ضمنا بجملة من القواعد والمواضعات، وهي قواعد تحكم عمليات التواصل، وتوجه نحو نهايته الإيجابية، بعد سيرورة من الاستلزامات والاستنتاجات والتخمينات والافتراضات المسبقة الخفية. على هذا الأساس أضحى تأويل الملفوظات رهينا بثلاثة عوامل: معنى الجملة، والسياق (اللساني وغير اللساني)، علاوة على مبدأ التعاون.

فقد أوضح غرايس أن فهم الملفوظات وتأويلها أثناء عملية التخاطب لا يعتمد دائما على دلالتها الطبيعة التواضعية. ويتأسس هذا الحكم على ملاحظة استأثرت باهتمام غرايس تتمثل في دلالة الفعل To mean في الإنجليزية. إذ يرد بمعنى أشار ودلَّ تارة، ويأتي بمعنى قصد تارة أخرى. من هذا المنطلق عمل غرايس على التمييز بين نوعين من الدلالة هما الدلالة الطبيعية الوضعية والدلالة غير الطبيعية. والفرق بينهما يتمثل في كون الكلمات في الدلالة الطبيعية تدل على ما وضعت له في أصل اللغة، أي أنها تشير إلى الدلالة

المصرح بها، دون الحاجة إلى تأويل الملفوظ، إنها عبارة عن المحتوى القضوي للجملة في قوتها الإنجازية الحرفية. مثال ذلك "الدخان علامة على وجود النار". فالدخان يدل على وجود النار، وهذه الأخيرة توجد منفصلة عن تأويل كلمة دخان. أما في الدلالة غير الطبيعة فنلاحظ أن تأويل الملفوظات لا يتوقف عند حدود الدلالة اللغوية التواضعية للكلمات، بل يعتمد أساسا على قصد المتكلم ونواياه من جهة، وعلى فهم المخاطَب لهذه النوايا من جهة ثانية، وعلى سياق الكلام وقرائن الأحوال من جهة أخيرة. ومن ثم فإن فهم الملفوظ لا يمكن أن يكتمل دون محاولة المخاطَب بناء استدلال منطقي مقبول.

على هذا الأساس نستنتج أن هناك فرقا شاسعا بين دلالة الملفوظ، أي ما قيل أو ما صُرح به، وبين الاستلزام الحواري، أي ما تم تبليغه. ويضيف غرايس إلى هذين النوعين صنفاآخر سمّاه الاستلزام المنطقي التواضعي. ويمكن أن نوضح هذه الأنواع من خلال الرسم التالي:



ولتوضيح العلاقة بين أنواع الدلالة هذه يمكننا افتراض أن أستاذا يعتقد أن تلميذا من تلاميذه نجيب، وأنه يريد تبليغ هذا الاعتقاد إلى ولي أمره، فبإمكانه أن يصرح لولي الأمر بما يلي: "زيد نجيب" أو "زيد متفوق، إذاً فهو نجيب" أو "زيد متفوق، إنه نجيب". ففي الحالة الأولى يعبر الأستاذ عمّا يقصد تبليغه بطريقة مباشرة، ومن ثم فالدلالة تواضعية، والقوة الإنجازية حرفية لا تحتمل أي

معنى سوى الإخبار عن نجابة زيد. أما في الجلمة الثانية فيعبر الأستاذ عن معنييتعدى مايصرح به؛ فمادام زيد متفوقا على أقرانه، فذاك يعني أنه نجيب، ومن ثم فكل من تفوق دراسيا، وحاز الأولية سُمي نجيبا. وقد تحقق الاستلزام التواضعي من خلال توظيف الرابط "إذاً". وفي الحالة الأخيرة يعبر الأستاذ عن معنييتعدى ما يصرح به أيضا، إلا أن الاستلزام هذه المرة لم ينشأ تواضعيا أو منطقيا لغياب الرابط "إذاً".

3.2 مبدأ التعاون وقواعده/ مسلماته:

بالاستناد إلى المعطيات السالفة يتضح أن فهم الملفوظات وتأويلها لا يعتمد فقط على معنى الجملة والسياق سواء اللساني وغير اللساني، وإنما يرتكز أيضا على ما يبذله المتحاورون من مجهودات لإنجاح التواصل. وهو ما سماه غرايس "مبدأ التعاون" Cooperative Principle، وهو مبدأ يتأسس على أربع قواعد/ مسلمات حددها في ما يلي:

- قاعدة الكمية: Maxim of Quantity وترتبط بكمية المعلومات اللازم توافرها:
  - اجعل مساهمتك تتضمن أخبارا كافية.
  - لا تجعل مساهمتك تتضمن أخبارا أكبر مما هو مطلوب.

ويوضح غرايس أن هذه القاعدة الأخيرة يمكن تفنيدها لأن توافر كم كبير لا يخرق مبدأ التعاون، وإنما هو مضيعة للوقت فقط. فإذا تضمن نص ما تفاصيل كثيرة، فإن ذلك يهدد التواصل بالانسياق خلف بعض الجزئيات غير الضرورية.

- قاعدة الكيفية: Maxim of Quality وترتبط بقاعدة أساسية هي:
  - اجعل مساهمتك صادقة.

---

(135)–Grice H P «logic and conversation »In Syntax and semantics 3 speech arts, Cole and Morgan , 1975, pp 41-58.

وتتفرع عن هذه المسلمة قاعدتان خاصتان هما:

- لا تصرح بما تعتقد أنه كاذب.
- لا تصرح إلا بما تستطيع البرهنة عليه.

■ قاعدة الملاءمة Maxim of Relevance أو العلاقة: Relation

■ اجعل مساهمتك ملائمة Be relevant.

يؤكد غرايس أن هذه المسلمة تخفي جملة من الإشكالات من قبيل: ما هي مختلف أصناف الملاءمة الممكنة؟ كيف تتعدل خلال عملية التبادل الكلامي؟ وما هي الإجراءات الطبيعية التي تساعد على تغيير موضوع المحادثة بطريقة مقبولة؟

■ مسلمة الجهة: Maxim of Manner وهي مسلمة تختلف عن المسلمات السابقة في كونها لا تُعنى بما قيل، وإنما بكيفية التعبير عما ننوي التعبير عنه. وينص غرايس على وجود قاعدة جوهرية هي:

■ كن واضحا Be perspicuous. وتتفرع عن هذه المسلمة القواعد التالية:

- ليكن تدخلك واضحا.
- ليكن تدخلك موجزا.
- اجتنب الغموض.
- اجتنب الالتباس.(136)

وقد أوضح غرايس أن الغاية المرجوة من هذه المسلمات تتمثل في ضمان فعالية عالية للتبادل الكلامي، دون أن يلغي ذلك إمكانية الحديث عن غايات

(136) مقال سابق «logic and conversation» ص 47 حيث يوضح غرايس أن هناك قواعد أخرى مرتبطة بالمواضعات الاجتماعية والجمالية والخلقية من قبيل ضرورة تحري الأدب أثناء المحادثة بقوله:

"There, of course, all sorts of other maxims(aesthetic, social ,or moral, in character) such as "be polite", that are also, normally observed by participants in talk exchanges, and these may also generate nonconventional implicatures".

أخرى، كأن يسعى المتكلم للتأثير على الآخرين أو الاستئثار باهتمامهم.

أما ظاهرة الاستلزام الحواري فتنتج عن خرق إحدى المسلمات الأربعة، وعدم احترام مبدأ التعاون، كأن يقصد المتكلم عمدا خرق المسلمات أو القواعد الأربعة، أو أن يرفض مسايرة الحوار معبرا عن ذلك بقوله إن شفتيّ قد زُمتا، أو أن تتعارض قاعدتان (قاعدة الكمية والكيفية مثلا). ويقدم غرايس بعض الأمثلة على ذلك:

مثال 1: حيث لم يخرق المتكلم أي قاعدة، أو على الأقل لم يخرقها بطريقة صريحة:

"س" يقف بجانب سيارة متوقفة، "ج" يقترب منه، وينشأ بينهما الحوار التالي:

- "س": أنا بحاجة إلى البنزين.

- "ج": هناك مرآب في آخر الشارع.

"ج" يخرق قاعدة الملاءمة إذا لم يفكر أو لم يضع في حسبانه أن يكون المرآب مغلقا، وأنه لا يبيع البنزين. ومن ثم فإن "ج" يفترض أن المرآب مفتوح، أو أنه من المحتمل أن يكون كذلك.

مثال 2: حيث يخرق المتكلم قاعدة الكيفية، لكن هذا الخرق يجد تفسيره في تعارض قاعدتين:

"س" و"ج" يسافران، معا يعرفان أن "س" ينوي زيارة صديقه "د" شريطة ألا تطيل هذه الزيارة مدة سفرهما.

- "س": أين يقطن "د"؟

- "ج": في مكان ما وسط باريس.

فلا مجال هنا لافتراض أن "ج" يرفض الزيارة، لأنه على علم بأن جوابه لا يتضمن معلومات كافية، تشفي غليل "س". وخرق مسلمة الكمية يمكن تفسيره إذا افترضنا أن "ج" يعلم أن إعطاء مزيد من المعلومات سيكون خرقا

أيضا لمسلمة الكيفية التي تنص على ألاّ تصرح إلا بما تعتقد أنه صحيح. لذلك فإن "ج" يضمر كونه لا يعلم أين يسكن "د".

مثال 3: لم يكتف غرايس بتحليل الخطابات اليومية العادية، وإنما وسع دائرة اهتمامه لتشمل الخطابات الأدبية التخييلية، معتمدا على مسلماته الأربعة، حيث أوضح أن المتكلم يخرق قاعدة الكيفية عندما يعمد إلى السخرية Irony أو الاستعارة Methaphor أو المبالغةHyperbole(137)

مثال ذلك:

على المحيط يستريح الثلج
والسكوت
تسمّر الموج على الرمال
والريح زورقٌ
بلا رجال(138)

ففي هذا المثال يخرق الشاعر أحمد المعداوي المجاطي قاعدة الكيفية التي تنص على أن نجعل مساهمتنا صادقة، وأن نمتنع عن التصريح بما نعتقد أنه كاذب أو لا نستطيع البرهنة عليه. ويتجلى خرق قاعدة الكيفية في إسناد الفعل استراح إلى الثلج، والفعل تسمّر للموج، وهما فعلان يتضمنان في بنيتهما الدلالية الداخلية قابلية توزيعها مع فاعل حي، لكن الشاعر أسند الفعلين لاسمين يفتقران لصفة الحيوية والحركية، مما ولد تنافراً بين مكونات السطر الشعري، ومن ثم يكون التعبير متضمنا لقوة إنجازية مستلزمة مدارها حول تشخيص حالة السكون والعدمية التي تحيط بالشاعر.

استنادا إلى ما سلف يتضح أن عملية التخاطب بالنسبة لغرايس تحكمها

---

(137) نفسه، ص 53 لمزيد من التفصيل.

(138) المجاطي المعداوي أحمد ديوان «الفروسية» المكتبة الإبداعية، شركة النشر والتوزيع المدارس، ط2، 2001، ص 23.

مجموعة من النوايا والمقاصد، وهي مقاصد غير صريحة ولا معلنة بين المتخاطبين، كما تحكمها خلفية معرفية مشتركة تجعل عملية التواصل بينهم مستحيلة في ظل غياب جملة من الشروط التمهيدية. لكن هذه المقاصد لا توجه التواصل دائما، لأننا في مناسبات كثيرة نتجاوز القصد الذي نرمي إليه، وربما نعبر عن أمور لا نقصدها.(139)

وإذا كان غرايس قد سخر مبدأ التعاون، وما يتولد عنه من قواعد لتحليل التواصل الإنساني، وكشف أبعاده، فإن ذلك لم يحل دون الاعتراض على بعض منطلقاته. فمن الملاحظ أن هذا المبدأ موجه لخدمة الجانب التبليغي من الخطاب، لكنه يغض الطرف عن الجانب التهذيبي. ورب معترض يسوق ما صرح به غرايس حين قال: "هناك بطبيعة الحال مختلف القواعد/المسلمات الأخرى (الجمالية، أو الاجتماعية، أو الخلقية) مثل "لتكن مهذبا" التي تُلاحظ عادة لدى المتخاطبين أثناء التبادل الكلامي والتي قد تولد معاني غير متواضع عليها". لكن هذا التصريح لا ينفي الإهمال الذي طال الجانب التهذيبي، وذلك للأسباب الآتية:(140)

- أنه لم يفرده بالذكر، بل جمع إليه الجانب التجميلي والجانب الاجتماعي بوصف هذه الجوانب جميعا لا تستجيب للغرض الخاص الذي جُعل للمخاطبة، ألا وهو نقل الخبر على أوضح وجه.
- أنه لم يبين كيف يمكن أن نباشر وضع القواعد التهذيبية، ولا كيف يمكن أن نرتبها مع القواعد التبليغية.
- أنه لم يتفطن إلا أن الجانب التهذيبي قد يكون الأصل في خروج العبارات عن إفادة المعاني الحقيقية أو المباشرة.

---

(139) توسع التداوليون في تحليل ظاهرة الاستلزام الحواري من خلال التمييز بين مظهرين هما الافتراض المسبق والأقوال المضمرة. انظر مثلا :

–Ducrot Oswald «le dire et le dit», Paris, Editions de Minuit, 1984, pp171-233.

-Orracchioni Catherine Kerbrat «L'implicite«, Paris, Armand Colin,1986.

(140) طه عبد الرحمان «اللسان والميزان أو التكوثر العقلي»، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1998، ص 240.

وإذا كان الجانب التهذيبي لم يحظ باهتمام غرايس، فإن جهود الباحثة روبن لاكوف قد مكنت من إلقاء الضوء عليه من خلال وقوفها بتفصيل عند "مبدأ التأدب" .

3.3 مبدأ التأدب وقواعده:

انطلقت الباحثة الفرنسية روبن لاكوف من حديث غرايس المقتضب عن التهذيب المفترض إظهاره أثناء التفاعلات الكلامية، لتتوسع في دراسة ظاهرة التأدب. ويمثل مبدأ التعاون كما قدمناه سلفا حجر الزاوية في هذه الدراسة. فمن الملاحظ أن روبن لاكوف في دراساتها المختلفة(141) لم تحد عن المبادئ العامة للنموذج الغرايسي، لكنها أولت عناية كبرى لمظاهر التأدب المصاحبة للتفاعلات الكلامية بين المتكلمين والمخاطَبين، وهي تفاعلات تؤثر فيها عوامل خارجية وأخرى داخلية. فالمسافة الاجتماعية بين المتحاورين تحكمها القيم والمواضعات الثقافية السائدة مثل السن والمكانة. .(142)، كما تحكمها عوامل داخلية لها ارتباط بمقدار الإكراه ودرجة الصداقة. مما يجعل التفاعل يتأثر زيادة ونقصانا خلال التبادل الكلامي.

---

(141) انظر على سبيل الذكر:

--Lakoff Robin (1973) «The logic of Politeness or, Minding your P?s and QÅ's »In Papers from the Ninth Regional Meeting Chicago Linguistic Society, Chicago, pp 292-305.

- Lakoff, Robin (1975) «Language and Women's Place», New York: Harper and Row.

- Lakoff, Robin (1977) «What you can do with words: Politeness, pragmatics and performatives», In: R. Rogers, R. Wall and J. Murphy (eds.) Proceedings of the Texas Conference on Performatives,Presuppositions and Implicatures. Arlington, Va.: Center for Applied Linguistics, 79-106.

- Lakoff, Robin (1989) «The limits of politeness», Multilingua 8, 101-129.

-Lakoff, Robin T. and Sachiko Ide (2005) «Introduction. Broadening the horizon of linguistic politeness», In: Robin T. Lakoff and Sachiko Ide (eds.) Broadening the Horizon of Linguistic Politeness, Amsterdam, john Benjamins, 1-20.

(142) يول جورج مرجع سابق «Pragmatics» ص59.

وإذا كان من الجائز النظر إلى ظاهرة التأدب بوصفها تجسيدا للسلوك الاجتماعي المهذب في ثقافة ما، فبالإمكان أيضا تعداد جملة من المبادئ التي تجعل الفرد مهذبا في ثقافة مخصوصة.[143]

3.3.1 مبدأ التأدب عند روبن لاكوف:

بالوقوف عند الغايات المرجوة من التوسع في دراسة ظاهرة التأدب يتضح أن روبن لاكوف رمت تبديد الاختلاف الذي يطفو على السطح خلال التفاعلات الشخصية، فاعترفت بأن ذلك يستدعي تطعيم مبدأ التعاون ذي المنزع التبليغي الخطابي بمبدأ آخر ذي طابع تهذيبي أطلقت عليه مبدأ التأدب Politeness principle. ويأتي هذا الاعتراف متساوقا مع تأكيدها على أن المتخاطبين في تبادلاتهم الكلامية يحرصون غالبا حرصا شديدا على الالتزام بقدر كبير من الأدب والبعد عن العدوانية أكثر مما يتوخون الوضوح[144]. وينبني مبدأ التأدب عند لاكوف على قاعدتين هما:

- كن واضحا (Be Clear).
- كن مؤدبا (Be Polite)

فالقاعدة الأولى تنهل من مبدأ التعاون، ومن قواعده الفرعية أو مسلماته. بيد أن لاكوف تؤكد أن هذا المبدأ يستبطن في جوهره ما يدل على التأدب. إذ إن انخراط الأفراد في التفاعلات الكلامية يحتم على المتحاورين حمل خطابهم نحو خاتمته الإيجابية، وهو ما يفرض عليهم التأدب بمجوعة من الآداب حددتها الباحثة من خلال القاعدة الثانية التي تتألف من ثلاث قواعد فرعية تتمثل في:

- لا تفرض نفسك: Don't impose وفحوى هذه القاعدة أن على المتكلم تجنب كل العبارات التي تعطي الانطباع بأنه يكره المخاطَب أو يلزمه بقول أو فعل

(143) نفسه ص 60.
(144) روبن لاكوف «The logic of politeness or, Minding yours P's and Q's»، ص 297.

ما ضداً عن إرادته. مثال ذلك:

سأجتاز هذا الامتحان غصبا عن الجميع.

ففي هذا المثال نلاحظ أن المتكلم يخرق مبدأ التأدب، على اعتبار أنه يعمد إلى صيغة للحديث تستبطن مقدارا من الإكراه والغصب، ومن ثم فإنه لا ييسر عملية التواصل، وإنما يوجهها صوب المواجهة والتحدي.

ـ قدّمْ خيارات: Give options وهذه القاعدة الفرعية لا تنفصل عن سابقتها، إذ تنص في جوهرها على ضرورة إتاحة مجال رحب من الخيارات بدل حصر المخاطَب في لائحة محدودة من الإمكانيات، وذلك بتوظيف عبارات تؤشر على أن المتكلم لا يقيد المخاطب، ولا يلزمه بأمور دون أخرى، وإنما يترك له الفرصة ليقرر بنفسه. مثال ذلك:

هناك عمل كبير ينتظرك، وأرجو أنتحسن تدبير أمرك.

فما يميز مثل هذه التعابير هو أنها خالية من أي إكراه. إنها تذكر المخاطَب بحجم المسؤولية الملقاة على عاتقه دون أن تفرض عليه إنهاء العمل في وقت معلوم، لأن ذلك قد يكون عامل ضغط وإكراه.

ـ أظهرْ الود: Make a feel good وملخص هذه القاعدة الفرعية أن على المتكلم إظهار الود، والبعد عما قد ينفر المخاطَب منه من خلال عبارات وجمل تفصح عن التقدير والاحترام والصداقة. مثال ذلك:

ـ من فضلكم انتبهوا للدرس.

فالانتباه للدرس ضرورة، لكن تنبيه الغافلين عنه يكون بأبلغ طريقة حينما يمزج المتكلم بين الرغبة في الإقناع، واستثمار ممكنات الخطاب بأفضل طريقة متاحة، بعيدا عن كل التعابير السلطوية المستفزة التي قد تنفِّر المخاطبين عن الانتباه أكثر مما تجذبهم لمتابعة الدرس.

ويمكن أن نجمل المبادئ السالفة من خلال الخطاطة التالية:

الكفاية التداولية
قواعد التأدب

كن واضحا مبدأ التعاون لغرايس	كن مهذبا مبدأ التأدب للاكوف
ـ مسلمة الكيفية. ـ مسلمة الكمية. ـ مسلمة الملاءمة. ـ مسلمة الجهة.	ـ لا تفرض نفسك. ـ قدّمْ خيارات. ـ أظهرْ الوّد.

ومن حسنات دراسات روبن لاكوف المشار إليها آنفا تسليطها الضوء على ظاهرة التأدب، وإتاحتها الفرصة ليغدو هذا المبحث مجالا خصبا للدراسات التداولية، الطامحة لتحليل التفاعلات الكلامية والاستعمالات اللسانية على نحو ما تشهد على ذلك بحوث براون وليفنسون (1978 و1987 Brown & Levinson) وليتش (1983 Leech).

2.3.3 مبدأ التأدب عند براون وليفنسون:

لقد أتاح الباحثان براون وليڤنسون انتشار مفهوم التأدب وتداوله على نطاق واسع، كما أضحى تصورهما مؤثرا بالنظر للمراجعات والانتقادات والتصويبات والتطبيقات التي تعرض لها. ومن الملاحظات التي تستأثر باهتمامنا أن تصورهما لظاهرة التأدب لا يخرج عن الإطار العام للنموذج الغرايسي، إذ يقران بأن مسلمات مبدأ التعاون تعتبر مطيّة لبلوغ الغاية القصوى من فاعلية التواصل.[145] وهي فاعلية غير منفصلة عما يفصح عنه المتحاورون من تهذيب. كما يعترفان بأن التبادل الكلامي يفترض وجود قدر مهم من العنف والعدوان aggression، الناجم عن اختلاف وجهات النظر

(145)-Brown and Levinson «Politeness: some universals in language usage» Cambridge university Press, 1987, p 95.

وتباينها، غير أن التأدب يروم التقليل من حدته وتجريده من فاعليته حتى يغدو التواصل ممكنا بين طرفي الحديث.[146] ومن هذا المنظور يتضح أن التأدب يحضر في التواصل باعتباره فعلَ إصلاحٍ وموازنة وحفاظ على ما يشوب الوجه من تهديد.

ولتحليل ظاهرة التأدب استثمر الباحثان مفهومين محوريين هما الوجه والمعقولية. فالوجه The Face من منظور براون وليفنسون يحيل إلى الإحساس الفردي أو الصورة الشخصية العامة التي يحاول المتكلم نشرها في النسيج الاجتماعي المحيط به.[147] وهي صورة يمكن تخريبها أو الحفاظ عليها، أو تحسينها، بناءً على طريقة التعامل مع الوجه، وهو تعامل ينقسم إلى فعل تهديد الوجه Face-threatening act، وفعل الحافظ على الوجه.Face-saving act فخلال التفاعل الاجتماعي اليومي يتصرف الأفراد على أساس أن التوقعات المتعلقة بصورتهم الشخصية العامة ستُحترم،فإذا عبر المتكلم عما يمثل تهديدا لتوقعات الآخرين في ما يتصل بصورتهم الشخصية، فإن ذلك يوصف بأنه فعل تهديد للوجه.[148]

ويوضح الباحثان براون وليفنسون أن الوجه يتخذ مظهرين: الوجه الإيجابي والوجه السلبي. فالوجه الإيجابي يعكس سعي المتكلم نحو جلب احترام الآخرين وتقديرهم وقبولهم. أما الوجه السلبي فيرادف الحاجة إلى الاستقلالية والتصرف بحرية بعيدا عن كل إكراه يفرضه الآخرون[149]. بصيغة أخرى إن الوجه الإيجابي هو الحاجة للاتصال مع الآخرين، في حين أن الوجه السلبي يرتبط بحاجة المتكلم إلى الحرية والاستقلالية. ومن ثم فإن مفهوم الوجه يظل في ارتباط شديد مع المسافة الاجتماعية بين المتحاورين.

وليس الوجه هو الفاعل الوحيد في عملية التفاعل بين المتحاورين، إذ

(146) نفسه ص 1.
(147) نفسه ص 61.
(148) يول جورج مرجع سابق «Pragmatics» ص 61.
(149) براون وليفنسون ص 62.

يستحضر الباحثان أيضا خاصية المعقولية Rationality ويراد بها الملكات الذهنية المخصوصة التي يشغلها المتحاورون أثناء التفاعل الكلامي، وهي ملكات من المفترض أن تحققالتناغم بين طريقة التفكير والغايات المراد الوصول إليها. وتتجلى المعقولية في قدرة الذهن على توجيه مختلف المعاني وجهة إيجابية، واختيار المعنى الأكثر ملاءمة للأهداف المرجوة.

في سياق متصل يؤكد براون وليفنسون أن الوجه يتعرض للتهديد Face-threats، وهو تهديد مرتبط بالمسافة الاجتماعية بين المتكلم والمخاطَب، ومرتبط أيضا بالمنزلة التي يحتلها المخاطَب، وأخيرا بما تفرضه الثقافات. أما التأدب فيتدخل في التواصل باعتباره فعل إصلاحٍ وموازنة لما يشوب الوجه من تهديد. وقد اقترح براون وليفنسون خمس خطط أو توجهات عامة تترابط نسقيا مع درجة التهديد[150]:

- الإستراتيجية الأولى: الإحجام عن التعبير Say Nothing ففي وضعيات تواصلية معينة يكون الإضراب عن التعبير أبلغ من التعبير. وقد صرح عبد القاهر الجرجاني رحمه الله في باب الحذف "أنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تُبِنْ"[151]. ومثال ذلك أن يكون القارئ مثلا منهمكا في القراءة، فيدرك أنه بحاجة إلى قلم، لكنه لا يتوافر عليه، فإذا به يبحث عنه عند أحدهم، وبدل التوجه نحوه بالكلام يشرع القارئ في التفتيش بحقيبته دون أن ينبس ببنت شفة، على أمل أن ينتبه جليسه، فإذا استجاب الجليس كان ذلك أبلغ في التعبير دون الحاجة إلى الكلام.
- الإستراتيجية الثانية الامتناع عن التعبير Off Record: حيث يحجم المتكلم عن التعبير، ويكتفي بالتلميح والتعريض، كأن يصرح القارئ الراغب في

---

(150) نفسه ص 91..

(151) عبد القاهر الجرجاني «دلائل الإعجاز» قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1989، ص 146.

الحصول على قلم بأنه نسيه، دون أن يتوجه لجليسه مباشرة. وفي ذلك دعوة مبطنة إلى تمكينه من القلم.

- الإستراتيجية الثالثة التعبير الصريح: Bald on Record فنحن نفصح عن حاجاتنا بصورة مباشرة، كما هو الحال في الحالات الطارئة، بصرف النظر عمن نتوجه إليه بالخطاب مثال ذلك: "انصرف"، ومثل هذه التعبيرات من المحتمل أن تليها عبارات من قبيل من فضلك، رجاءً للتخفيف من قوتها وتهديدها.

ويوضح الباحثان أن إستراتيجية التعبير الصريح تجعل المتكلم لا يبذل أي جهدٍ للتخفيف من حدة التهديد، والإحراج والتضايق. إلا أن هذا النوع يظل شائعا بين الأفراد الذين يعرفون بعضهم البعض جيدا، فيرفعون الكلفة بينهم، ولا يقيمون للمسافة الاجتماعية بينهم أيّ اعتبار.

- الإستراتيجية الرابعة فعل الحفاظ على الوجه الإيجابي: ففي التأدب الإيجابي يلتزم المتكلم بالحفاظ على الوجه من خلال الإقدام على طلب القلم بطريقة ودية ومهذبة، كأن يصرح:

ـ المرجو منكم إعارتي قلمكم لهنيهة.

حيث يبالغ المتكلم في إظهار الود والتأدب.

- الإستراتيجية الخامسة فعل الحفاظ على الوجه السلبي: ويتحقق ذلك من خلال طلب القلم دون مبالغة في إظهار الود والتأدب، بأن يتساءل المتكلم مثلا:

ـ ألاتعرني قلمك لهنيهة.

وفي النموذج التالي توضيح للإستراتيجيات التي بمقدور المتكلم إتباعها للحصول على القلم:

ورغم أهمية التحليل الذي قدمه براون وليفنسون لظاهرة التأدب، وانشغالهما بكشف أبعادها التداولية، إلا أن ذلك لم يجنبهما انتقادات جملة

من اللسانيين. فماير على سبيل التمثيل شكّ في التمييز بين التأدب الإيجابي والتأدب السلبي، وأصل هذا المشكل أن الباحثيْن براون وليفنسون صنفاً العديد من أفعال الحفاظ على الوجه باعتبارها تهديدا للوجه السلبي والإيجابي[152] ومعناه أن براون وليفنسون ينصان على أن الدافع وراء التفاعل الكلامي يتمثل في تلطيف التهديد الذي يتعرض له الوجه، لذلك يعمد المتكلم إلى استراتيجية معينة من الاستراتيجيات السابقة ليوجه حواره مع الآخر نحو خاتمته الإيجابية: غير أن السؤال الذي يفرض نفسه هل يمكن اعتبار كل فعل كلامي يستبطن في ثناياه تهديدا للوجه؟ ألا يعتبر الالتزام بمبدأ التأدب أصلا ملازما لكل عملية تخاطب وتفاعل كلامي؟

علاوة على ذلك دافع براون وليفنسون عن كونية مبدأ التأدب. فقد أكدا أن المتخاطبين يتقاسمان معرفة كونية مشتركة بينهما،[153] كما أقرّا بأن لكل فرد وجها يسعى للحفاظ عليه. ومعناه أن الوظيفة الأساس في اللغات والثقافات كلها هي الحاجة إلى الحفاظ على وجه الآخر، دون نفي إمكانية تخريبه أو تجميله.[154] وإذا كان براون وليفنسون قد استلهما مفهوم الوجه من جوفمان(1965) فإن سعيهما لإضفاء الكونية عليه، وعلى مبدأ التأدب يصطدم بصعوبات مرتبطة باختلاف الثقافات وتباينها. فمن المعلوم أن لكل لغة تعابيرها الدالة على التأدب، ومن ثم كونية هذه الظاهرة، لكن سبل التعبير عنها وسياقات استعمالها تظل رهينة بالخصوصيات الثقافية، هذا ما يجعل العلاقة بين المتحاورين لا تتخذ منحى واحدا. فتكون ــ في بعض الأحيان ــ ذات طابع تمجيدي تبجيلي كما في الثقافات الشرقية[155]، وبالتبعية فإن المسافة الاجتماعية بين المتحاورين من حيث القرب والبعد تختلف في هذه الثقافات عن نظيرتها الغربية.

(152) Meier A.J «Passages of Politeness», Journal of Pragmatics 24, 1995, p384.

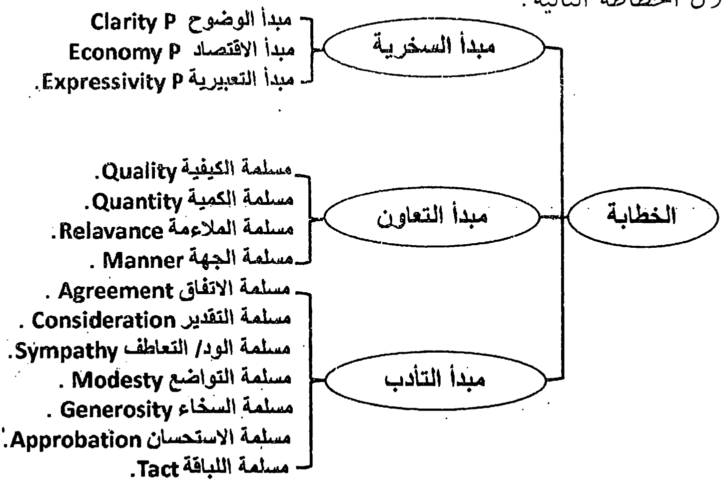
(153) براون وليفنسون مرجع سابق «Politeness: some universals in language usage»ص 244.

(154) نفسه ص 61.

(155) استأثرت ظاهرة التأدب باهتمام عدة دارسين في الثقافة الشرقية الأسيوية، ونخص بالذكر:

3.3.3 مبدأ التأدب عند ليتش:

لا يعول ليتش على الكفاية التداولية كما فعلت لاكوف، وإنما تنبني مقاربته اللسانية لظاهرة التأدب على سعيه لبناء نموذج للتداولية العامةذات منزع خطابي، تأخذ بعين الاعتبار كيفية استعمال اللغة في التواصل. وقد عرف ليتش التأدب على أنه يشمل مختلف أصناف السلوك التي تجلب أرقى المنافع للمتكلم والمستمع على حد السواء، بأقل جهد ممكن لهما معا.(156) وقد اقترح ليتش التمييز بين نسقين خطابيين أحدهما نصي Textual والآخر بيشخصي Interpersonal فالخطابة النصية المرتبطة بمبدأ السخرية تتألف من مبادئ فرعية كمبدأ الوضوح ومبدأ الاقتصاد ومبدأ التعبيرية. أما الخطابة البيشخصية فتتكون من عدة مبادئ منها مبدأ التعاون ومبدأ التأدب. على هذا الأساس يمكن أن نجمل نموذج ليتش لدراسة ظاهرة التأدب المتحكمة في التفاعلات الكلامية من خلال الخطاطة التالية:(157)



-Mao, LuMing Robert «Beyond Politeness Theory: Face Revisited and renewed», Journal of Pragmatics 21,1994, pp 451-486.

-Matsumoto, Yoshiko «Reexamination of the Universality of Face: Politeness Phenomena in Japanese», Journal of Pragmatics 12,1988, pp 403-426.

(156) Leech Geoffrey «Principles of Pragmatics», London: Longman, 1983, p104.

(157) نفسه ص 67.

وينبني نموذج التأدب عند ليتش على ثنائية جوهرية مدارها حول الجهد-الفائدة Cost-Benefit، وهي ثنائية غير منفصلة عن طرفي الخطاب: المتكلم والمخاطَب. فالتأدب يقتضي التقليل من الجهد، وزيادة الفائدة لحدها الأقصى لدى المخاطَب أو السامع. ويتجلى هذا المنظور من خلال الوقوف عند صياغة مسلمات التأدب عند ليتش:

- مسلمة اللباقة تقتضي:
  - ـ ليقلل المتكلم من الجهد للحد الأدنى.
  - ـ ليستفد المستمع للحد الأقصى.
- مسلمة التواضع تقتضي:
  - ـ ليقلل المتكلم تمجيده وإطراءه لذاته للحد الأدنى.
  - ـ ليستفيد المستمع من الإطراء والتمجيد للحد الأقصى.
- مسلمة التعاطف تقتضي:
  - ـ ليقلل المتكلم نفوره من المخاطب للحد الأدنى.
  - ـ ليرفع المتكلم تعاطفه مع المخاطب للحد الأقصى.
- مسلمة التقدير ومسلمة الاستحسان وتقتضيان:
  - ـ ليقلل المتكلم من امتعاض المخاطَب للحد الأدنى.
  - ـ ليرفع المتكلم من رضا المخاطب للحد الأقصى.
- مسلمة السخاء وتقتضي:
  - ـ ليقلل المتكلم من الفائدة الشخصية للحد الأدنى.
  - ـ ليرفع المتكلم الفائدة للحد الأقصى.

ويؤكد ليتش أن الهدف الأسمى من مبدأ التأدب يتمثل في صون مشاعر الجماعة ضمن المجموعة الاجتماعية، ذلك أن هذا المبدأ يضبط التوازنات

الاجتماعية وروابط الصداقة بكيفية تبدو معها عباراتنا تعاونية[158] ومن هذا المنظور أوضح ليتش أن العبارات الموظفة في التفاعلات الكلامية تستبطن درجات مختلفة من التأدب، قسمها إلى وظائف إنجازية هي: الوظيفة التنافسية الوظيفة الصراعية الوظيفة الترفيهية الوظيفة التشاركية/ التعاونية[159].

3.4 خلاصة:

تفضي بنا المباحث السالفة إلى خلاصة عامة مفادها أن التداولية في محطتها الأولى ارتبطت بحقبة الخمسينات وما تلاها، حيث انشغل الجيل الأول من التداوليين، خاصة أوستن وسورل، بالأفعال اللغوية، وقبل ذلك رصد موريس الطابع التدوالي للإشاريات. أما دراسة غرايس للاستلزامات الحوارية فمهد الطريق لانفتاح التداولية على حقول معرفية مختلفة مثل الذكاء الاصطناعي والبرمجة اللغوية العصبية وعلم النفس المعرفي، وهو انفتاح استتبعه تغيير بوصلة الاهتمام من الأفعال الكلامية والإشاريات إلى الحجاج والاستدلال على نحو ما تشهد على ذلك ثلاث نظريات مؤثرة في الدراسات التداولية هي نظرية الملاءمة مع سبربر وولسن، ونظرية الحجاج مع ديكرو، ونظرية المجموعات الدلالية مع ماريون كاريل.

وإذا كنّا قد استفذنا الحديث عن المحطة الأولى في المبحثين السالفين، فقد آن الأوان لنخوض غمار المحطة الثانية، والأمل يحذونا للاقتراب من مبحثين تداوليين مهيمن استأثرا بالاهتمام خلال ثمانينات القرن العشرين، وما زالا يشغلان التداوليين إلى حدود الآن، يتعلق الأمر بنظرية الملاءمة من جهة ونظرية الحجاج، وامتداداتها الدلالية من جهة أخرى.

(158) نفسه ص 82.
(159) نفسه ص 104.

4 - نظرية الملاءمة مع سبربر وولسن: Relevance theory

1.4 العلوم المعرفية، لمحة موجزة:

شهد العالم خلال خمسينات القرن العشرين ثورة معرفية متعددة الأبعاد والاتجاهات، أسهمت فيها عدة عوامل. ففي مجال اللسانيات على سبيل الذكر دشن شومسكي حقبة جديدة بإقباله على دراسة الكفاية اللسانية، وتخليه عن تحليل المتون اللغوية بذريعة تعددها وتنوعها وصعوبة حصرها. كما عرفت العلوم المعرفية تطورا هائلا، خاصة بعد ثورة الاتصال والإعلام من جهة، وازدهار الذكاء الصناعي والبرمجة العصبية من جهة أخرى. وبالتالي لم يعد يُنظر إلى التواصلعلى أنه نشاط بسيط يتوخى نقل الإرسالية، وإنما هو عملية بناء مستمرة خلال التخاطب[160]. وبالمثللم يعد الفكر مجرد خزان للمعارف والمعلومات، بل هو بنية معقدة وشبكة مترابطة من المكونات.

وانسجاما مع التحولات المعرفية المواكبة لخمسينات القرن العشرين أضحى من الضروري بلورة مقاربة جديدة لتحليل اللغة. وقد مهدت تحليلات غرايس لظاهرة الاستلزام الحواري لهذا التحول. إذ اتضح جليا أن نظرية أفعال الكلام كما قدمها أوستن ذات مظهر عُرْفي/ تواضعي conventionnel aspect، تفترض وجود عرف وتواطؤ بين أفراد العشيرة الكلامية على دلالات الملفوظات، وهو تواطؤ يتيح لهم الانتقال من جملة مثل "سأتي غدا" إلى "أعدك بالمجيء غدا"، بل إن تحديد المحتوى القضوي للعبارات غير منفصل عما تواضع عليه الأفراد. في مقابل ذلك انشغل غرايس بموضوع الاستدلالات inferences التي ينجزها المتكلمون لفهم الملفوظات وتأويلها ضمن سياقات كلامية مخصوصة، مؤكدا أن التواصل ليس رهين نظام عرفي، وإنما يحتاج لنظام آخر ذي طبيعة استدلالية. وقد جاء مبدأ التعاون والقواعد/المسلمات الأربعة للمساهمة في بناء هذا النظام من خلال الانشغال بوصف السيرورات الذهنية المصاحبة لإنتاج الملفوظات وتأويلها.

(160) Anne Reboul «La pragmatique à la conquête de nouveaux domaines la référence »in l?information grammaticale 66,1995, p 34.

بيد أن الطموح لتجاوز التصور الترميزي تجسد في أوضح صوره مع علم النفس المعرفي الذي قدم نظرية معرفية تعتبر ثورة في دراسة بينة الذهن البشري تعرف بنموذج معالجة المعلومات Information Processing Model. وهذاالنموذج يؤكد أن التواصل البشري ليس مجرد استجابة لمثير كما هو الحال مع النظرية السلوكية، وإنما هو تتويج لسلسلة من العمليات الذهنية المفضية إلى إدراك معنى الدليل وتأويل معناه. وحال الذهن في ذلك كحال الآلة. فالحاسوب أو الهاتف مثلا يلتقطان مدخلات Inputs (إشارات، أوامر...) تُعالج على مستوى مركزي (ذاكرة) بناء على معلومات مخزنة سلفا، لتترتب عن ذلك مخرجات Outputs معينة. ومن ثم فإن الشبه كبير بين طريقة اشتغال الدماغ والآلة، وليست هذه الأخيرة سوى محاكاة لما يقوم به الذهن البشري.(161)

واستجابة لما وصلت إليه الأبحاث في ميدان الذكاء الصناعي تبلور في عدة حقول كاللسانيات وعلم النفس المعرفي... مفهومان كان لهما الأثر الكبير في مقاربة الظواهر اللغوية هما الحوسبة computation والقالبية modularity.

2.4 القالبية والحوسبة:

لئن كان مفهوم القالبية قدذاع وانتشر مع ازدهار علم النفس المعرفي والذكاء الاصطناعي، فإن ذلك لا يضفي عليه البتة صفة الجدّة. فقد بيَّن فرانز جوزيف غال Franz Joseph Gall خلال القرن التاسع عشر(162) أن الملكات الذهنية الفردية يمكن أن تترابط مع مناطق مخصوصة من الذهن البشري. ومعناه أن لكل ملكة من الملكات رقعة تشغلها. إلا أن الفضل في صقل مفهوم القالبية يُنسب لجيري فودور Jerry Fodor(163) الذي هاجم السلوكية Behaviorism بمعية شومسكي Chomsky وبوتنام Putinam، كما هاجم أتباع

(161) للمزيد من التفصيل انظر: الزغلول رافع النصير والزغلول عماد عبد الرحيم " علم النفس المعرفي" داز الشروق للتوزيع والنشر، عمان الأردن، دون تاريخ. ص 47 وما بعدها.

(162) Fodor, Jerry A «Modularity of Mind: An Essay on Faculty Psychology »Cambridge, Mass.: MIT Press, 1983, p14.

جون لوك الجدد New LOOk أمثال كوهن Kuhn، وبرونر Bruner، وجودمان Goodman بالمقابل دافع فودور عن نظرية تمثيلية للذهن Representational Theory of Mind تعتبر أن الحالات الذهنية مرتبطة بعلاقات حوسبية، وأن الذهن يشتغل بطريقة تراتبية لمعالجة المعلومات، وهي معالجة تتدخل فيها ملكات متعددة لا وجه لتخصيصها برقعة ما من الذهن البشري. وللاقتراب أكثر من مفهوم القالبية كما يتصوره فودور لا بد من الوقوف عند كتابه المهم "قالبية الذهن" .The Modularity of Mind

فقد رسم فودور لهذا الكتاب أهدافا توخى تحقيقها تتمثل في:(164)

1) استبدال الافتراض العام حول وجود ملكات نفسية بافتراض خاص أطلق عليه الأطروحة القالبية.

2) تعداد بعض السمات المميزة لقالبية النسق المعرفي.

3) بحث إمكانية بناء فرضيات معقولة حول قالبية السيرورات الذهنية.

4) تمييز قضايا القالبية عما يسميه فودور أطروحة الحدود الابستيمية The thesis of Epistemic Boundedness، أطروحة تضع قيودا صارمة على طبيعة المشاكل التي بمقدور الإنسان حلها، ومن ثم طبيعة الأشياء التي يمكننا معرفتها.

---

(163) لا بد من التنبيه إلى أن القالبية عند فودور غير منفصلة عنجملة من الجهود .وقد خص فودور الديكارتية الجديدة,بمبحث عنوانه :Neocartesianismتصدى فيه لمناقشة تصور شومسكي حول اكتساب اللغة وبينة العقل البشري، من خلال مشكلين هما مشكل أفلاطون، ومشكل ديكارت. كما يتوجب ألا نغفل عن التحليلات التي تبلورت في حقل علم النفس المعرفي مع ثلة من الباحثين أمثال :

–Anderson, J.R. «Acquisition of cognitive skill »Psychological-ReviewÅ; N?89,1982, 364-406.Ashcraft, M.H. «Human memory and cognition», Harper Collins Publishers, 1989.

-Baddeley A.D «Working memory »Oxford University Press, 1986.

(164) جيري فودور مرجع سابق «Modularity of Mind: An Essay on Faculty Psychology» ص 1.

وقد نذر فودور باقي أجزاء الكتاب لمناقشة هذه القضايا. ومن خلال استقراء الفصول المختلفة يتضح أن القالبية تتأسس على نسقين متباينين هما أنساق الدخل Inputs Systems والأنساق المركزية .Central Systems وتتشكل الأنساق الأولى من مجمل ما يقع عليه الإدراك البشري (أصوات، أشياء، حركات...). وتتصف بجملة من الخصائص، منها على سبيل الذكر:(165)

- خاصية المجالية: Domain Specific وتقتضي وجود قيود على طبقات التمثيلات كطبقة التمثيلات الصوتية والسمعية واللغوية. وأهمية هذه القيود تتجلى مثلا في توجيه المعالجة الذهنية وجهة دون أخرى. فعندما أسمع صوتا، فإن الذهن ينصرف تلقائيا لتحليل هذا الصوت، ولا نتوقع أن ينهمك في تحليل الحركات. وبالمثل عندما يشير إلي شخص ما بحركة دون أن ينبس ببنت شفة، فإن النسق المركزي للمعلومات يُعنى بمعالجة هذه الحركات. كما قد تكون المعالجة متزامنة إذا كان الدخل متعدد الطبقات.
- خاصية العزل Encapsulated: لا تنفصل عن الخاصية السابقة، ويراد بها تلك الخواص المميزة للمعلومة والتي تجعل الآليات المختصة في معالجة المدخلات Inputs لا تخلطها مع معطيات آخرى.
- خاصية الإلزامية: Mondatory وتعني أن المستمع ليس حرا في الامتناع عن معالجة المعلومات الواردة إليه سواء أكانت صوتية أو حركية... فالعارف باللغة العربية ولو جزئيا يجد نفسه يُعمِل ذهنه في معالجة ما يتناهى لأذنيه من أصوات بطريقة تلقائية لاإرادية. أما إذا كانت الأصوات للغة لا يفهمها، فستظل مجرد أصوات دون أن يعيرها أي اهتمام.
- خاصية السرعة: Fast تتميز عمليات الدخل بسرعتها الفائقة، تصل إلى

(165) نفسه أنظر:
- خاصية المجالية ص 47 -52.
- خاصية العزل ص 69.
- خاصية الإلزامية ص54-55.

مئات ملايين أجزاء الثانية. ومن الأمثلة الموضحة لذلك ردود الأفعال البشرية السريعة عندما يحيق بنا خطر ما، ولا يختلف الأمر عندما نتحدث عن المعالجة الذهنية للملفوظات اللغوية. ففي ظرف وجيز، يمكن أن نستقبل الأصوات ونعالجها ونبدي ردود الفعل حولها.

- خاصية البساطة/ السطحية: Shallow بمعنى أن المعلومات التي تحملها المدخلات بسيطة ومقيدة وإلا فإن النسق المركزي المسؤول لن يعالجها.

في مقابل ذلك تضطلع الأنساق المركزية Central Systems بوظيفة معالجة ما تقدمه لواقط أنساق الدخل transducers Inputs Systems، اعتمادا على ما يتوافر للذهن من مخزون معرفي متنوع ومتعدد، لتحولها إلى إدراكات وأفكار مجردة ذات بعد إرادي وطبيعة تمثيلية.[166] ويؤكد فودور أن هذا النوع من الأنساق ــ خلافا للسابق ــ غير قالبي، على اعتبار أن عملية المعالجة تستدعي الاستعانة بكل المعلومات المتوافرة، بصرف النظر عن خاصية المجالية أو العزل.

بهذه الطريقة يتأكد لنا أن تصور فودور للذهن يشبه الحاسوب العام (أنساق مركزية) المتصل بجملة من الحواسيب المختصة (أنساق الدخل) والموزعة حسب المجالات (القالب اللغوي، القالب الحركي، القالب السمعي...).

4.3 القالبية والتداولية:

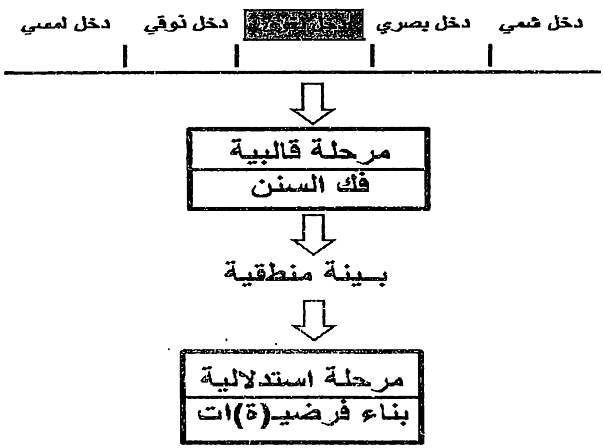
من وحي مفهوم القالبية استلهم سبربر وولسن أسس نظرية الملاءمة التي تدين بالفضل لرافدين مهمين هما: القالبية عند جيري فودور والاستدلال عند بول غرايس[167]. فقد أوضح سبربر وولسن أن نظرية الملاءمة تعالج تأويل الملفوظات اللغوية (دون غيرها من أنواع الدخل) ضمن سيرورة مكونة من

(166) نفسه ص 42.

(167) لا ينبغي أن يفهم من ذلك أن الباحثين يوافقان على الطرح المنهجي لغرايس موافقة تامة. انظر مقالهما:

-Deirde wilson et Dan Sperber «Remarques sur l'interprétation des énoncés selon Paul Grice »In Communication, N- 30, Vol 30, 1979, pp81-93.

مرحلتين: مرحلة أولى قالبية تعنى بفك السنن اللغوي، خَرْجُها عبارة عن بنية منطقية، وهي بينية تغدو دخلا لمرحلة ثانية وأخيرة ذات طبيعة استدلالية. وتتمثل وظيفة المرحلة الأخيرة في إثراء البنية المنطقية سياقيا من خلال بناء فرضية أو فرضيات حول المقاصد الإخبارية للمتكلم. من هذا المنطلق نستخلص أن الملاءمة تتصل أساسا بالمرحلة الاستدلالية. ويمكن أن نوضح تراتبية هاتين المرحلتين من خلال الشكل التالي:



من جهة أخرى يؤكد سبربر وولسن أن التواصل ذو طابع قصدي استدلالي. ويعترفان بأن نظرية الملاءمة في جوهرها هي محاولة لتعميق الفهم بفكرة بول غرايس المحورية التي يقر فيها بأن السمة المميزة للتواصل الإنساني تمثل في التعبير عن النوايا والتعرف عليها.(168) فالمتكلم تحركه نوايا ومقاصد يتوخى الوصول إليها، أما المخاطَب فيطمح لإماطة اللثام عن هذه المقاصد من خلال جملة من السيرورات الذهنية والاستدلالات غير البرهانية. وعليه، فإن

(168) Sperber D. and Wilson D. «Relevance theory», In The Handbook of Pragmatics, Edited by Laurence R. Horn and Gregory Ward, Blackwell publishing, 2004,p 607.

فهم الجمل وتأويلها لا يستلزم الإلمام بالقواعد الصواتية والتركيبية والمعجمية فقط، وإنما يقتضي عمليات ذهنية استدلالية يقدم عليها المتكلمون لتحصيل الاستنتاجات والتأويلات المناسبة.

والواضح من خلال هاتين المسلمتين أن نظرية الملاءمة تؤلف بين بعدين هما البعد التداولي والبعد المعرفي. فالبعد التداولي يظهر من خلال التنصيص على أن المنطلق لتأويل الملفوظات ذو طابع لساني، أما البعد المعرفي فيتضح من خلال التأكيد على أن الذهن لا يخزن المعلومات بطريقة عشوائية، بل إن فهم الملفوظات وتأويلها عبارة عن سيرورات ذهنية ينجزها المخاطَب لكشف مقاصد المتكلم من جهة، ولبناء تمثل للكون أو تعديله من جهة أخرى. وعليه، فإن عملية التأويل تستدعي نظامين مختلفين الأول ترميزي لغوي والأخير استدلالي تداولي.(169)

فضلا عن ذلك يسلم سبربر وولسن بأن الغاية المرجوة من عملية التواصل تتمثل في تحقيق الملاءمة بين جهود المخاطَب ومقاصد المتكلم، علما أن المتكلم ـ في ما يسميه الباحثان التواصل المناسب ـ يسعى لمساعدة المخاطَب على إدراك مقاصده الإخبارية(170). إلا أنهما يقران بأن الغاية التواصلية لا يحكمها مبدأ التعاون والقوانين الحوارية، كما هو الحال مع غرايس، وإنما يوجهها مبدأ الملاءمة Relevance Principle/ Principe de Pertinence وقد صاغه الباحثان على النحو التالي:

ـ كل نشاط تواصلي مناسب يكشف عن افتراض الملاءمة المثلى الخاصة به.

ونستشف من هذا المبدأ أن الملاءمة تتأسس على التعالق الوثيق بين مقاصد

(169) Sperber D. et Wilson D. «Linguistique Form And Relevance »Published in Lingua90, 1993,pp 1-25.
ترجم إلى الفرنسية: Cahiers de linguistique Française, »Forme linguistique et Pertinence«: traduction de Anne Reboul et Dan Sperber, N- 11, 1990.

(170) نفسه ص 17 (الترجمة الفرنسية).

المتكلم من جهة، والنتائج السياقية contextual effects التي يحصدها المخاطَب بعد سلسلة من الجهود costs من جهة أخرى. بيان ذلك، أنه كلما قلت الجهود التأويلية (كالانتباه والتخزين والتحليل) وزادت النتائج المحصل عليها، كان التواصل ملائما. وكلما زادت الجهود، وقلت النتائج، كان التواصل غير ملائم. وترتبط هذه الجهود بطبيعة المثير stimulus، من حيث طول الملفوظ وبنيته التركيبية ومواصفاته المعجمية. أما النتائج السياقية فتمثل في:

- إضافة معلومات جديدة.
- تعزيز معلومة.
- حذف معلومات قديمة مخزنة سلفا، تتناقض مع المعلومة الجديدة.

واستحضار التلازم بين الجهود والنتائج السياقية يثبت أن نظرية الملاءمة تتأسس على قاعدة بسيطة محورها الإنتاجية أو المردودية، لأنه من المتعذر تصور نشاط تواصلي فعال وملائم، إذا كان المخاطَب يجني من النتائج أقل مما يبذل من الجهود. ومعناه أن الجهود الكافية من المفترض أن تفضي إلى نتائج كافية، والعكس بالعكس.

علاوة على ذلك، يُلاحظ أن مبدأ الملاءمة ليس معياريا، يفرض على القائل أن يتلفظ بأقوال مناسبة ومناسبة فقط، بل إنه مبدأ يستعمله المخاطَب دون وعي إبّان عملية التأويل[171]، ويحفزه على معالجة بعض المعلومات التي تقع ضمن مجاله الإدراكي؛ وكل محتوى قضوي غير ملائم، فإن المخاطب لا يعيرها أي اهتمام.

وبالحديث عن المحتوى القضوي للملفوظات، يثير سبربر وولسن قضية العلاقة بين المعنى الحرفي والمعنى المجازي. فقد ميزت تداولية أفعال الكلام بين الفعل الأولي والفعل الثانوي (أوستن) أو بين المعنى الحرفي المصرح به والاستلزام الحواري (غرايس). وانتهت تحليلات كل منهما إلى أن المعنى

(171) مرجع سابق «التداولية اليوم علم جديد في التواصل»، ص 86.

الحرفي حالة عادية، أما الاستلزام الحواري فإنه حالة خاصة، متولدة عن المعنى الأول. وبالتبعية فإن ظواهر كالاستعارة والسخرية... كان تنظر إليها البلاغة التقليدية على أنها انزياح عن معيار الأدبية، ونظرت إليها التداولية على أنها ناتجة عن خرق القواعد التداولية (مبدأ التعاون والقوانين الحوارية). ومن ثم فإن ما دُرس كلاسيكيا على أنه معنى مجازي، تناوله غرايس تحت مسمى الاستلزام، أما الإضافة التي جاء بها فتتمثل في حديثه عن مرحلة استدلالية ملازمة للتأويلات المجازية[172].

ويرفض سبربر وولسن تصور البلاغة التقليدية، وتداولية الأفعال الكلامية مع أوستن وغرايس على اعتبار أنهما يسلمان ـ إنْ بصيغة صريحة أو ضمنية ـ بأن سيرورة تأويل المعنى المجازي تتأسس على ما أطلقا عليه سيكولوجية التداعي[173]، حيث تترابط الأفكار وفق مثل علاقات ترابط Contigüité أو تشابه Ressemblance أو تضاد Antinomie أو علاقة اشتمال Inclusion. غير أن مذهب التداعي Associationnisme في نظر سبربر وولسن لم يعد كافيا عندما يتعلق الأمر بوصف ملكات معرفية أخرى.

علاوة على ذلك جاءت نظرية سبربر وولسن لتوضح أن الاستلزام[174] ليس خرقا للقواعد التداولية، بقدر ما يتصل بمجموع الفرضيات التي يستحضرها المخاطَب ضمن سياق كلامي محدد، من أجل الحصول على تأويل ملائم للملفوظ. وهو ماسمّاه الباحثان استلزامات سياقية Implications contextuelles. ومعناه أن المخاطب ينطلق من فرضيات واحتمالات متعددة، لا تصلح جميعها في

(172)-Sperber D. et Wilson D. «Façons de Parler »In Cahiers de linguistique Française, N-7,1986, pp10-11.

(173) مصطلح التداعي الحر أو الترابط الحر من مصطلحات علم النفس حيث تستدعي الظواهر بعضها البعض داخل حقل الوعي دون تدخل الإرادة أو حتى على الرغم من مقاومتها. انظر لمزيد من التفصيل »موسوعة لالاند الفلسفية«، ترجمة خليل أحمد خليل، مشورات عويدات، بيروت ـ باريس ط2، 2001، ص103.

(174) ننبه إلى أننا سنستعمل لفظ استلزام مرادفا لـImplication تمييزا له عن مصطلح استلزام حواري Implicature.

الآن نفسه لفهم الملفوظ، مما يدفعه لإقصاء البعض منها، وتحيين أخرى انسجاما مع سياق التلفظ.

أما بخصوص السيرورة الاستدلالية التي تنقل النسق المركزي من المقدمات إلى النتائج فيؤكد سبربر وولسن أنها لابد أن تكون منسجمة مع مبدأ الملاءمة لتغدو النتيجة مقبولة(175). من هذا المنطلق لم تعد طاقة التأويل التي ينتجها النسق المركزي مفتوحة على كل احتمال، وإنما هي مقيدة وموجهة صوب إدراك مقاصد المتكلم ونواياه. وبالتالي فإن السيرورة الاستدلالية تتوقف من تلقاء نفسها عندما يبلغ المخاطَب نتائج مقبولة، تكافئ ما بذل من جهود.

في هذا الصدد يؤكد سبربر وولسن أن السياق يؤدي دورا حيويا في السيرورات الاستدلالية التي ينجزها النسق المركزي؛ وتتضافر عدة مكونات لتشكيله، منها مقام التواصل، ومعتقدات المخاطَب، وتأويل الأقوال السابقة. مما يجعله ذا طابع متحول وغير ثابت، يُبنى بطريقة مستمرة، وتتعدل مساراته حسب المعلومات التي يكشف عنها المتحاورون عن محيطهم المعرفي، وهو محيط يساعد المخاطَب على ترجيح افتراض ملائم من بين جملة من الافتراضات الواردة.(176)

---

(175) سبربر وولسن مقال سابق «Façons de parler» ص 17:

En un mot, pour qu'un énoncé soit compris, il doitavoir une interprétation et une seule qui soit cohérenteavec le fait que la locutrice entendait que cet énoncéparaisse pertinent â l'auditeur suffisamment pertinenten ce qui concerne l'effet et maximalement pertinent, ence qui concerne l'effort. Nous dirons que dans ce casl'interprétation est cohérente avec le principe de pertinenceÅ. »

(176) يعترف سبربر وولسن أن التداوليين يدركون الخطر الملازم لسيرورة الاستدلال، على اعتبار ألا شيء يضمن أن المعنى الذي بناه المخاطَب هو نفسه ما قصد المتكلم تبليغه، حتى بالنسبة لمخاطَب اتبع أحسن السيرورات الاستدلالية الممكنة.

انظر مقالهما:

–Dan sperber and Deirdre Wilson «Pragmatics, Modularity and Mind-reading», In Mind and Language, 2002, 17.pp 3-23: "there is no guarantee that the meaningconstructed, even by a hearer correctly following the best possible procedure, is the one thespeaker intended to convey" p 3.

وقد توسعت فرنسواز أرمنكو في مفهوم السياق، وميزت فيه بين أربعة أنواع هي: (177)

- السياق الظرفي أو الحدثي le contexte circonstanciel ou factuel ومداره حول المحيط الزمكاني للمتخاطبين. ويتألف هذا النوع من الإحالات والمرجعيات المناظرة للأفراد الموجودين في العالم الواقعي. ومادمنا نصف السياق الظرفي بكيفية إيجابية وخارجية، فإنه يظل خارجا أيضا. لكن، بمجرد ما نسعى لتحديد إحالته، فإن عناصر أخرى تتدخل في هذا التحديد. ونفهم من ذلك أن السياق الظرفي يتشكل بالأساس من وحدات بسيطة مثل أسماء الإشارة والظرفيات الزمانية والمكانية، لها إحالة مرجعية خارجية، تحيل إلى عالم الموجودات. غير أن السعي لتحديد إحالتها يفرض علينا الإلمام بالسياق الكلامي، وقرائن الأحوال المصاحبة لإنتاج الملفوظ.
- السياق المقامي: le contexte situationnel يعتبر المقام المعترف به اجتماعيا عنصراً مهما من عناصر تحديد المعنى لدى المتخاطبين، على اعتبار أن الأفعال الخطابية تندرج ضمن وضعيات مقامية معينة؛ وهي وضعيات غير منفصلة عن مجمل المعارف والخبرات الثقافية السائدة.
- السياق التفاعلي: le contexte interactionnel والمراد بذلك علاقة الترابط الموجودة بين أفعال الكلام ضمن سلسلة كلامية. فالمتاخطبون يضطلعون بأدوار تداولية محضة، كما هو الحال في فعل الاعتراض، أو الاقتراح أو الاستدراك... حيث يستلزم توظيف هذه الأفعال وغيرها حضور طرف آخر.
- السياق القضوي: le contexte propositionnel وهو ما يسميه اللساني والفيلسوف الفرنسي فرانسيس جاك "الشروط الحوارية les conditions dialo-

(177)-Armengaud Françoise «Eléments pour une approche pragmatique de la pertinence», Philosophica 29,1982 (1), pp. 3-24Å.

giques، وتتشكل من مجمل ما يستدعيه المتخاطبون ويفترضونه أثناء التبادل الكلامي، مثل انتظاراتهم، واعتقاداتهم، ونواياهم. إنه السياق الابستيمي للمعتقدات سواء المعروفة سلفا، أو التي أصبحت معروفة تدريجيا بين المتخاطبين.

غير أن السؤال المطروح بعد هذا التصنيف هو ما علاقة هذه السياقات الأربعة مع الملاءمة؟[178] في هذا الصدد تؤكد أرمنكو أن السياق الظرفي يتدخل لتعيين مرجعية التعابير وشروط صدق الملفوظات. فاسم الإشارة للقريب لا قيمة له إلا إذا كان المشار إليه موجودا وباديا للعيان، وكذلك الحال مع ظروف الزمان والمكان. وعدم الإلمام بسمة مهمة من سمات هذا السياق يفضي إلى فشل الملاءمة. كأن أستعمل ظرف زمني للماضي، وفي نيتي الإحالة إلى زمن الحاضر. أما السياق المقامي فله علاقة بالملاءمة الثقافية، والمقصود بذلك أن الأفعال تظل رهينة بالمواضعات الثقافية السائدة، وهي مواضعات تعتبر استعمال الحد "كل" في ملفوظ من قبيل "كل سكان فرنسا مسلمون" غير ملائم، لأن معرفتنا الموسوعية تشيز إلى أن سكان فرنسا ليسوا كلهم مسلمين. في حين أن السياق التفاعلي يثبت أن الأفعال الكلامية تكون ملائمة حين تكون منسجمة مع ما يليها. فالعفو عن مجرم يكون ملائما، حين يصدر من جهة مخولة لذلك، لأن هذه الجهة هي التي تجعل العفو مستساغا ومقبولا، وإلا صنفنا فعلا من هذا القبيل ضمن خانة الأفعال الفاقدة للملاءمة. بينما يشير السياق القضوي إلى أن الملاءمة تقتضي احترام الافتراضات المسبقة السائدة، من أجل حمل الفعل التواصلي تدريجيا إلى خاتمته الإيجابية. فمن غير الملائم إذاً أن نخل بافتراض مسبق معروف ومسلم به، كأن نصرح بأن الأرض مربعة الشكل.

وليس السياق منفصلا عما تدخره البنية المنطقية من معلومات، تنتظم من خلال مداخل معينة مثل المدخل المنطقي والمدخل الموسوعي والمدخل المعجمي،

(178) نفسه ص 6.

وهي مداخل تتفاعل مع المحيط المعرفي من أجل إنجاز استدلالات ملائمة، وتأويلات مناسبة.

والجدير بالذكر أن سبربر وولسن يعترفان بأن عملية التأويل غير محصورة باللغة فقط، وإن كانت تعتمد عليها أحيانا. ومعناه أن الإنسان يعمد لهذا النشاط الذهني سواء تعلق الأمر بنظام رمزي أو غير رمزي (حركات الجسد، الثياب، الفن، الموسيقى...). ولهذا الاعتراف أهميته وخطورته في آن واحد. إذ إنه يتجاوز الحدود التي رسمها التداوليون الأوائل للتحليل التداولي، على اعتبار أن انشغالهم تمحور حول اللغة في بعدها الرمزي (الإشاريات وأفعال الكلام)، بينما وسع سبربر وولسن انشغالهما ليشمل التواصل في بعده الرمزي وبعده الاستدلالي معا.

أما الخطورة فتتمثل في تعميق الهوة بين حقل اللسانيات وحقل التداولية، والاقتراب بهذه الأخيرة أكثر نحو العلوم المعرفية، على اعتبار أن مناط الأمر حول تحليل العمليات الذهنية الاستدلالية المصاحبة للتأويل، وهي عمليات غير محصورة بالنظام الترميزي اللغوي لوحده، مادام الإنسان لا يتواصل باللغة فقط.

4.4 خلاصة:

من حسنات نظرية الملاءمة سعيها لتجاوز التمييز الذي أقامته كل من البلاغة والتداولية ـ مع غرايس ـ بين المعنى الحرفي والمعنى المستلزم، وإقرارهما بأن الأخير حالة غير عادية ومشوشة، تنتج مثلا عن خرق مبدأ التعاون. أماسبربر وولسن فيؤكدان أن المقاربتين المشار إليهما تستحضران بكيفية صريحة أو ضمنية ما أطلقا عليه سيكولوجية التداعي psychologie associationniste، التيأثبتت عجزها، على اعتبار ألا فرق من حيث الجوهر بين المعنى الحرفي والمعنى المستلزم، لأنهما يخضعان لسيرورة فهم واحدة، وإنما هو فرق في درجة التقريب Degré d'approximation.[179] بصيغة أخرى، إن الاختلاف بين المعنيين، هو

(179) سبربر وولسن مقال سابق «Façons de parler» ص 11.

اختلاف في المجهود المعرفي الذي يبذله المخاطَب لإيجاد تأويل أو تأويلات منسجمة مع مبدأ الملاءمة.

إلى جانب ذلك أسهمت نظرية سبربر وولسن حول الملاءمة في إيجاد أرضية متينة لموضوع قالبية الذهن. إذ إن جهودهما تمحورت حول تحليل الملفوظات تحليلا يتدرج عبر مرحلتين مرحلة ترميزية ومرحلة استدلالية. والناظر في تراتبية هاتين المرحلتين وارتباطهما، يتأكد له أن ما قدمه سبربر وولسن يحذو حذو قالبية الذهن لدى فودور الذي ميّز بين نسقين أنساق الدخل (المرحلة الترميزية بتعبير سبربر وولسن) والنسق المركزي (المرحلة الاستدلالية)[180].

كما اكتست نظرية الملاءمة أهميتها من خلال تنصيصها على القصد التواصلي، الذي لا يتوقف عند امتلاك حالات ذهنية (الإدراك)، وإنما سعي المتكلمين لنسبة هذه الحالات للآخرين وتبليغها إليهم. ومعناه أن التواصل سيرورة تبدأ مع التقاط المدخلات، مرورا بمعالجتها، انتهاء بتحويلها إلى مخرجات .Outputs ولهذا البعد أهميته من حيث سعيه لحل بعض المشكلات التواصلية، خاصة لمن يعانون من مرض التوحد Autism العاجزين عن نسبة حالات ذهنية للآخرين، وعن تمثلهم لها واستخلاص نتائج منها[181].

إسهام آخر يحسب لنظرية الملاءمة يتمثل في حيويتها ومرونتها. ومن الحقائق المؤكدة لهذا المعطى التعديلات التي أجراها سبربر وولسن عليها دون الإخلال بالبناء النظري المؤطر لها. ويكفي أن نقارن بين كتابهما "الملاءمة، التواصل والمعرفة" وبين مقالهما "نظرية الملاءمة"[182] لنكتشف ذلك. ففي

(180) مرجع سابق «التداولية اليوم علم جديد في التواصل» ص 89.
(181) نفسه ص 90.

(182)–Sperber D. and Wilson D. «Relevance: Communication and Cognition», Oxford, Basil Blackwell, 1986.
-Sperber D. and Wilson D. «Relevance theory», In -The Handbook of Pragmatics-Edited by Laurence R. Horn and Gregory Ward, Blackwell publishing, 2004,pp607-632.

مقالهما "نظرية الملاءمة" أوضحا أن تصورهما يتجاوز الحدود التي رسمها الكتاب لمبدأ الملاءمة، من خلال التنصيص على أن نظريتهما في حلتها الجديدة تتأسس على تعريف الملاءمة بناء على مبدأين، المبدأ المعرفي الذي يعتبر أن المعرفة الإنسانية منقادة نحو تحقيق أقصى درجات الملاءمة، والمبدأ التواصلي، ومضمونه يتلخص في أن الملفوظات تولد توقعات للملاءمة في حدودها المثلى.

5. نظرية الحجاج في اللغة (التداولية المندمجة Pragmatique integrée)[183]

1.5 الحجاج من منظور اللسانيات التداولية:

قدم ديكرو من خلال بحوثه المختلفة، سواء المشتركة أو المنفردة، خدمات جليلة للدراسات اللسانية، واستطاع بلورة مشروع مهم مداره حول تداولية مندمجة في الدلالة، تهتم بالخصائص الحجاجية للملفوظات، أكثر مما تبحث في شروط صدقها. والناظر في هذا المشرع يستوقفه حرص ديكرو على رسم حدود اشتغاله، وصقل مفاهيمه من خلال حزمة من الإجراءات والتصويبات، والانتقادات. . .

5.1.1 مراجعة منهجية ضرورية:[184]

رفض ديكرو التسليم بالأسس التي انطلقت منها نظرية التواصل كما قدمها شانون وويقر، ونفى أن تكون الغاية المرجوة من كل نشاط تواصلي تنحصر في نقل الخبر من باث إلى متلق. في مقابل ذلك نصّ ديكرو على أن اللغة عبارة عن صيغة للفعل، وليست مجرد توصيل لمعلومات، كما أنها تقوم على علاقات إنسانية تفرض على مستعمليها أشكالا محددة للتواصل،[185]

(183) لا بد من التنبيه إلى أن الانشغال بالحجاج يفضي إلى الانفتاح على تخوم مترامية الأطراف،لذلك قيدنا بحثنا ببعض المحاور التي تخدم أهداف البحث، دون أن ننفي صفة الخصوبة والامتداد الملازمة لنظرية الحجاج.

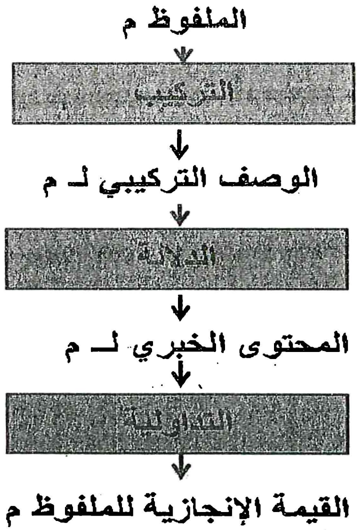
(184) من المهم العودة لمقال" قوانين الخطاب" للوقوف عند تفاصيل هذه المراجعة:

-Ducrot. Oswald «Les lois de discours »In: Langue française. N–42, 1979. pp. 21-33.

(185)-Ducrot Oswald «Dire et ne pas Dire», Hermann, Paris, 1972, p4

وهي أشكال تؤلف نسيجا معقدا من المكونات الخطابية (الإشاريات الشخصية والزمنية والمكانية) ذات الوظائف المتنوعة. من هذا المنطلق يتضح أن اللغة عامة إنجاز لأفعال، أكثر منها وصف لحالات. كما أن الفعل الحجاجي عبارة عن نظام متوارٍ في صميم الخطابات اللغوية وقوانينها الداخلية، وليس مجرد بناء منطقي مفروض عليها. والسبيل إلى كشف هذا النظام يتحقق من خلال التأسيس لتداولية تدمج المكون التداولي في البنية الدلالية، وتسند إليه دورا محوريا لفهم الملفوظات.

من هذا المنطلقاقترح ديكرو مراجعة المنظور الخطي الذي طبع التحليلات اللسانية السابقة، حيث يجري الفصل بين مكون تركيبي يركز على قواعد تركيب الجمل، ومكون دلالي يسهر على ضبط علاقة العلامة بمرجعها، ومكون تداولي يهتم بقضايا الاستعمال اللغوي، على نحو ما يوضح الشكل أسفله:(186)



(186)-Ducrot Oswald «L'argumentation dans la langue», In Langages, 10e année, N?42, Argumentation et discours scientifique, 1976, p6.

على اعتبار أن دلالتها لا تتحدد إلا بسياق الكلام، فإن ديكرو هو الآخر يؤكد أن الروابط الحجاجية المبثوثة في تضاعيف الاستعمال اللغوي، تستبطن سمات تداولية متعددة لا سبيل إلى تجاهلها، بالاقتصار فقط على المحتوى القضوي للملفوظات، أو بنيتها الاستدلالية. وقد أثبت ديكرو في تحليلاته التداولية المختلفة تعالق المكونين اللساني والتداولي.[187] ويمكن أن نتوقف عند المثال التالي لنوضح معالم ترابط هذه المكونات.

قال الحطيئة:[188]

دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

فالعارف باللغة العربية يتيسر له إدراك المحتوى القضوي لهذا البيت. إذ إنه ملفوظ يستجيب للقيود التركيبية التي تنص عليه قواعد اللغة العربية، في إجراء الأمر والنهي والإعراب... لذلك أنتجت قوانين التركيب خَرْجاً سليما، سيتحول إلى دخل للمكون الدلالي، حيث يخضع الملفوظ الشعري لقواعد حسن الصياغة الدلالية، فتترابط السمات في ما بينها، منتجة أيضا خرجا سليما لا تتنافر وحداته. ومخرجات المكونين التركيبي والدلالي تتحول إلى المكون التداولي، لتحقيق المناسبة بين الملفوظ وشروط الاستعمال. غير أن الصعوبات تبرز عندما نتوقف عند الإحالات التي يستبطنها الملفوظ، مما يدفعنا للتساؤل: من المراد بـ"دع" و"لا ترحل"؟ وعمن يتحدث الشاعر؟ وما غايته من هذا الحديث؟

فهذه الأسئلة رغم بساطتها إلا أن التحليل التركيبي والدلالي يظل عاجزا عن

(187) انظر مثلا مقالات ديكرو:

-Ducrot Oswald »Analyses pragmatiques «In: Communications, N-32, 1980. Les actes de discours. pp. 11-60.

-Ducrot Oswald »Opérateurs argumentatifs et visée argumentative «In cahiers de linguistique française, N-5,1983, pp 7-36.

(188) البغدادي عبد القادر بن عمر »خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب« تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، مصر، القاهرة، ط1، 1986، ج 6، ص299.

الإجابة عنها، لأن كشف اللثام عنها يستدعي منا الإلمام بسياق إنتاج الملفوظ، حيث نكتشف أن الضمير يحيل إلى الزبرقان بن عمرو الذي هجاه الشاعر الحطيئة بعدما تحول عنه إلى بغيض بن عامر من بني أنف الناقة. أما الغاية من البيت فتتجاوز التصريح بنبل المخاطَب، ووصف بذخ عيشه إلى التعريض بشرفه ومروءته. لذلك شكا الزبرقانُ الشاعرَ إلى عمر بن الخطاب الذي حبسه عقابا له على سلاطة لسانه.

وإذا كان المثال السابق يثبت عجز النموذج الخطي عن تحليل بعض إشكالات الإحالة والسياق، فإن الأمر لا يختلف عندما نتجاوز المكونات السياقية، لنتوقف عند دراسة البنية الداخلية للملفوظ، وهي بنية أولاها ديكرو عناية قصوى من خلال تحليله للروابط الحجاجية، واعتبر أن تقديم توصيف فعال لما تثيره يُعدُّ مقدمة مهمة نحو تأسيس تداولية مندمجة في الدلالة. والمثال التالي يوضح تأثير الروابط الحجاجية على بنية الملفوظ:

ـ سأذهب غدا ما دام عليك أن تعرف كل شيء.

Je pars demain, puisque /car tu dois tout savoir

ففي هذا المثال يلاحظ ديكرو أن الطرح الوضعي غير قادر على تحليل الظواهر التداولية المنبثة في صميم البنية اللغوية الداخلية. إذ إن مراد المتكلم يتمحور حول التنبيه إلى فعل التلفظ نفسه الرامي إلى تعليل السبب الكامن وراء الملفوظ "سأذهب غدا"، وليس الإخبار بمحتواه القضوي. وهذه الظاهرة لا تُأخذ بعين الاعتبار في التحليل الدلالي، لأن جلّ ما يتوخاه هو إسناد القيمة الدلالية للملفوظات، وبحث مطابقة محتواها القضوي مع الواقع، للحكم عليها بمعيار الصدق أو الكذب.

ولا يختلف المثال السابق عن التحليل الذي أورده ديكرو لجملة مقتطفة من رواية "مادام بوفاري" لفلوبير:(189)

(189) مرجع سابق "Analyses pragmatiques" ص 20.

ـ أنهت جان إعداد حقيبتها، واقتربت من النافذة، لكن هطول المطر لم يتوقف.

ففي التحليل الدلالي التقليدي لا وجه للربط بين المحتوى القضوي للجملة الأولى المكونة للملفوظ "أنهت جان إعداد حقيبتها، واقتربت من النافذة" والجملة الثانية "هطول المطر لم يتوقف"، لأنهما قضيتان منفصلتان. بيد أن الكشف عن التعارض الحجاجي بين ما يوجد قبل "لكن"، وبين ما يوجد بعدها، يقتضي النظر إلى حركة جان باعتبارها سبيلا للتعبير عن عواطفها، لا مجرد حركة في المكان؛ أي أملها في توقف هطول المطر. مما يخول لنا أن نفهم الجملة على النحو التالي:

ـ تأمل جان توقف هطول المطر، لكن ذلك لم يحدث.

فتكون "لكن" في هذا المثال بمثابة حجة للإفصاح عن اعتقاد أو التماس أو وعد. . . لا مجرد رابط لغوي للإخبار عن محتوى قضوي.

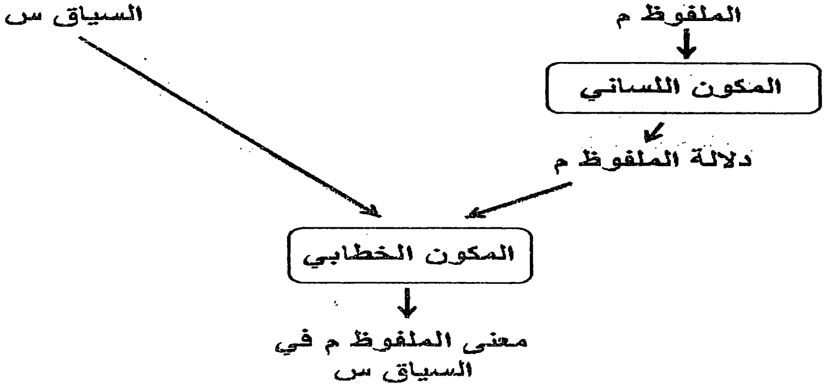
5.1.2 ديكرو والنموذج Y

بموجب ما سبق بدت الحاجة ماسة بالنسبة لديكرو للتخلي عن النموذج الخطي العاجز عن رصد بعض المناحي التداولية التي تظهر في المكون التركيبي من قبيل الإحالة والروابط، ليحاول ـــ بدل ذلك ـ تشييد مشروع دلالي للخطاب المثالي. واللبنة الأولى في هذا المشروع تمثلت في التمييز بين مكونين محوريين هما المكون اللساني، والمكون الخطابي، حيث يضطلع الأخير بوظيفة البحث في السياق الكلامي عن العناصر الضرورية لملء الطبقات الفارغة في دلالة الجملة.[190] ومعناه أن الغاية المرجوة تتمثل في القدرة على تحديد المعنى المقصود، من بين جملة من المعاني الواردة، اعتمادا على البنية الداخلية للملفوظ، وانسجاما مع السياق الكلامي المخصوص.

وقد جسد ديكرو دعوته من خلال اقتراح نموذج على شكل حرف Y،

(190) مرجع سابق «Dire et ne pas Dire»ص 24.

تتعالق فيه المعطيات اللسانية (المكون اللساني) والمعطيات غير اللسانية (المكون الخطابي والتداولي)، على النحو التالي: [191]



وانسجاما مع هذا المنظور الجديد لعلاقة المكون اللساني بالمكون الخطابي اقترح ديكرو أيضا فصل بعض المفاهيم عن بعضها البعض، حتى لا تظل ملتبسة، وتستعمل بمعنى واحد، مثل ثنائية الجملة والدلالة، في مقابل ثنائية الملفوظ والمعنى[192].

- الجملة والملفوظ: فالجملة عبارة عن معطى لساني مجرد، خارجة عن الاستعمال، لكنها قابلة للتحقق، إنها بناء متوارٍ من القيود المعجمية والدلالية والتركيبية والصواتية للغة. أما الملفوظ فيرادف ما أنتجه المتكلم

(191) نفسه، حيث يصرح ديكرو قائلا:

«Un premier composant, c'est-à-dire un premier ensemble de connaissances (nous l'appellerons composant linguistique) assignerait à chaque énoncé, indépendamment de tout contexte, une certaine description que nous appelons signification, et, par exemple, à A, la signification A'. Et un deuxième composant (le composant rhétorique) aurait pour tâche, étant donné la signification A' attachée à A, et les circonstances X dans lesquelles A est prononcé, de prévoir le sens effectif de A dans la situation X »p111.

(192) مرجع سابق «les lois de discours» ص 21.

عندما يعمد إلى الجملة، أي ما يحققه وينجزه خلال التلفظ أو التداول الكلامي. وقد ذكر ديكرو شرطين يحددان الملفوظ هما: الانسجام والاستقلالية[193]. فكل ملفوظ يشترط في وحداته الانسجام، والبعد عن التنافر. بيان ذلك أن الفعل سافر يقتضي بداهة أن يتوزع مع فاعل له سمات + حي. كما أن المتوالية تكون مستقلة حين لا يكون اختيارها محكوما بمجموعة أوسعها منها.

- الدلالة والمعنى: فالدلالة هي القيمة الدلالية التي تعبر عنها الجملة، إنها مجموع السمات المنطقية التي تحملها وحدة معجمية أو مجموعة من الوحدات، وهي كذلك مجموعة من القوانين التي تسمح بحساب معنى الملفوظ. في حين أن المعنى هو القيمة الدلالية داخل سياق كلامي مخصوص، إنه مجموع الأفعال الكلامية التي يعتقد المتكلم إنجازها من خلال تلفظه. ولا يعني ذلك البتة أن كل ملفوظ يعبر عن معنى واحد، لأنه من المحتمل أن تتعدد القراءات، وبالتالي تتعدد المعاني حسب سياقات الكلام، كأن يكون المعنى أمرا أو استفهاما أو التماسا. . .

من جهة أخرى أفضت المراجعة التي اقترحها ديكرو للدلالة التقليدية، ولعلاقة المكون الخطابي بالمكون اللساني إلى إعادة النظر في تحليل الملفوظات من منظور جديد يستلهم فرضياته من مفهوم تعدد الأصوات[194]، الذي بلوره باختين لمقاربة بعض الظواهر الأدبية المميزة للأدب الشعبي، خاصة الاحتفالية Carnavalesque ـ حيث تتاح الفرصة لجميع القوى الفاعلة للتعبير عن ذاتها بصرف النظر عن وضعها الاجتماعي ومستواها الثقافي. . وتتأطر محاولة ديكرو هذه ضمن سعيه لتأسيس تداولية للتلفظ، تدحض نظرية وحدة الذات الناطقة التي قدمتها الباحثة الأمريكية آن بينفيلد Ann Banfield سنة

(193)-Ducrot Oswald «le dire et le dit», Paris, Editions de Minuit, 1984, pp171-233

(194) آثرنا ترجمة Polyphony بتعدد الأصوات انسجاما مع الوحدتين المؤلفتين للكلمة التعدد poly الصوت phony، أما الحوارية فترجمة لـ dialogism.

1979 حول الأسلوب غير المباشر الحر.[195] وقد ميز ديكرو بين ثلاثة مستويات هي: الذات الناطقة sujet parlant، والمتكلم locuteur، والمتلفظ énonciateur.

- فالذات الناطقة (في مقابل المستمع) عبارة عن ذات عملية تجريبية، أي الفرد الذي يتلفظ فيزيائيا بملفوظه، وتتصف بما يلي:

ـ إنها المنتج الحقيقي للملفوظ، والمسؤولة عنه، جسديا وفكريا لأنها تختار الكلمات، وتعمد إلى قواعد اللغة لصياغة ملفوظها.

ـ إنها المسؤولة عن الفعل الإنجازي المعبر عنه في الملفوظ كالأمر والالتماس والوعد...).

ـ إنها القادرة على التمظهر من خلال بعض العلامات اللسانية، مثل الضمائر المتصلة والمنفصلة...

ـ إنها المنتج اللساني البراني extralinguistique، وترادف الكاتب الحقيقي في الأعمال الأدبية.

• المتكلم (في مقابل المخاطَب) يحيل إلى حضور خطابي من الدرجة الأولى، لأنه يتحمل مسؤولية العلامات اللسانية، والأفعال الإنجازية المتحققة في الملفوظ. إن المتكلم من وجهة نظر ديكرو عبارة عن المُخرِج metteur en scène الذي يوزع الأدوار داخل الخطاب. ولتمييز المتكلم عن الذات الناطقة لجأ ديكرو لحقل السرديات مع رائدها جرار جنيث ليبيّن:

ـ أن المتكلم يرادف السارد في نظرية السرد، بينما تقابل الذات الناطقة الكاتب.

ـ أن المتكلم مسؤول عن الملفوظ، كما أن السارد مسؤول عن السرد.

ـ أن وجود المتكلم ليس تجريبيا ولا حقيقيا، لأن حضوره لا يعدو الملفوظ والخطاب، كما أن وجود السارد يظل خياليا، مساحة تحركه ووجوده هي القصة.

---

(195) مقال سابق «le dire et le dit» ص 171–172.

ـ أن المتكلم يمكن أن يتجلى في الملفوظ بصيغتين: المتكلم بما هو ذات locuteur en tant que tel، والمتكلم بما هو كـائن في العـالم locuteur en tant qu'être du monde. فـفي الصـيغـة الأولى يكشف المتكلم عن التـزامـه التلفظي، وانخـراطه في الملفـوظ انخـراطا ذاتيا مـن خـلال التـعـبـيـر عن أحاسيسه وانفعالاته، كما هو الحال مع انفعالات الخطيب Ethos في الخطابة الأرسطية. ومن المؤشرات الدالة على ذلك ألفاظ التعجب والاستفهام. أما في الصيغة الثانية والأخيرة، فإن المتكلم يظهر في الخطاب بمظهر الموضوع لا الذات، متحريا قدرا من الموضوعية.

• المتلفظ (في مقابل المرسل إليه) عبارة عن ترهين خطابي instance de discours يحيل إلى كل موقف أو رأي معبر عنه في الملفوظ، له الوظيفة نفسها، والوضع الاعتباري ذاته الذي للشخصية داخل الخطاب السردي. وينبغي أن نوضح أن عـلاقـة المتكلم بـالمتلفظ أو المتلفظين تتـخـذ أربعـة أشكـال هي التطابق L'Assimilation التـبـاعـد La Distanciation التـواري La Discrétion التوافق L'accord.

ولتـوضـيح العـلاقـة بين هذه المسـتـويات يمكن أن نتـوقـف عند "كليلة ودمنة". [196] ففي هذا الكتـاب تطالعناثلاثة مسـتويات تداولية: في المستـوى الأول نتحدث عن ذات ناطقة حقيقية تتمثل في الفيلسوف بيدبا (ومترجمة إلى اللغـة العربية ابن المقفع) الذي يتـوجـه بخطابه لى الملك دبلشيم من جـهـة، وقـارئ فصـول الكتـابمن جهة أخرى. وقـد رسم الفيلسوف بيديا أفقاً للقـارئ حينما صرح: "وكذلك من قرأ هذا الكتاب ولم يفهم ما فيه،ولم يعلم غرضه ظاهراً وباطناً، لم ينتفع بما يبدو له من خطه ونقشه، كمل لو أن رجلا قدم له جوز صحيح لم ينتفع بها إلا أن يكسره ويستخرج ما فيه" [197] كمـا حصر أنواع القراءة والقراء قائلا:

---

(196) بيـدبا الفـيلسـوف الهندي »كليلة ودمنة« ترجـمـه إلى العـربيـة عبـد الله بن المقفع،المطبعـة الأميرية ببولاق، القاهرة، مصر، 1937.

(197) نفسه ص 60.

"وينبغي للناظر في هذا الكتاب أن يعلم أنه ينقسم إلى أربعة أغراض: إحداهما ما قصد فيها إلى وضعه على ألسنة البهائم غير الناطقة، من مسارعة أهل الهزل من الشباب إلى قراءته، فتستمال به قلوبهم، لأن هذا هو الغرض بالنوادر منحي الحيوانات، والثانية إظهار خيالات الحيوانات بصنوف الأصباغ والألوان ليكون أنساً لقلوب الملوك،ويكون حرصه معليه أشد للنّزهة فيتلكالصور، والثالث أن يكون على هذه الصفحة، فيتخذه الماوك والسوقه، فيكثر بذلك انتساخه ولا يبطل فيخلق على مرور الأيام، ولينتفغ بذلك المصور والناسخ أبدا، والغرض الرابع وهو الأقصى مخصوص بالفيلسوف خاصة "(198)

من جهة أخرى يمكن أن نتحدث عن مستوى تداولي ثان، يتمثل في المتكلم الذي يوزع الأدوار وينظم الحوار، وهوفي نص الكتابً دمنة،كما يوضح المثال التالي:

ـ قال دمنة: ما يسكتكم؟ تكلموا بما علمتم، واعلموا أن لكل كلمة جوابا. وقد قالت العلماء: من يشهد بما لم ير، ويقل ما لا يعلم يصبه ما أصاب الطبيب الذي قال لما لا يعلمه إني أعلمه. قالت الجماعة: وكيف ذلك؟(199)

أما في المستوى التداولي الأخير فيطالعنا المتلفظ باعتباره ممثل المجموع الرؤى والمواقف المعبر عنها، وهي مواقف تحض عامة على مكارم الأخلاق، والقيم السامية النبيلة، في قالب يمتزج فيه البعد الترفيهي مع المضمون السياسي الذي يتوارى خلف الحكاية، فرارا من جبروت السلطة الحاكمة.

ـ وإنما ضربت لكم هذا المثل لتعلموا ما يدخل على القائل والعامل من الذلة بالشبهة في الخروج عن الحد، فمن خرج منكم عن حده، أصابه ما أصاب ذلك الجاهل ونفسه الملومة.(200)

(198) نفسه ص 73.
(199) نفسه ص 165.

بالاستناد إلى ما سبق يتبين لنا أن ديكرو بنى مشروعه اللسانيمن خلالإجراءين منهجيين متكاملين (المراجعة والتشييد). يتأسس الأجراء الأول على مراجعة المنظور الخطي، من أجل إدماج الظواهر التداولية في صلب التحليل الدلالي. ولم يتوقف هذا الإجراء عند حدود الملفوظ فقط، وإنما جاوزه نحو تأسيس تداولية للتلفظ، تدحض نظرية وحدة الذات الناطقة التي قدمتها الباحثة الأمريكية آن بينفيلد Ann Banfield سنة 1979 حول الأسلوب غير المباشر الحر. أما الإجراء الثاني والأخير فيقوم على تشييد الإطار النظري والمنهجي لنظرية الحجاج في اللغة، وقد أمكن ذلك من خلال بلورة جملة من المفاهيم الإجرائية مثل قوانين الخطاب والسلالم الحجاجية والروابط الحجاجيةوالمواضع الحجاجية على نحو ما سنوضح أسفله.

5.1.3 قوانين الخطاب:

أكد ديكرو أن عملية تأويل الملفوظ تنطلق من التسليم بأن المتكلم يعبر عن أفعال كلامية صريحة وحرفية، أما المعاني الأخرى المتعلقة بمعنى الملفوظ، فإنها تنضاف إلى المعنى الحرفي المصرح به دون أن تلغيها. فجملة من قبيل:

ـ هل بمقدورك فتح النافذة؟

يمكن النظر إليها على أنها استفهام حقيقي، أو التماس، أو توبيخ... مما يستدعي استحضار المشيرات اللسانية والسياق، للحسم فيما إذا كان الفعل الكلامي المراد التعبير عنه حرفيا، أو أنه عبارة عن أفعال كلامية مشتقة.

ويأتي هذا التأكيد متساوقا مع إقرار ديكرو بأننا "بحاجة مستمرة إلى التعبير عن أشياء مخصوصة، وفي الآن نفسه التظاهر بأننا لم نعبر عنها، أي أن نعبر عنها، لكن بطريقة تنأى بنا عن تحمل المسؤولية" [201]. ومراوحة

(201) مرجع سابق"Dire et ne pas Dire" حيث يصرح:

On a fréquemment besoin, à la fois de dire certaines choses et de pouvoir faire comme si on ne les avait pas dites, de les dire, mais de façon qu'on puisse sen refuser la responsabilitéÂ »p5.

المعنى بين التصريح والتلميح، تترتب عنها تعارض مخرجات المكون اللساني في بعض السياقات مع مخرجات المكون الخطابي، مما يؤدي إلى بروز ظواهر مثل متضمنات القول l'implicite والافتراض المسبق présupposition والقول المضمر sous-entendu.

وقد خص ديكرو هذه الظواهر باهتمامه، وميز بين الافتراض المسبق والقول المضمر، على نحو ما يظهر في المثالين أسفله:

ـ زيد متهاون بغض الشيء.

ـ توقف زيد عن التدخين.

ففي الملفوظ الأول، من غير الوارد ألا نفهم منه قولا مضمرا:

ـ "زيد كسول".

أما في الملفوظ الثاني، فإن المخاطَب يستنتج:

ـ "زيد كان يدخن في ما مضى".

ويؤكد ديكرو أن القول المضمر يطرأ على مستوى الملفوظ ذاته، فلسنا بحاجة إلا للنظر في محتواه لنحدد المعاني المستترة والمتوارية التي أحجم المتكلم عن التصريح بها. أما الافتراض المسبق فيرتبط بالجملة، أي بما يقع خارج سياق التداول، وهو ما يدعونا إلى استحضار معطيات متحققة قبل التلفظ. وقد عَدَلَ ديكرو عن هذه النظرية في الكتاب نفسه، حينما بيّن أن الافتراض المسبق عبارة عن فعل إنجازي Act Illocution، يمكن أن يظهر على مستوى الملفوظ في صيغة افتراض مسبق[202]. ففي المثال السابق:

ـ توقف زيد عن التدخين.

أشرنا إلى أنه يتضمن افتراضا مسبقا بأن زيدا كان يدخن، كما يمكن أن يتضمن قولا مضمرا، بأن حالة زيد الصحية تدهورت، لذلك توقف عن التدخين.

(202) نفسه ص 39.

وتلعب قوانين الخطاب les lois de discours ـ التي تشبه إلى حد كبير قواعد غرايس ومسلماته ـ دورا محوريا من أجل تعديل الدلالة، والبحث عن الانسجام المطلوب بين المكونين اللساني والخطابي، خصوصا عندما تتعارض مخرجات كل منهما. في هذا الصدد يعترف ديكرو أن هذه القوانين تفرض نفسها على الفعل التلفظي أثناء سيرورة التواصل(203). إنها قواعد متغيرة بتغير الثقافات التي يفترض كل مشارك أن الآخر يحترمها عندما يلعبون لعبة التواصل.(204) واحترامها من عدمه، يمثل بالنسبة للمتلقي مصدر معلومات، ومنطلقا لصياغة جملة من الفرضيات حول المعنى الذي قصده المتكلم. إن هذه القوانين تسمح بتحيين Actualisation الدلالات المتضمنة والمتوارية في الخطاب.

ومن هذه القوانين نذكر قانون الإخبارية loi d'informativité ومضمونه أن كل ملفوظ "أ" إذا قُدم بوصفه مصدرا للمعلومات، يستلزم قولا مضمرا بأن المخاطَب يجهل "أ" أو بالأحرى احتمال أنه لا يتوقع "أ".(205)

ـ الجو جميل، لكن قدمي تؤلمني.

فهذا المثال يمكن أن ننظر إليه باعتباره مصدر معلومات يجهلها المخاطب، ممثلة في عدم رغبة المتكلم في الخروج للنزهة، رغم كون الجو جميلا. فكانت جملة "قدمي تؤلمني" بمثابة حجة محتملة، تفسر إحجام المتكلم عن الخروج. لذلك فإن متضمنات القول تتأسس على استدلال منطقي يقدم عليه المخاطب حول الملفوظ ذاته أو حول سياقات التلفظ(206)، وهو إجراء اعتباطي من أجل

(203) ديكرو «les lois du discours» ص 24.

(204) مانغونو دومينيك«المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب»مرجع سابق، ص 82.

(205) مرجع سابق«Dire et ne pas Dire» ص 5 حيث يصرح ديكرو:

«Tout énoncé A, s'il est présenté comme source d'information, induit le sous entendu que le destinataire ignore A ou même, éventuellement, qu'on s'attendrait plutôt à nonÅA »p133.

(206) نفسه ص 8.

دفع المخاطب لفهم أمور لا نريد التصريح بها، وإحلال وقائع أخرى من الممكن أن تظهر كأنها على علاقة بالوقائع الصريحة.

كذلك تحدث ديكرو عن قانون الكمال la loi d'exhaustivité، وهو "قانون يفرض على المتكلم الإدلاء بالمعلومات الأكثر أهمية حول الموضوع الذي يتحدث عنه، أي المعلومات المهمة بالنسبة للمخاطب" (207). ففي سياق كلامي حيث تنتظر الأم والأب أن يُزفّ لهما خبر نجاح ابنهما، بعدما نُمِيَ إليهما أن عدد الراسبين كثير، وأن ابنهما من المحتمل أن يكون من بينهم، نتوقع أن يكشف ناقل الخبر المعلومة الأكثر أهمية، ممثلة في نجاح الابن، أما المعلومات الأخرى فليست لها الأهمية التي يحتلها خبر النجاح ضمن هذا السياق الكلامي.

من خلال ما سبق يتضح أن نظرية الحجاج مع ديكرو نحتت لنفسها طريقا يبعدها عن الخطابة بمفهومها التقليدي، ويربطها بالتداولية، وعلم الدلالة الحديث. وهو ما سنحاول الوقوف عنده في قادم الفقرات.

5.2 أسس النظرية الحجاجية عند ديكرو:

5.2.1 مفهوم الحجاج عند ديكرو:

يقترن الحديث عن الحجاج في التعريفات المتداولة بالفعل التأثيري للخطاب Act Perlocution، حيث يتوخى المتكلم في العادة حَمْلَ المخاطب على الإذعان والاقتناع بفكرة أو موقف ما، من خلال إثارة عواطفه وانفعالاته. ومثل هذا التعريف تتبناه البلاغة القديمة، والجديدة على حد السواء. وهو ما عبر عنه برلمان بقوله "الحجاج هو دراسة التقنيات التي من شأنها حمل الأذهان على الإذعان لما يعرض عليها من أطروحات، أو زيادة درجة الإذعان" (208). في مقابل ذلك انشغل ديكرو بالحجاج باعتباره فعلا

(207) نفسه ص 134.

(208)-Perlman Chaïm et lucie Olbrechts Tytica«traité de l'argumentation- la nouvelle rhétorique», Préface de Michel Mayer, 5ème éditions, Editions de l'université de Bruxelles 1992, p5.

كلاميا منبتا في صميم البنية اللغوية للملفوظ. لذلك رفض الأخذ بالمنظور الخطي للحجاج، وصرح بأنه سيتحدث عن الحجاج في كل مرة يعمد المتكلم إلى مجموعتين "ح" "ن" للملفوظات حيث يقدم ملفوظا أو مجموعة ألفاظ("ح" أي حجة) من أجل قبول ملفوظ أو مجموعة ألفاظ("ن" أي نتيجة). ومعناه أن الحجاج عبارة عن مسلسل حجاجي يفضي إلى قبول نتيجة ما، كما يوضح المثال التالي [209]:

ـ الجو ماطر اليوم، سألازم المنزل.

فالملفوظ الأول "الجو ماطر اليوم" عبارة عن حجة، يقدمها المتكلم لحمل المخاطب على قبول النتيجة " سألازم المنزل".

بموازاة ذلك رفض ديكرو التصور المنطقي للحجاج، وهو تصور يحصر هذا المفهوم في العلاقات المنطقية الشكلية من جهة، وفي حساب شروط صدق الملفوظات، والاستدلالات المنطقية من جهة أخرى، مؤكدا أن معظم الملفوظات الأولية للغات الطبيعية لا يمكن أن نطبق عليها شروط الصدق[210].

مصداقا لهذا الرفض، عمد ديكرو إلى التمييز بين الاستدلال والحجاج مقرا بانتمائهما إلى حقلين مختلفين. فالأول يتصل بالمنطق، حيث يكون ترابط الملفوظات مؤسسا، لا على الملفوظات نفسها، وإنما على محتواها القضوي، أي ما تصرح به أو يفترض أن تصرح به حول العالم. لذلك يجوز أن تنطبق عليها شروط الصدق والكذب. ويمكن أن نوضح الأمر من خلال المثال التالي:

ـ اقتنى محمد ساعة باهظة الثمن، إذاً فهو رجل ثري.

---

(209)-Ducrot Oswald «note sur l'argumentation et l'acte d'argumenter »In Cahiers de linguistique française, N-4,1982, p 143.

(210)-Ducrot Oswald «Les Lois logiques et les Lois argumentatives», In le français moderne, N-47, 1979, p51.

فهذا المثال عبارة عن استدلال منطقي، حيث تقرأ القضية الأولى على أنها مقدمة تترتب عنها القضية الثانية. ولا يختلف المثال السابق عما يلي:

كل إنسان فان	←	**مقدمة كبرى**
سقراط إنسان	←	**مقدمة صغرى**
سقراط فان	←	**نتيجة**

في مقابل الاستدلال المنطقي يتحدث ديكرو عن الحجاج في ارتباطه بحقل الخطاب، حيث يكون اتساق الملفوظات داخليا، مبنيا على الملفوظات نفسها، أي حول المعنى، وليس حول ما تحيل إليه في العالم الخارجي. (211) ولنتأمل المثال أسفله. يقول أبو فراس الحمداني: (212)

سيذكرني قومي إذا جد جدهم وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

فالشاعر يتوخى تنبيه قومه إلى قيمته ومكانته، فأبلغهم بأنهم تجاهلوه، واستخفوا بمنزلته، لكنهم سيتذكرونه عند اشتداد الخطوب والأهوال، ولن يجدوه، لأن البدر يفتقد ويطلب عند اشتداد الظلام؛ فكأنه قدم النتيجة "سيذكرني قومي إذا جد جدهم"، وساق الحجة المثبتة لها "وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر".

ووجه الاختلاف بين هذا المثال والسابق يتمثل في كون النتيجة توجد منفصلة عما سبقها وعما يتبعها، فكأننا بصدد قضيتين منفصلتين من حيث محتواهما القضوي، وإحالتهما الخارجية. على النقيض من ذلك ترتبط القضيتان في الاستدلال المنطقي بعلاقة منطقية، حيث تعتبر القضية الأولى

(211)-Ducrot Oswald «les échelles argumentatives», Paris, Editions de Minuit, 1980, p10.

(212) أبو فراس الحمداني «ديوان أبي فراس الحمداني» رواية أبي عبد الله الحسين بن خالويه، تحقيق وشرح كرم البستاني، دار صادر بيروت، لبنان، 1992، ص161.

مقدمة مفضية إلى القضية الثانية، فهما متصلتان مترابطتان.

5.2.2 ـ المراتب الحجاجية والسلالم الحجاجية:

تعددت الدراسات والبحوث التي اهتمت بموضوع المراتب الحجاجية، منها على سبيل الذكر ما كتبه تشارلز كاتون ولورانس هورن وأوزفالد ديكرو وجان أنسكومبر. ويوجز طه عبد الرحمان المراتب الحجاجية عند هؤلاء في الأصناف التالية:(213)

ـ المراتب المتضادة: وتدل الألفاظ في هذا النوع على معان يمكن ترتيبها بين طرفين متباينين مثل: الرمضاء، والحر، والدفء، والفتور، والبرد، والقرس؛ حيث الرمضاء والقرس هما بمنزلتين متباينتين: عليا/ سفلى، كما يظهر في الشكل التالي:



ـ المراتب الموجهة توجيها كميا: ويتصف هذا النوع بأن الألفاظ تدل على معان تقبل التدرج في اتجاه واحد، تزايديا أو تناقصيا مثال:

تزايديا: درهم مثقال أوقية رطل.

تناقصيا: رطل أوقية مثقال درهم.

---

(213) طه عبد الرحمان »اللسان والميزان أو التكوثر العقلي«مرجع سابقص 273 وما بعدها.

ـــ المراتب الموجهة توجيهها قصديا: ويتسم هذا النوع بكونه يتعدى الألفاظ، ليشمل الجمل أيضا. فيكون قصد المتكلم عاملا في تحديد اتجاه المراتب التي تنزلها هذه الجمل. مثال ذلك، أن يقصد المتكلم التوقف عن العمل متى شعر بالملل، وبالأولى متى غلب عليه النوم:

ـ شعر المتكلم بالملل.

ـ غلب على المتكلم النوم.

فهاتان الجملتان في مرتبتين متفاوتتين بموجب القصد الذي للمتكلم في التوقف عن العمل.

ويقر طه عبد الرحمان أن هذا النوع الأخير من المراتب اقترن بديكرو وأنسكومبر، وهو ما يتجسد في الاعتراف بأن "المتكلم يضع ملفوظان م و م' في مرتبة حجاجية إذا اعتبر أن م و م' حجتان مؤكدتان للملفوظ س".(214) على هذا الأساس يتضح أن المرتبة الحجاجية ترتبط كليا بالنتيجة المخصوصة، وبالمتكلم المحدد إيديولوجيا واجتماعيا، كما أنها ترتبط بالوجهة الحجاجية l'orientation argumentative التي يتوخى المتكلم توجيه خطابه نحوها.

في سياق متصل بيّن ديكرو أن الحجج لا تتوزع اعتباطا، بل تحكمها تراتبية دقيقة من حيث القوة والضعف، تعرف بالقوة الحجاجية la force argumentative. وقد أوضح ديكرو أن الحجج تنتظم ضمن طبقة حجاجية واحدة، إلا أنها تختلف من حيث قوتها وضعفها، لذلك عمد إلى السلالم الحجاجية لبيان طريقة تعالقها وانتظامها. ويتسم السلم الحجاجي عند ديكرو بخاصيتين هما:(215)

- كل ملفوظ يرد في مرتبة ما من السلم، يكون الملفوظ الذي يعلوه أقوى منه.

---

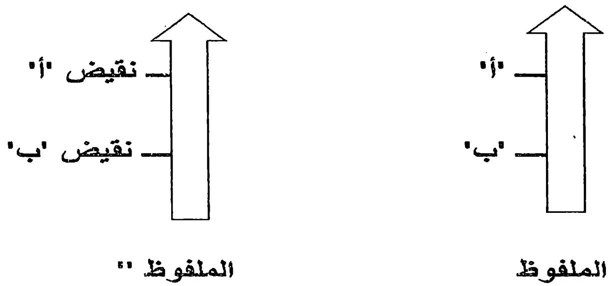
(214) ديكرو «les échelles argumentatives»، ص 17.

(215) نفسه ص 18.

▪ كل ملفوظ في السلم يؤدي إلى نتيجة معينة، فإنه يستلزم أن ما يعلوه يؤدي إلى النتيجة نفسها.

وقد حدد ديكرو ثلاثة قوانين للسلم الحجاجي هي:(216)

- قانون القلب: ومضمونه أنه إذا كان أحد الملفوظات 'أ' أقوى من 'ب' في السلم الحجاجي، فإن نقيض الملفوظ " 'أ' أقوى في التراتبية أيضا من نقيض 'ب'. ويمكن أن نوضح ذلك من خلال الشكل التالي:



مثال ذلك:

ـ فاز الفريق بالرصيد الأعلى من النقاط، وبالبطولة أيضا.

ـ لم يفز الفريق بالرصيد الأعلى من النقاط، ولا بالبطولة.

فمن خلال هذين المثالين يتبين لنا أن فوز الفريق بأعلى رصيد من النقاط حجة تثبت نتيجة كونه فريقا ممتازا، واستعد جيدا، ويأتي ملفوظ "وبالبطولة أيضا" ليدعم الحجة المقدمة سلفا، وليؤكد محتوى النتيجة. في مقابل ذلك نلاحظ أن فشل الفريق في الفوز بأعلى رصيد من النقاط حجة أقوى تبرهن على تخاذل لاعبيه، وتقاعسهم عن الاجتهاد والتدريب للحصول على البطولة. وهو ما يفسر لنا الإطناب Redundancy الذي قد يستشعره المخاطَب عندما يصرح المتكلم بجملة من قبيل:

(216) نفسه ص 27.

ـ لم يفز الفريق بالبطولة، ولا بالرصيد الأعلى من النقاط.

ووجه الإطناب في هذا المثال يتمثل في كون الحجة المقدمة في الملفوظ الثاني متضمنة أصلا في الملفوظ الأول، أي أنها تخرق تراتبية الحجج في السلم الحجاجي، مادام الحصول على أعلى رصيد من النقاط شرطا لازما للفوز بالبطولة.

- قانون النفي: وملخصه أن الملفوظ إذا كان حجة لخدمة النتيجة 'ن'، فإن نفيه حجة لدعم نقيض النتيجة 'ن'. مثال ذلك:

ـ يَبَرُّ زيد بوالديه، فهوبارٌّ .

ـ لا يبر زيد بوالديه، فهوعاقٌّ.

فالملفوظ يتضمن حجة "يبر زيد بوالديه" تخدم النتيجة المصرح بها "فهو بارٌّ"، وبالمنطق نفسه فإن نفي الملفوظ "لا يبر زيد بوالديه" يقدم حجة لدعم نقيض النتيجة السابقة "فهو عاقٌّ".

قانون الخفض: يشير هذا القانون إلى أن النفي اللساني يدل على معنى "أقل من" "Moins que". ويتيح هذا القانون تفسير بعض الاستعمالات التورية Emplois litotiques في الملفوظات المنفية، حيث يجري تلطيف القوة الدلالية للملفوظ المنفي. مثال:

ـ لم يفت الأوان بعد.

ـ هذا الفستان ليس قبيحا.

ـ أسلوب هذا التلميذ ليس رديئا.

ففي المثال الأول "لم يفت الأوان بعد" يمكن أن نفهم أن المتكلم ترك التصريح بما يجول في خاطره "فات الأوان" إلى ملفوظ أخر ملطف. وبالمثل فإن عبارة " هذا الفستان ليس قبيحا" معناه أنه بشع، لكن المتكلم أضرب عن التصريح بذلك إلى التلميح. والملاحظ أن قانون النفي يقترن أساسا بالملفوظات

المنفية التورية من جهة، وبالسعي نحو تلطيف القوة الدلالية للملفوظ من جهة أخرى.

في السياق متصل تحدث ديكرو عن نوع من النفي بمقدوره أن يفضي إلى معنى مخالف لقانون الخفض كما في المثال التالي:

- ليس سائقا جيدا، بل هو ممتاز.

حيث ينقل السلم الحجاجي من الأدنى إلى الأعلى.

5.2.3 الروابط الحجاجية والعوامل الحجاجية:

درج النحاة القدامى والباحثون المحدثون على دراسة الروابط من خلال التركيز على خصائصها الدلالية، وطبيعتها الصرفية، ووظيفتها الإعرابية، ودورها في ضمان اتساق النصوص وانسجامها. وقد توجوا جهودهم بتصنيفها إلى طبقات. غير أن الزاوية التي أطلت منها البحوث اللسانية التداولية على هذا الموضوع تختلف جذريا عن سابقتها. ووجه الاختلاف يتمثل في التركيز على البعد التداولي والحجاجي للروابط، وهو تركيز يأتي متساوقا مع المراجعة التي أقدم عليها ثلة من اللسانيين، منهم على سبيل الذكر ديكرو الذي أعاد النظر في العلاقة بين المكونين اللساني والبلاغي، مسلما بأن دراسة الحجاج ينبغي أن تأخذ بعين الاعتبار البنية الداخلية للغة.

والروابط عبارة عن وحدات صرفية تؤدي وظيفة الربط، داخل الخطاب نفسه، بين ملفوظين مختلفين بناء على علاقة معينة كعلاقة الإضافة أو علاقة التعارض، أو علاقة الشرح والتفسير... وتتألف من عدة طبقات مثل الحروف(حروف العطف مثلا) والتعابير الظرفية والحالية (في نهاية المطاف، وأخيرا) والموجهات (عموما، من المحتمل) والأسماء والأفعال والصفات (ترتب، يمكن أن نستنتج، نعارض ...). وتتفرع عن وظيفة الربط التي تؤديها الروابط وظائف أخرى مثل توجيه التعليمات المتعلقة بطريقة التأليف بين الوحدات، كذا إتاحة الفرصة لاستخلاص بعض النتائج التي لا يمكن أن

تستخلص في غياب هذه الروابط.[217]

وقد استأثر موضوع الروابط باهتمام الباحثين والدارسين، فتعددت المسميات، حيث تحدث فان ديك (1977) عن الروابط الدلالية والروابط الحجاجية، بينما أطلق عليها ديكرو (1980) اسم الروابط الحجاجية، وعاد سنة (1983) ليسميها عوامل حجاجية، في حين وظف روليه (1985) اسم الروابط التفاعلية، أما بلاكمور (1987) فتحدث عن الروابط الخطابية، بينما ذكر موشلر (1989أ) اسم الروابط التداولية، واستعمل جون مارك لوشر(1994) علامات الربط،[218] . ويعزو موشلر وربول هذا التنوع إلى أن الروابط والعوامل في اللغات الطبيعية لا تخضع لمعيار الحقيقة (الصدق أو الكذب)، لأنها تظل مقترنة بشروط الاستعمال وشروط التأويل. وبصرف النظر عن اختلاف المسميات بين الدارسين، فإن المصطلحات التي تطفو على السطح تنوس بين الروابط والعوامل. فما الفرق بينهما؟

يؤكد موشلر وربول أن التمييز بين الروابط والعوامل لم تتضح معالمه في الأدبيات المنطقية والتداولية، لكن ذلك لا يحول دون الإقرار باختلافهما. فالعامل الحجاجي يؤدي وظيفة الربط بين وحدتين دلاليتين داخل الفعل الكلامي نفسه، أو القضية الواحدة. وتتصف العوامل بدورها في توجيه دلالة الملفوظ وجهة دون أخرى، انسجاما مع النتائج المراد التعبير عنها. ومثال ذلك:

ـ بالكاد حصل زيد على معدل متوسط.

ففي هذا المثال أتى العامل "بالكاد" ليدعم نتيجة مضمرة، تتمثل في الاعتراف بضعف مستوى زيد، وصعوبة بلوغه المتوسط إلا بعد جهد. وهي نتيجة تختلف عن الدلالة التي يكشف عنها الملفوظ إذا ما جُرد من العامل

(217)-Moeschler jacques, Reboul Anne «Pragmatique du discours »Armond colin, Paris, 1998, p77.

(218) مرجع سابق موشلر وربول Dictionnaire encyclopédique de Pragmatique ص 157.

"بالكاد"، حيث تغدو الجملة ذات محتوى خبري:

ـ حصل زيد على معدل متوسط.

لذلك تلعب الموجهات دورا محوريا في تعديل المحتوى القضوي للملفوظات، وتوجيهها. ما قيل عن العامل "بالكاد" ينسحب على عوامل أخرى مثل من المحتمل، بصراحة...

في مقابل ذلك يضطلع الرابط بوظيفة التأليف بين فعلين كلاميين مختلفين، أي بين قضيتين أو أكثر تجمع بينهما علاقة ما، كعلاقة التعارض أو السببية أو الإضافة أو الاستنتاج أو الإضراب... كما في المثال التالي:

ـ لم يجتز زيد الامتحان لأنه مريض.

إذ يجوز لنا أن نقسم هذا الملفوظ إلى وحدتين أو قضيتين هما " لم يجتز الامتحان" و"مريض"، وهما وحدتان مترابطتان بعلاقة السبب والنتيجة، على اعتبار أن غياب زيد عن الامتحان راجع إلى إصابته بوعكة صحية.

في موضع متصل أشار آلان بروندنييه إلى الشبه القائم بين الروابط الحجاجية والروابط المنطقية في المنطق الصوري، إذ يساهمان معا في التأليف بين وحدتين أو قضيتين مختلفين تجمع بينهما علاقة ما. ولئن كانت الروابط في اللغات الطبيعية تشبه من حيث وظيفتها الروابط في اللغة المنطقية، فإن من الواجب ألا يحجب هذا الشبه عنا أوجه الاختلاف بينها.[219] وهو ما أوضحه برونودونييه من خلال المقارنة بين الروابط المنطقية والروابط التداولية، مؤكدا أن الروابط المنطقية ليست سوى قوانين داخلية للتأليف بين القضايا، أي أنها روابط تجمع بين موضوعات منطقية تنتمي للطبقة نفسها. فضلا عن ذلك تتصف الروابط المنطقية بتجانسها، فالعوامل والنتائج المترتبة عنها فريدة ومتميزة. خلاف لذلك تنتمي الروابط الحجاجية التداولية إلى طبقات متنوعة،

(219)-Berrendonner Alain «Connecteurs Pragmatiques et Anaphore», Cahiers de linguistique Française, N-5, 1983, p215.

وهو ما يجعلها غير متجانسة. ويتجلى هذا التنوع على المستوى الصرفي (حروف، وأسماء، وعبارات) وكذلك على المستوى الدلالي (منها ما يفيد التعارض، ومنها ما يفيد الاستنتاج، أو التوكيد أو الإضافة...). وتتضح هذه الخواص عندما نستحضر جملا من قبيل:

– الجمهور مبتهج [إذاً] المسرحية ممتعة.

– الجمهور مبتهج [و] المسرحية ممتعة.

– الجمهور متذمر [لكن] المسرحية ممتعة.

فهذه الجمل تؤكد أن الروابط تؤدي وظيفة دلالية وحجاجية في الآن نفسه.(220)

ولا تتوقف وظيفة الروابط عند حدود التأليف بين ملفوظين، وإنما تتعدى ذلك إلى تأدية دور مهم في فهم الخطاب وتأويله. "إذ لا تعمل باعتبارها علامات بسيطة (...) ولا باعتبارها معالم (...) أي منارات يستهدى بها في الخطاب، بل تساهم بصورة أساسية في توجيه العمليات التأويلية، ولا يمكن التأويل من دونها (في بعض الحالات على الأقل)"(221)

وينبه فان ديك أن "تسلسل العبارات يمكن أن يترابط دون أن تحصل فائدة الاتساق وفحواه، أعني أن الربط يجوز أن يكون شرطا ضروريا، ولكنه ليس كافيا لقبول الخطاب"(222). ومعناه أن توالي سلسلة الروابط ينبغي أن يستوفي شروطا مخصوصة لتحصل فائدة الاتساق. ويعترف فان ديك بأن هذه الشروط تنقسم إلى صنفين: متتالية خطية (على المستوى الأفقي) وكلية شاملة (على المستوى العمودي). ونستشف من ذلك أن الربط بين القضايا والجمل، وتسلسلها المتوالي إنما يعبّر عن العلاقة بين القضايا، وهي علاقة دلالية

(220) -Mainguneau Dominique «Elements de linguistique pour le texte littéraire»,Bordas, Paris, 1986,p133

(221) جاك موشلر وأن روبول مرجع سابق «التداولية اليوم علم جديد في التواصل» ص 173.

(222) فان ديك مرجع سابق «النص والسياق»، ص 73.

بالأساس قبل أن تكون تركيبية.[223] ومن المؤشرات الدالة على ذلك أن الجمل يمكن أن تترابط بطريقة صريحة أو ضمنية. مثال ذلك:

ـ كانت الحرارة مفرطة البارحة، فذهبنا إلى الشاطئ.

ـ كانت الحرارة مفرطة البارحة، [?] ذهبنا إلى الشاطئ.

ومن المؤشرات أيضا أن حضور الروابط لا يعني بالضرورة تحقق التناسق والترابط بين الجمل، مثال ذلك:

ـ ولأن جون لم يكلف نفسه عناء العمل، فإن الأرض تدور حول الشمس.

ولَحْنُ الجملة الأخيرة راجع إلى أن الأحداث التي تعبر عنها القضايا لا تتعالق في عوالم متجانسة. بيان ذلك أن درجة مقبولية هذه الجملة تظل متدنية، رغم أن المتكلم عمد إلى الروابط حرصا منه على اتساق خطابه. والسبب راجع إلى أن القضايا المعبر عنها لا تمت بصلة لبعضها البعض، مما يثبت أن الربط قبل أن يكون نحويا تركيبيا، فهو ذو طبيعة دلالية نابعة من محتوى الخطاب نفسه.

ووجب التنبيه إلى أن الروابط لدى فان ديك لا تقترن بالمحتوى الدلالي للقضايا والأحداث فقط، بل لها علاقة وثيقة أيضا بالسياق التداولي، "إذ الجمل قد تترابط (أو قد لا تترابط) بالنسبة للمتكلم المخاطب في سياق مخصوص من التواصل. فما يُظن فيه الترابط بالنسبة للمتخاطبين في سياق معين، يمكن أن يعتقد فيه الاضطراب والاختلال بالنسبة لمتحاورين آخرين"[224].

ولئن كان فان ديك قد ركز على البعد الدلالي والتداولي للروابط، فإن ديكرو أضاف إلى هذين البعدين العناية بخواصها الحجاجية. فأوضح أن

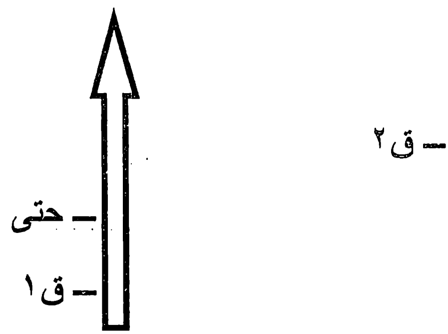
(223) نفسه ص 77.
(224) نفسه ص 79.

القيمة الحجاجية للملفوظ ما تتحدد من خلال الروابط الحجاجية الموظفة، وهي روابط منبتة في اللغة، ولا سبيل إلى تجاهلها، لأن الفعل الحجاجي يرتكز عليها بشكل كبير، وتوجهه وجهة دون أخرى. ويمكن أن نسوق الأمثلة المتعددة للتدليل على ذلك.

فعندما نتحدث عن استعمال رابط مثل "حتى" فمن الواضح أنه مثقل بحمولة حجاجية واضحة، تتجلى معالمها إذا توقفنا عند ملفوظ يتألف من وحدتين أو قضيتين تترابطان بـ"حتى":

ـ ق1 حتى ق2.

حيث يظهر أن القضيتين تنتميان إلى السلم الحجاجي نفسه، بيد أن القضية الأولى تكون أضعف من القضية الثانية، كما يوضح الشكل التالي:



وهو شكل تتجلى أهميته عندما نتوقف عند المثال التالي:

ـ حصل زيد على شهادة الإجازة، وحتى على الدكتوراه.

حيث القضية الثانية أقوى من القضية الأولى، وهو ما يفسر لنا لحن جملة من قبيل:

ـ حصل زيد على الدكتوراه، وحتى على شهادة الإجازة.

وسبب اللحن راجع إلى عجز المتكلم عن ترتيب الحجج ترتيبا يعكس أهميتها ودرجة قوتها بما ينسجم مع الرابط الحجاجي الموظف.

هذا البعد الحجاجي نلمسه أيضا مع روابط أخرى مثل "لكن" الذي يقترن بالملفوظات ذات العلاقة المتعارضة، وهي علاقة تفترض أنه إذا كانت هناك حجة تنتمي إلى طبقة حجاجية معينة تدعم نتيجة مخصوصة، فإن هناك حجة معارضة تنتمي لطبقة حجاجية مختلفة. ومعناه أن الرابط "لكن" يوظف حين تنتمي الحجتان لطبقتين حجاجيتين متعارضتين، مثال ذلك:

- زيد بارع، لكنه متهاون.

ففي هذا الملفوظ يمكن أن نميز ثلاثة معطيات هي الحجة والحجة المعارضة والنتيجة. فالحجة الأولى تدعم نتيجة مخصوصة، وهي التعويل على زيد لإنجاز ما يسند إليه ببراعة ودقة، بالنظر إلى ما يختزن من مواهب وقدرات، غير أن الحجة المعارضة تدحض هذه النتيجة على اعتبار أن زيدا معروف بتهاونه، وتلكئه عن إنجاز ما يطلب منه في الوقت المحدد، لذلك فإن التعويل عليه لإنجاز عمل ما في حيز زمني معلوم قد لا يكون في محله.

5.2.4 ـ المواضع الحجاجية:

بناءً على ما سبق يتضح أن مراعاة تراتبية الحجج وهرميتها من حيث القوة والضعف، فضلا عن التوسل بالروابط الحجاجية المناسبة لا يضمنان أن يحقق الحجاج غايته، إذا لم يُراعَ مكون آخر درسه ديكرو وأنسكومبر تحت مسمى المواضع الحجاجية.

ويعود أصل مفهوم المواضع أو الأماكن المشتركة إلى الخطابة اليونانية القديمة، مع شيشرون، وكونتليان وأرسطو الذي خص هذا الموضوع بكتاب عنوانه "المواضع"، وجعله جزءاً من نظرية منطقية عامة، تعرف بالأرغانون. وتتميز المواضع عند أرسطو بكونها طريقة محكمة تسمح بالدفاع عن القضايا المطروحة، انطلاقا من مقدمات محتملة ومقبولة لدى عامة الناس.[225]

(225)- Aristote, «Organon V, Les Topiques», introduction, traduction et notes par Jules Tricot, Éditions Vrin, Bibliothèque des textes philosophiques, 1990, p1.

إنها عبارة عن الأصناف العامة التي يمكن أن يصار فيها إلى ترتيب كل الحجج أو الأبحاث والتوسع في الموضوعات. ومن ثم تشكل معرفة هذه الأماكن/ المواضع سجلا يسهل الإبداع".(226) لذلك فهي شبيهة بالمسلمة الأولية أو البديهية Axiome في المنطق الصوري. وتكمن قيمة المواضع في كونها مقبولة بالنسبة للجميع، ويتحقق الإجماع التام حولها.

وقد استلهم عدة منظرين هذا المفهوم، وقدموه بصيغ مختلفة. فبرلمان على سبيل الذكر تحدث عن وجود إطار يوجه الحجاج القانوني ويعدله. ويتألف هذا الإطار من المواضعات القانونية التي يتبناها مجتمع ما. ومعناه أن ما يكون مباحا في بيئة اجتماعية ما، قد لا يكون كذلك في بيئة أخرى بحكم المواضعات السائدة. غير أن مفهوم الموضع كما قدمه ديكرو لا تحده الحدود التي رسمها له أرسطو أو البلاغة الجديدة.(227)

فمن الملاحظ أن المشروع اللساني لديكرو يولي أهمية كبيرة للعلاقات الحجاجية في الوصف اللساني، مسلما بأن هذه العلاقات تنبع من صميم اللغة، ولا مجال لاستنباط أي محتوى خبري من الملفوظات، مؤكدا في الآن نفسه أن الحجاجية l'argumentativité حاضرة بصفة مستترة في مجمل العلاقات الخطابية. لأجل ذلك يقر ديكرو بأن الوصف الدلالي للملفوظات ينبغي أن ينجز انطلاقا من مجموع التسلسلات الحجاجية enchainements ar gumentatives الممكنة للملفوظ.(228)

وتجدر الإشارة إلى أن الحجاج في صيغته الخطابية، لا يمت بصلة للحجاج الاستدلالي، لأنهما ـ كما أوضحنا سلفا ـ ينتميان لحقلين مختلفين أحدهما

---

(226) موسوعة لالاند الفلسفية ص 1462.

(227)-Ducrot Oswald «Topoï et formes topiques »dans Théorie des topoï, Kimé, 1994, p.85.

(228) -Ducrot Oswald «les Topoi dans la Théorie de l'argumentation dans la langue »In les Lieux communs, topoi, stéréotypes, clichés, Kimé,1993, p236.

لحقل الخطاب، والآخر لحقل المنطق.[229] وقد توسل ديكرو بمفهوم المواضع ليثبت أن الانتقال من الملفوظ - الحجة إلى الملفوظ - النتيجة لا تحكمه قوانين المنطق، وإنما توجهه باقة أو حزمة من المواضع والنماذج المسبقة، والأنماط. في هذا الإطار يعترف أنسكومبر بأن المواضع عبارة عن مبادئ عامة تؤدي وظيفة دعم الاستدلال دون أن تكون هي الاستدلال نفسه[230].

من هذا المنطلق يتضح أن الموضع هو المبدأ المتواري خلف التسلسلات الحجاجية، والضامن للمرور من الحجة إلى النتيجة. مثال ذلك:

ـ عمل زيد الليل كله.

ـ من المحتمل أن تمطر.

ينتج عن ملفوظ من هذا الصنف الموضع الحجاجي التالي:

ـ زيد بحاجة إلى النوم.

ـ سأحمل المظلة.

ومعناه أن انسجام الملفوظ يتأسس على ما يتضمن من مواضع حجاجية، وهي مواضع تلعب دور الضامن للانتقال من الحجة إلى النتيجة. لذلك يؤكد ديكرو أن الروابط والعوامل الحجاجية توجه التسلسل الحجاجي وجهة معينة، بصرف النظر عن المحتوى الإخباري للملفوظ؛ في حين تساعد المواضع الحجاجية على استنباط النتيجة الملائمة للملفوظ.[231]

(229) -Ducrot Oswald «les échelles argumentatives», Paris, Editions de Minuit, 1980, p10.

(230) -Anscombre J.C «De l'argumentation aux Topoi »In Théorie des Topoi, Kimé, 1994, p11-47.

(231) تطرق الباحثان ديكرو وأنكسومبر في مناسبات عديدة للفرق بين الإخبارية l'informativité والحجاجية l'argumentativité: نظر على سبيل الذكر:

-Anscombre Jean-Claude «Théorie de l'argumentation, topoï, et structuration discursive »Revue québécoise de linguistique, vol. 18, n- 1, 1989, pp15-16.

-Anscombre Jean-Claude et Ducrot Oswald «Argumentativité et informativité», De la métaphysique à la rhétorique, M. Meyer Ed, Bruxelles, 1986,pp76-94.

ويوضح أنسكومبر أن للمواضع الحجاجية ثلاث خصائص هي:[232]

• إنها معتقدات شائعة في العشيرة الاجتماعية التي ينتمي إليها المتكلم والمخاطَب، ويفترض أن يشتركا فيها حتى قبل الانخراط في سيرورة الخطاب. مثال ذلك بيت المتنبي:[233]

ـ ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن.

فهذا الملفوظ يتألف من نتيجة "ما كل ما يتمنى المرء يدركه"، وحجة تدعمها "تجري الرياح بما لا تشتهي السفن"، وهي حجة أضحت في حكم المعتقدات الشائعة، وجرت على الألسن مجرى المثل، لأنها تعكس موضعا أو خبرة مشتركة بين العرب، يعمد إليها الأفراد كلما توخوا التعبير عن فكرة جريان الأمور بما لا تشتهي النفس.

• إنها عامة، لأنها تصلح لوضعيات خطابية مختلفة، وسياقات كلامية متنوعة. وهو ما يتجلى من خلال بيت المتنبي، إذ إن المتكلم يوظف موضعا من هذا القبيل، حينما يلمح الشبه بين دلالة الموضع وبين السياق الكلامي.

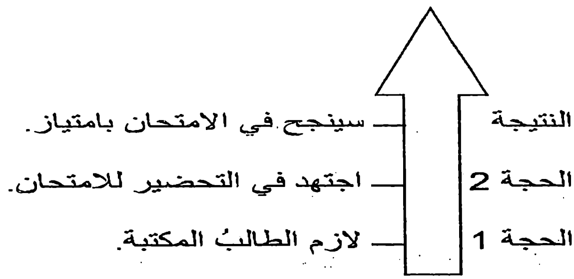
• إنها ذات طابع تدرجي، لأنها تربط بين محمولين بعلاقة تدرجية أو بين سلمين حجاجيين، وإن كانت هذه الخاصية ليست إلزامية. مثال ذلك:

ـ لازمَ الطالب المكتبة، واجتهدَ في التحضير للامتحان، سينجح بامتياز.

ففي هذا المثال نلاحظ أن الملفوظ يستبطن حجتين هما "لازم الطالب المكتبة" و"اجتهد في التحضير للامتحان" تخدمان معا نتيجة واحدة وهي "سينجح بامتياز"، إلا أنهما تنتميان لسلمين حجاجيين متباينين كما يوضح الشكل التالي:

(232)-Anscombre Jean-Claude «la Théorie des Topo?Å: sémantique ou rhétoriqueÅ'» Hermes 15, 1995, p190.

(233) المتنبي أبو الطيب «ديوان المتنبي» دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1983، ص 472.



وإذا كانت الحجة1 تقع في مرتبة أدنى من الحجة2، فإن ذلك لا يستلزم أنهما تؤديان بالضرورة إلى النتيجة أعلاه، لأن ملازمة المكتبة والاجتهاد من أجل النجاح في الامتحان قد لا يتحقق. وكم مرة يجتهد الطالب لبلوغ أعلى المراتب، لكنه لا يوفق. لذلك ينص ديكرو على أن المواضع تتصف بطابعها التدرجي، لكنه يؤكد في الآن نفسه أنها ليست إلزامية.

وقد توسع ديكرو في خاصية التدرج، وميز بين نوعين الموضع المماثل Topos concordant والموضع المخالف Topos discordant.(234) فالموضع يكون مماثلا عندما نحدد في السلم الحجاجي حجتين 'أ' و'ب' بإمكانهما الظهور في صيغتين هما "أ'، +'ب'" أو "أ'، -'ب'" ومعناه أن المنحى الصاعد لـ 'أ' يرتبط بالمنحى الصاعد لـ 'ب'. كما أن المنحى الهابط لـ'أ' يتصل بالمنحى الهابط لـ'ب'. وهو ما يمكن أن نوضحه من خلال المثال التالي:

ـ الجو صحو (+'أ')، سنقصد الشاطئ (+'ب').

ـ الجو غائم (-'أ')، لن نقصد الشاطئ (-'ب').

أما الموضع المخالف فيسند لـ'أ' و'ب' منحيين متعارضين، حيث يمكن

(234)-Ducroţ Oswald, Jean-Marie Schaeffer «Nouveau dictionnaire encyclopédique des sciencesdu langage», Ed seuil,1995,p 87.

أن نقدمهما في صيغتين موضعيتين متباينتين هما '+?أ' '?ب' ?أو '??أ' + 'ب' . ويتجلى ذلك عندما نعمد إلى رابط حجاجي من قبيل "لكن"، كما في المثال التالي:

ـ استعد للامتحان جيدا(+'أ')، لكنه لم ينجح (-'ب').

ـ لم يستعد للامتحان (-'أ')، لكنه نجح (+'ب').

5.3 خلاصة:

مثلت التحليلات التي قدمها ديكرو وأنكسومبر لعدة ظواهر لغوية خطوة مهمة نحو بناء الحجاج على قاعدة تداولية ودلالية متينة، كما كانت جهودهما إضافة مهمة لإدماج التداولية ضمن حقل الدلالة. ويستمد المشروع اللساني لكل من ديكرو وأنكسومبر أهميته من إقدامهما على مراجعة العلاقة بين المكونين البلاغي واللساني من جهة، وانشغالهما ببناء المفاهيم في ضوء هذه المراجعة من جهة أخرى. وهو ما حاولنا رصده من خلال المحاور الفرعية السالفة. غير أن حرص الباحثين ديكرو وأنسكومبر على صقل مفاهيمهما وتشذيبها لم يكن كافيا للحيلولة دون بزوغ بعض الإشكالات المنهجية التي أعاقت إدراج القضايا التدوالية في صميم البحث الدلالي. وقد مهدت هذه الإشكالات الطريق للباحثة ماريون كاريل لتتقدم بطرح منهجي تعيد من خلاله مراجعة نظرية الحجاج في اللغة، ومن خلالها إعادة النظر في تصور كل من ديكرو وأنكسومبر للعلاقة بين التداول والدلالة.

5.4 نظرية المجموعات الدلالية: blocs sémantiquesla théorie des

1.4.5 إشكالات نظرية الحجاج في اللغة:

من المعلوم أن مفهوم السلالم الحجاجية ـ كما قدمته نظرية الحجاج في اللغة مع ديكرو وأنكسومبر ـ جاء ليلقي الضوء على العلاقة بين الحجج المنتمية لطبقة حجاجية واحدة من حيث قوتها وضعفها، وهي علاقة تتسم بخاصيتين هما:

- كل ملفوظ يرد في مرتبة ما من السلم، يكون الملفوظ الذي يعلوه أقوى منه.
- كل ملفوظ في السلم يؤدي إلى نتيجة معينة، فإنه يستلزم أن ما يعلوه يؤدي إلى النتيجة نفسها.

ولئن كان هذا المفهوم قد أدى وظيفته، وأتاح الفرصة لبيان وجه التعالق بين الحجج، فإنه في الآن نفسه أثار إشكالا محوريا مداره حول إمكانية أن تفضي حجة قوية في السلم الحجاجي إلى نتيجة معارضة لما تدافع عنه باقي الحجج.

فبالاستناد إلى مبادئ السلم الحجاجي يتضح أن النتيجة تعتبر عاملا محددا لاختيار الحجج وترتيبها وتوجيهها حسب قوتها الحجاجية. غير أن بعض الأمثلة تؤكد أن الحجج القوية التي تقع في أعلى السلم الحجاجي ـ وبالتالي القادرة بدرجة كبيرة على الإقناع ـ يمكن أن تفضي إلى نتيجة عكسية، لا تدعم النتيجة المرغوبة، بل تدحضها:

ـ ليست سوى الثامنة مساءً.(235)

فقد يستشف المخاطَب من هذا الملفوظ نتيجتين متعارضتين هما "أسرع" أو "لا جدوى من الإسراع".

في سياق متصل تثير نظرية تعدد الأصوات في علاقتها بنظرية المواضع بعض الملاحظات، على نحو ما يتضح من خلال المثالي التالي:

ـ زيد غني إذاً ينفق على الفقراء.

فمن خلال التحليل الذي تتيحه نظرية تعدد الأصوات يمكن أن نرصد متلفظين: المتلفظ الأول الذي يستدعي الموضع التالي: كلما كان الشخص غنيا، كلما زاد إنفاقه على الفقراء، مادام المال وفيرا. والمتلفظ الأخير الذي

(235)- «La Force de mots- »Entretien avec Oswald Ducrot In le langage, sciences Humaines, 2001, p 81-83.

يعكس وجهة نظر المتكلم والذي يحجم عن استثمار الموضع الشائع، ويصرح بنتيجة مخالفة لما قد نتوقع:

ـ زيد غني، لكنه لا ينفق على الفقراء.

فمدار الأمر بالنسبة للسانيات الحجاجية حول الرابط "إذاً" الذي يتناغم توظيفه مع الموضع المعروف. لكن الضرورة الخطابية تفرض على المخاطَب أن يحيِّن الاحتمالين معا، دون أن يحسم في الأمر مسبقا اعتمادا على ما يخزنه من مواضع.

غير أن الصعوبات التي واجهتها نظرية الحجاج تتعدى الملاحظات السالفة. إذ أقر ديكرو وأنكسومبر في مناسبات كثيرة بتمايز الحجاج عن الاستدلال، ويتجلى هذا التمايز كما أوضحنا سابقا في أن الأخير يتصل بالمنطق، حيث يكون ترابط الملفوظات مؤسسا، لا على الملفوظات نفسها، وإنما على محتواها القضوي، أي ما تصرح به أو يفترض أن تصرح به حول العالم. لذلك يجوز أن تنطبق عليها شروط الصدق والكذب. في مقابل ذلك يتحدث ديكرو عن الحجاج في ارتباطه بحقل الخطاب، حيث يكون اتساق الملفوظات داخليا، مبنيا على علاقة الملفوظ بما قبله وبما بعده، وليس حول ما يحيل إليه في العالم الخارجي.[236] وإذا كان ديكرو وأنكسومبر قد توسلا بمفهوم المواضع les topoï للربط بين الحجة والنتيجة، فإن الصعوبة تتمثل في قبول مسلمة جوهرية من مسلمات نظرية الحجاج في اللغة، والمتمثلة في أن الانتقال من الحجة إلى النتيجة نابع من البنية الداخلية للغة، وفي الآن نفسه التسليم بأن المواضع ـ باعتبارها معطيات خارج لسانية ـ بمقدورها تأمين المرور من الحجة إلى النتيجة.

هذه الصعوبات دفعت بديكرو إلى التخلي عن نظرية المواضع، واستبدلها بإطار منهجي ونظري آخر يعرف في الأدبيات اللسانية بنظرية المجموعات

(236) ديكرو «les échelles argumentatives» ص 10.

الدلالية التي بسطت مفاهيمها وفرضياتها الباحثة الفرنسية ماريون كاريل Marion Carel في أطروحتها "نحو نمذجة جديدة لنظرية الحجاج في اللغة"، فضلا عن كتبها ومقالاتها المتعددة، سواء المفردة أو المشتركة.(237)

5.4.2 المفاهيم الإجرائية لنظرية المجموعات الدلالية:

تتأطر نظرية المجموعات الدلالية La Théorie des Blocs Sémantiques المعروفة اختصارا بـ(TBS) ضمن النظرية الحجاجية لتعدد الأصوات La Théorie Argumentative de la Polyphonie المعروفة اختصارا بـ(ATP)، وهي نظرية تنهل من رافدين: نظرية الحجاج في اللغة ونظرية تعدد الأصوات، وهما نظريتان توسع فيهما الباحثان ديكرو وأنسكومبر، اللذان أسسا طرحهما المنهجي والنظري على فرضيات محورية مدارها حول الاعتراف بتعدد الذات المتكلم، وانشطارها إلى أصناف من جهة، والتنصيص على أهمية دراسة المعطيات المنبتة في صميم اللغة، ورفض حصر وظيفتها في القيمة الإخبارية للملفوظ من جهة ثانية، والتسليم بأن المواضع تؤدي وظيفة الضامن للانتقال من الحجة إلى النتيجة، حيث تلعب الروابط الحجاجية مثل "إذاً" و "إلا أن" وظيفة متميزة

(237) انظر مثلا:

–Carel Marion «Vers une formalisation de la théorie de l'argumentation dans la langue », thèse de doctorat, Paris (EHESS), 1992.

- Ducrot Oswald «Critères argumentatifs et analyse lexicale »In: Langages, 35e année, N−142, 2001, pp. 22-40.

-Carel Marion et Schulz, P. «De la généricité des proverbes: une étude de l?argent ne fait pas le bonheur et il n−y a pas de roses sans épines », Langage et société, 102, 2002, p. 33-70.

-Carel Marion «L'argumentation est-elle polyphonique −, in A. Rabatel (éd.) Cahiers de praxématique, vol.43, 2003 pp.191-212.

-Carel Marion et Ducrot, O. «La semántica argumentativa. Una introducción a la teoría de los bloques semánticos», M.M. García Negroni et A. Lescano (éds.), Buenos Aires : Colihue Universidad, 2005.

-Carel Marion -Introduction- in M. Carel (dir.) «Argumentation et polyphonie. De saint Augustin à Robbe-Grillet», Paris : L?Harmattan, 2012.

من جهة أخيرة. غير أن الباحثة ماريون كاريل فتحت أفقا جديدا لنظرية الحجاج في اللغة، محاولة تجاوز بعض الإشكالات التي أشرنا إليها آنفا.

وأول سؤال يتبادر إلى الأذهان هو إلى أي حقل تنتمي نظرية المجموعات الدلالية؟ ألحقل الدلالي أم التداولي؟ إن الإجابة عن هذا السؤال تقتضي منا استحضار التمييز الذي جاء به ديكرو وأنسكومبر بين الجملة والملفوظ. وقد أوضحنا في المحور السابق وجه الاختلاف بينهما: فالجملة عبارة عن معطى لساني مجرد، خارجة عن الاستعمال، لكنها قابلة للتحقق، إنها بناء متوارٍ من القيود المعجمية والدلالية والتركيبية والصواتية للغة. أما الملفوظ فيرادف ما أنتجه المتكلم عندما يعمد إلى الجملة، أي ما يحققه وينجزه خلال التلفظ أو التداول الكلامي. وقد ذكر ديكرو شرطين يحددان الملفوظ هما الانسجام والاستقلالية[238]. ويترتب عن هذا التمييز الإقرار باختلاف الدلالة عن التداولية، إذ إن الأولى تبحث في الجملة، بينما تدرس الأخيرة معاني الملفوظات ضمن سياقات محددة.

من هذا المنطلق يمكن القول إن نظرية المجموعات الدلالية تؤلف بين الدلالة والتداول في الآن نفسه. إذ إنها تبحث في ما يعبر عنه، لهذا أولت كاريل عناية كبرى لدلالة الكلمات والملفوظات، مسلمة بأن الأخيرة لا تؤدي وظيفة تمثيل العالم، لذلك لا تخضع لمعيار الصدق والكذب. إلا أنها في الوقت ذاته تعترف بأن ما يعبر عنه لا يتم بمعزل عن مختلف السياقات الكلامية. ومعناه أن الملفوظ عبارة عن ظاهرة خطابية بالدرجة الأولى، لا ينبغي أن تلتبس مع الانطباعات التي يحملها المتكلم حول محتوى الملفوظ. لهذا يمكن القول إن نهج ماريون كاريل جاء متساوقا مع سعي ديكرو لبناء تداولية مندمجة في الدلالة، تحمل على عاتقها تحليل الظواهر الدلالية والحجاجية المنبتة في الملفوظات، والمصاحبة لإنتاجها.

(238) ديكرو مقال سابق «le dire et le dit» ص 171-233 .

والمبدأ الذي تتأسس عليه نظرية المجموعات الدلالية يتمثل في الاعتراف بأن الحجاج في جوهره يتأسس على الجمع بين ملفوظين أو جملتين من خلال رابط معياري Normatif، أو غير معياري Transgressif، كذلك التسليم بأن كل كلمة تثير في الأذهان مجموعة من الدلالات الملازمة لها. فعندما نتحدث عن الحيلة مثل في سياق كلامي معين، فإن ذلك يستدعي جملة من الدلالات التي تفرض نفسها، وتلحّ على المتكلم والمخاطَب على حد السواء. غير أن هذه اللفظة لا يتضح معناها إلى ضمن سياق كلامي مخصوص، وهو سياق يبرز لنا طبيعة المجموعة الدلالية التي تنتمي إليها اللفظة، على اعتبار أن المدلول يختلف من سياق كلامي لآخر، ومن مجموعة دلالية لأخرى. ويمكن أن نسوق المثال التالي لنوضح جوهر نظرية الحقول الدلالية:

ـ وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن بعض الحيلة مهلكة للمحتال.(239)

ففي هذا المثال نلاحظ أن لفظ الحيلة يرتبط بالهلاك، ضمن سياق كلامي مخصوص، وهو ما يمكن أن نصوغه على النحو التالي:

ـ بعض الحيلة إذاً مهلكة للمحتال.

أما في سياق آخر فترتبط الحيلة بالدهاء الذي يحمل الفعل إلى خاتمته السعيدة، دون أن يضر بصاحبه، كما في المثال التالي:

ـ والعاقل هو الذي يحتا للأمر قبل تمامه ووقوعه.(240)

التي تعني:

ـ المحتال للأمر قبل تمامه ووقوعه إذاً عاقل.

لذلك يمكن القول إن الحيلة تنتمي لمجموعتين دلاليتين مختلفتين، ولا سبيل إلى إدراك هذا الاختلاف إلا بالعودة إلى السياق الكلامي الذي أُنتج فيه الملفوظ.

(239) ابن المقفع «كليلة ودمنة» ص 114-115.
(240) نفسه ص 119.

وتؤكد ماريون كاريل وجود تعالق دلالي Interdépendance sémantique وثيق بين إجزاء الملفوظ (الحجة والنتيجة عند ديكرو). ويتضح هذا التعالق جليا عندما نتوقف عند هذه الأجزاء. إذ لا يمكن أن نفصل بين بعضها البعض دون الإخلال بالمعنى المراد، على اعتبار أن معنى كل جزء من الملفوظ يستبطن إشارة إما إلى أنه حجة أو أنه نتيجة. فبالعودة إلى المثال السابق يمكن أن نميز بين جزأين هما:

ـ "بعض الحيلة" + رابط + "مهلكة للمحتال".

حيث يفضي الملفوظ الأول إلى نتيجة "مهلكة للمحتال"، ولا يمكن أن نفهم هذه النتيجة إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار تلازمها مع الحجة "بعض الحيلة". إذ إن الجزء الأول يفتح أفق التداول على احتمالات متعددة مثل "بعض الحيلة ضروري"، "بعض الحيلة لا جدوى منه"، "بعض الحيلة قد يفيد المحتال"... لهذا جاءت النتيجة لتقيد هذه الاحتمالات، وتحصرها في ما يرغب المتكلم التعبير عنه.

ووجب التنبيه إلى أن التعالق الدلالي الذي تحدثت عنه ماريون كاريل لا يتصل برابط حجاجي دون آخر، إذ يتساوى معنى الرابط "إذاً" "Donc" مع "إلا أن" "Pourtant"، مادمنا نتحدث عن مجموعة دلالية واحدة هي الحيلة وما تثيره في الذهن من دلالات. لهذا يمكن أن نعيد صياغة الجملة السابقة على النحو التالي:

ـ بعض الحيلة ضروري إلا أنها مهلكة للمحتال.

فالرابط الحجاجي "إذاً" أو "إلا أن" لا قيمة له في حد ذاته إلا ضمن السيرورة الحجاجية المصاحبة لإنتاج الملفوظ.

ووجه الاختلاف بين هذين الرابطين يتمثل في كون التسلسل الحجاجي enchainement المعتمد على الرابط الحجاجي "إذاً" يعكس الطابع المنتظم والمعياري للقاعدة Aspect régulierÅ/ normatif de la règle، بينما يوظف

الرابط "إلا أن" لإظهار الطابع غير المنتظم ولا المعياري .Aspect transgressif مثال ذلك:

– مع أن ذوي الرأي من الموك لا يعلنون عقوبة من لم يعلن ذنبه. ولكن لكل ذنب عندهم عقوبة، فلذنب العلانية عقوبة العلانية، ولذنب السرّ عقوبة السرّ"(241)

فمن خلال هذا المثال يمكن أن نستخلص:

ــ لكل ذنب إذاً العقوبة.

الذي يصاغ على الشكل التالي:

ــ ذنب+ إذاً + عقوبة.

ومعناه أن في كل مرة يقترف شخص ما ذنبا معينا، فإنه يعاقب على ما جنت يداه؛ مما يجعل هذه القاعدة متواترة ومنتظمة ومعيارية، على اعتبار أن كلمة الذنب تستبطن في دلالتها الداخلية معنى العقوبة. لهذا يغدو استعمال الرابط "إذاً" مسوغا ومقبولا.

في مقابل ذلك قد تتخذ الأمور تارة أخرى طابعا غير معياري ولا منتظم، بحيث لا يتلازم الذنب مع العقوبة، مما يدفع لاستعمال الرابط "إلا أن" الذي يعبر عن هذا المحتوى، فيغدو الملفوظ على النحو التالي:

ــ ارتكب الذنب إلا أنه لم يعاقب.

ويمكن أن نصوغ هذا الملفوظ على النحو التالي:

ــ ذنب + إلا أن+ نفي+ عقوبة.

علاوة على التمييز السالف بين المظهرين الحجاجيين (المعياري/ المنتظم وغير المعياري/ غير المنتظم) انشغلت ماريون كاريل وديكرو بالتفريق أيضا بين الحجاج الداخلي Intrinsèque والحجاج الخارجي Extrinsèque.

(241) نفسه ص 125.

فمن خلال الأمثلة السابقة نلاحظ أن مدار الأمر حول الدلالات التي تثيرها الكلمات المستعملة في الذهن. فالحديث عن الذنب يستدعي العقوبة، كما أن وصف شخص بأنه عاقل معناه إلحاق جملة من الصفات الإيجابية به، كما في المثال التالي:

ـ وإن العاقل يدبِّر الأشياء ويقيسها قبل مباشرتها، فمارجاأ نيتملَّه منها أقدم عليه، وما خاف أن يتعذَّر عليه منها انحرف عنه ولم يلتفت إليه.[242]

فهذا الملفوظ يمكن أن نظهر طابعه الحجاجي من خلال الصياغة التالية:

ـ العاقل إذاً يدبر الأشياء.

فإذا أسندنا صفة العاقل إلى شخص ما، فذاك يعني أننا نضفي عليه مقدارا من المصداقية، ونجرده من صفات سلبية أخرى، مما يسوغ لنا أن نتلفظ بما يلي:

ـ الذي يمكن أن نستشف منه ما يلي:

ـ تدبير الأشياء إذاً مدعاة للظفر.

ـ تدبير الأشياء إلا أن ذلك ليس مدعاة للظفر.

مما يعني أننا بصدد ثلاث مجموعات دلالية هي:

ـ العاقل + الرابط إذاً + يدبر الأشياء.

ـ تدبير الأشياء + الرابط إذاً + الظفر.

ـ تدبير الأشياء + الرابط إلا أن + نفي الظفر.

والملاحظ في هذه المجموعات الدلالية أن الإيحاءات التي توقفنا عندها مستقاة من الدلالية الداخلية لصفة "عاقل"، مما يجعلنا نتحدث عن حجاج داخلي، راجع إلى السمات الدلالية الملتصقة باللفظة نفسها أو الملفوظ نفسه.

(242) نفسه ص 144.

خلافا لذلك قد تكتسب اللفظة أو الملفوظ بأكلمه قوته الحجاجية لا من سماتها الداخلية فقط، وإنما من خلال استعمالاتها ضمن السياقات الكلامية المختلفة، وهذه السياقات لا تلعبها فيها الخبرات السابقة والأعراف المتداولة أيّ دور، لأن مجمل ما ترمي إليه كاريل وديكرو هو التنصيص على أن دلالات الألفاظ والملفوظات تتضح من خلال تعالق بعضها مع بعض. لذلك فإن صفة العاقل في التمثل العام ترتبط بها جملة من الدلالات العامة التي يدرك محتواها من خلال السياق الكلامي، وهي دلالات تقترن في بعض الأحيان بالقدرة على تحكيم منطق الفكر، بعيدا عن الانجراف خلف الأهواء والانفعالات، والإقرار بتوافر الموصوف على خصال تؤهله ليكون محل ثقة وتقدير... مما يجعلنا نتحدث في هذه الحالة عن حجاج ذي طابع خارجي.

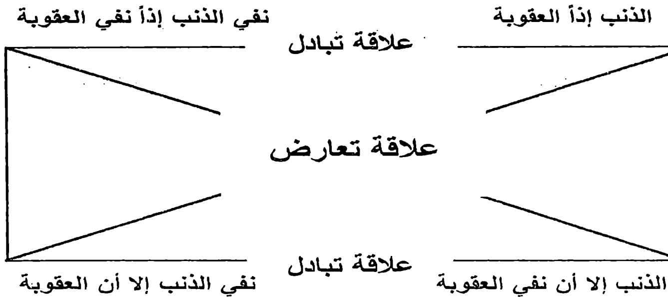
ومن وحي هذا التمييز بين الحجاج الداخلي والحجاج الخارجي تحدثت ماريون كاريل عن ثنائية أخرى هي الحجاج البنيوي في مقابل الحجاج السياقي. ويؤكد ديكرو أن ثنائية الحجاج البنيوي/ الحجاج السياقي تعتبر بديلا حيويا عن اقتراح سابق تقدمت به كاريل(كاريل وديكرو 99)، حيث ميزت بين الحجاج الداخلي/ الحجاج الخارجي.(243)

ويمكن أن نستجمع المعطيات السالفة من خلال الترسيمة التالية:

Aspect normatif المظهر المعياري	Aspect transgressif المظهر غير المعياري
الحجاج الداخلي Argumentation intrinsèque	الحجاج الخارجي Argumentation extrinsèque
الحجاج البنيوي Argumentation structurelle	الخجاج السياقي Argumentation contextuelle

(243)–Durcot Oswald «Critères argumentatifs et analyse lexicale »In: Langages, 35e année, N-142, 2001, p 23.

وقد طعّمت ماريون كاريل تصورها بمفهوم آخر أطلقت عليه المربع الحجاجيLe Carré argumentatif، وذلك لبيان طريقة انتظام المجموعات الدلالية داخليا، وتوضيح العلاقات القائمة بين المظاهر الحجاجية. ويتألف هذا المربع من العناصر التالية:



المربع الحجاجي للوحدة المعجمية "الذنب"

وبصرف النظر عن مكونات المربع الحجاجي، ودوره في توصيف العلاقة بين الحجج، فإن نظرية المجموعات الدلالية لعبت دورا مهما فيالانتقال بدراسة الحجاج من المقاربة الخارجية المعتمدة على نظرية المواضع، إلى مقاربة داخلية، تتناول الوحدات المعجمية أو الملفوظات بوصفها ترابطا حجاجيا، تتعالق فيه الحجتان بواسطة رابط معياري "إذاً" أو غير معياري "إلا أن"، لكنه تعالق يعكس في عمقه انتماء الحجتين إلى مجموعتين دلاليتين مختلفتين، رغم شبههما الظاهر، كما أنه تعالق يعتبر أن بين الحجتين علاقة إطناب أو إسهابParaphrase، حيث تفسر الحجة الأخيرة سابقتها.

من جهة أخرى اكتسبت نظرية كاريل خصوبتها ومرونتها من خلال قدرتها على تقديم وصف دلالي للوحدات المعجمية المفردة والملفوظات على حد السواء، خلافا للمنظورات السابقة التي أولت عناية كبرى لوصف الخطابات عامة. وقد حتمت هذه الخصوبة والمرونة اللسانية على ديكرو التخلي عن تصوره الداعي للتمييز في الترابط الحجاجي بين الحجة والنتيجة، وتبني منظور تلميذته ماريون كاريل الرامي لبناء حجاجيات دلالية وتداولية في الآن نفسه.

6 ـ خلاصة الفصل:

استنادا إلى ما ورد في المحاور السالفة يتبين أن التداولية قطعت أشواطا مهمة، عكست التحولات المعرفية والمفهومية التي مرّت بها منذ ظهورها مع شارل موريس، مرورا بتبلورها مع أبحاث فلسفة اللغة، وصولاً إلى انفتاحها على الحجاج والعلوم المعرفية والذكاء الاصطناعي. . . وقد انشغل أعلام التداولية المبرزون بقضايا ومباحث متباينة تعكس طبيعة المرحلة التي كانت تجتازها. ففي البداية انحصر مجال التداولية في مبحث الإشاريات، كما هو الحال مع شارل موريس الذي لم تكن التداولية عنده سوى مرادف لدراسة الضمائر وأسماء الزمان والمكان، ثم جاءت حقبة أوستن وسورل لتخطو التداولية خطوة عملاقة نحو الاتصال بفلسفة اللغة، وهي فلسفة اتخذ اللغة مطية لإعادة النظر في القضايا الفلسفية التي درجت الفلسفات التقليدية على طرحها.

ولا مراء من الاعتراف بأن حقبة الخمسينات أثمرت أعمالا رائدة لتحليل اللغة، خاصة مع نظرية أفعال الكلام سواء في نموذج أوستن أو سورل. أما جهود غرايس فقربت الهوة بين التداولية والعلوم المعرفية بتركيزها على دراسة الاستدلال، دراسة أفضت إلى توجيه الأبحاث وجهة معرفية، مستفيدة من تطور مجال الذكاء الاصطناعي والبرمجة العصبية. . . ومن ثم تحولت الانشغالات من السعي نحو تصنيف أفعال الكلام إلى البحث عن سبل تحقيق الملاءمة بين الجهود الخطابية والنتائج السياقية. أما نظرية الحجاج في اللغة ونظرية المجموعات الدلالية فتمحور انشغالهما معا حول إدماج القضايا التداولية في صميم البحث الدلالي، من خلال التركيز على دراسة البنية الداخلية للغة، وما يتولد عن استعمال هذه البنية من دلالات تتباين تبعا للسياق الكلامي.

ولئن كانت التداولية قد استثمرت انفتاحها على مختلف الروافد المعرفية لبلورة فروضها ومفاهيمها، وتعميق الفهم بمباحثها، على نحو جعلها ملتقى

عدة تخصصات، فإنها في الآن نفسه قد مارست تأثيرها الكبير على عدد من الميادين؛ لذلك أضحت اتجاها لسانيا لا محيد عنه لمقاربة مختلف الظواهر المصاحبة للتواصل البشري. ولعل استثمار فروضها ونتائجها في مجال التحليل النفسي والتواصل والإناسة والاجتماع خير دليل على انفتاحها ومرونتها وامتدادها. لذلك نعترف أن هذه الدراسة ـ رغم المصاعب التي تجشمتها ـ قاصرة عن الإحاطة بكل حثيات الدرس التداولي. والأمل يحذونا لأن نوسع مجال اشتغالنا، كي نقدم مقاربات تثبت حيوية التداولية وخصوبتها النظرية والتطبيقية.

لائحة المصادر والمراجع والمقالات العربية:

-- الأندلسي أبو حيان "التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل"، حققه حسن هنداوي، دار القلم دمشق، ج 3، ط1، 2002.

-- البغدادي عبد القادر بن عمر "خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب" تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، مصر، القاهرة، ط1، 1986، ج6.

-- ابن فارس أحمد بن زكريا "مقاييس اللغة" تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1979.

-- ابن منظور محمد بن مكرم "لسان العرب"، دار صادر للنشر، بيروت، لبنان.

-- بلانشيه فليب "التداولية من أوستن إلى كوفمان"، ترجمة صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، ط1، 2007. دي سوسير "محاضرات في علم اللسان العام" ترجمة عبد القادر قنيني، مراجعة أحمد حبيبي، إفريقيا الشرق، 1987.

-- بنكراد سعيد "السيمائيات النشأة والموضوع" عالم الفكر المجلد 35 العدد 3 يناير مارس 2007.

-- بيدبا الفيلسوف الهندي "كليلة ودمنة" ترجمه إلى العربية عبد الله بن المقفع، المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة، مصر، 1937.

-- جحفة عبد المجيد "مدخل إلى الدلالة الحديثة" دار توبقال للنشر الدار البيضاء - المغرب الطبعة الأولى - 2000 .

-- الجرجاني عبد القاهر "دلائل الإعجاز" قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1989.

-- الخولي يمنى طريف "فلسفة العلم في القرن العشرين" عالم المعرفة ع 264، الكويت، شتنبر 2000.

-- دايك فان "النص والسياق" استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ترجمة عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، 2000.

-- دولودال جيرار بالتعاون مع جويل ريتوري »السيميائيات أو نظرية العلامات« ترجمة عبد الرحمان بوعلي، دار الحوار ط1، 2004،

-- رسل برتراند "حكمة الغرب" ج 2 الفلسفة الحديثة والمعاصرة ترجمة فؤاد زكريا عالم المعرفة ع 365، يوليوز 2009.

-- روبول آن وجاك موشلير "التداولية اليوم علم جدد في التواصل" ترجمة سيف الدين دغفوس ومحمد شيباني مراجعة لطيف زيتوني، المنظمة العربية للترجمة، نشر دار الطليعة، بيروت لبنان ط1، يوليوز 2003.

-- الزغلول رافع النصير والزغلول عماد عبد الرحيم "علم النفس المعرفي" دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن.

-- السكاكي أبو يعقوب يوسف "مفتاح العلوم"، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط 2، 1987.

-- سماح رافع محمد "المذاهب الفلسفية المعاصرة" مكتبة مدبولي ط 1، 1973.

-- سيبويه أبو البشر عمرو بن عثمان بن قنبر "الكتاب"، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي القاهرة، ط3، 1988، ج 2.

-- سيزا قاسم "السميوطيقا حول بعض المفاهيم والأبعاد، مدخل إلى السيميوطيقا"، مقالات ودراسات، إشراف سيزا قاسم ونصر حامد أبو زيد، دار إلياس العصرية، القاهرة 1986

-- شومسكي نوام "اللغة ومشكلات المعرفة" ترجمة حمزة بن بقلان المريني، سلسلة المعرفة اللسانية، دار توبقال، ط1- 1990 .

-- صحراوي مسعود "التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة "الأفعال الكلامية" في التراث اللساني العربي"، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان ، ط2005.

-- الضبي أبو العباس المفضل "المفضليات" تحقيق عمر فاروق الطباع، دار الأرقم، لبنان، بيروت، ط1، 1998.

-- طه عبد الرحمان "اللسان والميزان أو التكوثر العقلي"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1998.
-- عزمي إسلام "لودفينج فتجنشتاين نوابغ الفكرالغربي" 19 دار المعارف، القاهرة، مصر.
-- القزويني جلال الدين محمد بن عبد الرحمان "التلخيص في علوم البلاغة" ضبطه و شرحه عبد الرحمان البرقوقي، دار الفكر العربي، ط2، 1932.
-- لالاند أندريه "موسوعة لالاند الفلسفية"، ترجمة خليل أحمد خليل، مشورات عويدات، بيروت ـ باريس ط2، 2001.
-- المجاطي المعداوي أحمد ديوان »الفروسية« المكتبة الإبداعية، شركة النشر والتوزيع المدارس، ط2، 2001.
-- مهرانمحمد رشوان "مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة"، دار الثقافة للنشر والتوزيع ط 2، 1984.
-- مهران محمد رشوان "فلسفة برتراند رسل"، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1976.

المراجع والمقالات الأجنبية:

-- Anderson, J.R.«Acquisition of cognitive skill »Psychological-ReviewÅ; N?89,1982, 364-406. Ashcraft, M.H. «Human memory and cognition», Harper Collins Publishers, 1989.
--Anscombre Jean-Claude & Ducrot Oswald «Argumentativité et informativité, Dela métaphysique à la rhétorique», M. Meyer Ed, Bruxelles, 1986,pp 76-94.
--Anscombre Jean-Claude «Théorie de l?argumentation, topoï, et structuration discursive »Revue québécoise de linguistique, vol. 18, N? 1, 1989, pp15-16.
--Anscombre Jean-Claude «De l?argumentation aux Topoi »In Théorie des Topoi, Kimé, 1994, p11-47.
--Anscombre Jean-Claude «la Théorie des Topo': sémantique ou rhétoriqueÅ? »Hermes 15, 1995.
--Aristote, «Organon V, Les Topiques», introduction, traduction et notes par Jules Tricot, Éditions Vrin, Bibliothèque des textes philosophiques, 1990.

--Armengaud Françoise «la pragmatique»,PUf, Coll Que sais-jeÅ? N? 2231, 1985.

--Armengaud Françoise «Eléments pour une approche pragmatique de la pertinence», Philosophica 29,1982 (1), pp. 3-24Å.

--Austin J.L «How To Do Things With Words()»The William James Lectures(,delivered at Harvard University in 1955, OXFORD AT THE CLARENDON PRESS,1962.

--Baddeley A.D «Working memory »Oxford University Press, 1986.

--Bateson, Birdwhistell, Goffman, Hall, jackson, Scheflen, Sigman, watzlawick «la nouvelle communication», textes recueillis et présentés par Yves Winkin, Seuil, Paris, 1981.

--Benveniste Emile «Problèmes de Linguistique Générale »Tome1, Editions Gallimard 1966.

--Berrendonner Alain «Connecteurs Pragmatiques et Anaphore», Cahiers de linguistique Française, N?5, 1983

--Brown and Levinson «Politeness: some universals in language usage »Cambridge university Press, 1987.

--Carel Marion «Vers une formalisation de la théorie de l?argumentation dans la langue», thèse de doctorat, Paris (EHESS), 1992.

--Carel Marion et Schulz, P. «De la généricité des proverbes : une étude de l?argent ne fait pas le bonheur et il n?y a pas de roses sans épines», Langage et société, 102, 2002, p. 33-70.

--Carel Marion«L?argumentation est-elle polyphonique ?», in A. Rabatel (éd.) Cahiers de praxématique, vol.43, 2003 pp.191-212.

--Carel Marion & Ducrot, O. «La semántica argumentativa. Una introducción a la teoría de los bloques semánticos», M.M. García Negroni et A. Lescano (éds.), Buenos Aires : Colihue Universidad, 2005.

--Carel Marion ?Introduction? in M. Carel (dir.) «Argumentation et polyphonie. De saint Augustin à Robbe-Grillet», Paris, L?Harmattan, 2012.

--Carlson Gregory «Reference »In?The Handbook of Pragmatics? Edited by Laurence R. Horn and Gregory Ward, Blackwell publishing, 2004, pp 44-96.

--Cervoni Jean «l?énonciation»,linguistique, nouvelle Presses universitaires de France, Paris, 1987.

--Chomsky Noam«structure syntaxiques »traduit parÅMichel BRADEAU,Paris, Seuil 1969.

--De Saussure Ferdinand«Cours de linguistique générale», Payot, 1916, p. 33-34. Synthèse éditée par seséléves C. Bally et A. Sechehaye à partir des notesdù cours donné entre 1906 et 1911 à l?université deGenève.

--Ducrot Oswald «Dire et ne pas Dire», Hermann, Paris, 1972.

--Ducrot Oswald «L?argumentation dans la langue», In Langages, 10e année, N?42, Argumentation et discours scientifique, 1976

--Ducrot. Oswald «Les lois de discours »In: Langue française. N?42, 1979. pp. 21-33.

--Ducrot Oswald «Les Lois logiques et les Lois argumentatives», In le français moderne, N?47, 1979.

--Ducrot Oswald »Analyses pragmatiques «In: Communications, N?32, 1980. Les actes de discours. pp. 11-60.
--Ducrot Oswald «les échelles argumentatives», Paris, Editions de Minuit, 1980.
--Ducrot Oswald »Opérateurs argumentatifs et visée argumentative «In cahiers de linguistique française, N?5,1983, pp 7-36.
--Ducrot Oswald «note sur l?argumentation et l?acte d?argumenter »In Cahiers de linguistique française, N?4,1982.
--Ducrot Oswald «le dire et le dit», Paris, Editions de Minuit, 1984, pp171-233.
--Ducrot Oswald «les Topoi dans la Théorie de l?argumentation dans la langue »In les Lieux communs, topoi, stéréotypes, clichés, Kimé,1993.
-Ducrot Oswald «Topoï et formes topiques »dans Théorie des topoï, Kimé, 1994.
--Ducrot Oswald& Jean-Marie Schaeffer «Nouveau dictionnaire encyclopidique des sceiences du langage», Ed Seuil,1995.
--Ducrot Oswald «La Force de mots– »Entretien, In le langage, sciences Humaines, 2001, p 81-83.
--Ducrot Oswald «Critères argumentatifs et analyse lexicale »In: Langages, 35e année, N?142, 2001, pp. 22-40.
--Fludernik Monika »Some reflections on Jakobson, Jespersen, and reference«In Semiotica 86, 1991, pp 193- 230.
--Fodor, Jerry A «Modularity of Mind: An Essay on Faculty Psychology »Cambridge, Mass.: MIT Press, 1983
--Jakobson Roman »Essais de linguistique générale«Ed de Minuit,1963
--Jakobson Roman «Shifters, verbal categories, and the Russian verb »In Selected writings II, the Hague Monton, 1971, pp 130-147.
--Jakobson Roman «Huit Questions de Poétique», Editions de Seuil, 1977.
--Grice HP«logic and conversation »In syntax and semantic Vol 3, Speech acts, Ed P. Cole and L. Morgan, Academic Press, 1975, pp 41-58.
--GRUNIG B.N «Plusieurs PragmatiquesÅ »In DRLAV, N? 25, 1981, pp 101-118.
--Kleiber Georges «les différentes conceptions de la pragmatique ou Pragmatique, où es tuÅ?»In l?information grammaticale année 1982, Vol 12, N? 12.
--Lakoff Robin «The logic of Politeness or, Minding your P?s and QÅ?s »In Papers from the Ninth Regional Meeting Chicago Linguistic Society, Chicago,1973, pp 292-305.
--Lakoff, Robin «Language and Women?s Place», New York: Harper and Row,1975.
--Lakoff Robin «What you can do with words: Politeness, pragmatics and performatives», In: R. Rogers, R. Wall and J. Murphy (eds.) Proceedings of the Texas Conference on Performatives, Presuppositions and Implicatures. Arlington, Va.: Center for Applied Linguistics,1977, pp 79–106.
--LakoffRobin«The limits of politeness», Multilingua 8,1989, 101?129.
--Lakoff Robin T. and Sachiko Ide«Introduction. Broadening the horizon of linguistic politeness», In: Robin T. Lakoff and Sachiko Ide (eds.) Broadening the Horizon of Linguistic Politeness, Amsterdam, john Benjamins,2005, pp 1-20.
--Leech Geoffrey «Principles of Pragmatics», Longman, London, 1983.

--Levinson Stephen «Deixis», In «The Handbook of Pragmatics »Edited by Laurence R. Horn and Gregory Ward, Blackwell publishing, 2004, pp 97-122.

--Lyons John «Linguistique général Introduction A La Linguistique Théorique »Traduction de F. Dubois Charlier et D. Robinson langue et langage, Larousse, 1970.

Lyons John «Sémantique linguistique», Larousse, Langue et langage,1980.

--Mainguneau Dominique «Eléments de linguistique pour le texte littéraire»,Bordas, Paris, 1986

--Mao LuMing Robert «Beyond Politeness Theory: Face Revisited and renewed», Journal of Pragmatics 21,1994, pp 451-486.

--Matsumoto Yoshiko «Reexamination of the Universality of Face: Politeness Phenomena in Japanese», Journal of Pragmatics 12,1988, pp 403-426.

--Meier A.J «Passages of Politeness»,Journal of Pragmatics, Vol 24,ÅNumber 4, October 1995, pp. 381-392.

--Moeschler jacques& Reboul Anne «Dictionnaire encyclopédique de pragmatique» Editions Seuil, Paris, 1994.

-- Moeschler jacques, Reboul Anne«Pragmatique du discours »Armond colin, Paris, 1998.

--Moore George Edward «Principia Ethica»Cambridge, University of Press, 1903.

--Morris Charles «the foundation of theory of sign »In international Encyclopedia of unified sciences 12, Chicago, University of Chicago Press.

--Morris Charles «Fondements de la théorie des signes», traduction de Victor Guérette, François Latraverse et Jean-Pierre Paillet. In: Langages, 8éme année, N?35, 1974.

--Orracchioni Catherine Kerbrat «L?énonciation de la subjectivité dans le langage», Armand Colin, Paris 1980.

--Orracchioni Catherine Kerbrat «L?implicite«, Paris, Armand Colin,1986.

--Peirce Charles S. «How to make our ideas clear »In popular science Monthly 12, (January 1878), pp 286-302.

--Perlman Chaïm & lucie Olbrechts Tytica«traité de l'argumentation- la nouvelle rhétorique», Préface de Michel Mayer, 5ème éditions, Editions de l?université de Bruxelles 1992.

-- Reboul Anne «la pragmatique à la conquête de nouveaux domaines: la référence »In l?information grammaticale 66, 1995,pp 32-37.

--Russell Bertrand «Logic and knowledge», George Allen & Unwin, 1950.

--Searl John. «Chomsky et la révolution linguistiqueÅ»In la recherche N? 32, V4, Mars 1973.

--Sperber Dan & Wilson Deirde «Remarques sur l?interprétation des énoncés selon Paul Grice »In Communication, N? 30, Vol 30, 1979, pp81-93.

--Sperber Dan & Wilson Deirde «Façons de Parler »In Cahiers de linguistique Française, N?7,1986, pp10-11

--Sperber Dan & Wilson Deirde «Relevance: Communication and Cognition», Oxford, Basil Blackwell, 1986.

--Sperber Dan & Wilson Deirde «Forme linguistique et Pertinence »Cahiers de linguistique Française, traduction de Anne Reboul et Dan -Sperber, N? 11, 1990

--Sperber Dan & Wilson Deirde «Linguistique Form And Relevance »Published in Lingua 90, 1993,pp 1-25.

--Sperber Dan & Wilson Deirde «Pragmatics, Modularity and Mind-reading», In Mind and Language, 2002, 17.pp 3-23

--Sperber Dan & Wilson Deirde «Relevance theory», In The Handbook of Pragmatics, Edited by Laurence R. Horn and Gregory Ward, Blackwell publishing, 2004.

-Rethoré Joëlle «la pragmatique linguistique de PEIRCEÅ »études littéraires, Vol 21-N?Å3, HIVER 1988-1989 pp 49-58

--Weitz Morris «Oxford Philosophy »In The Philosophical Review, Vol 62, N? 2, Apr 1953, pp 187-233

--WittgensteinLudwing «tractacus logoco-philosophicus »Traduction préambule et notes de Gilles Gaston Granger, Gallimard, 1993 (pour la traduction française)

--Wittgenstein Ludwig «Philosophical Invesigation »Trasnlated by Anscombre, G. E and edited by Anscombre and Rhees, R., Oxford, Basil Blackwell, 3rd impression, 1963.

--Yule Georges «Pragmatics »Oxford University Press, 1996.

كشّاف المصطلحات: عربي- فرنسي- إنجليزي

انجليزي	فرنسي	عربي
Act	Acte	فعل
Illocutionary---	--- illocutionnaire	--- الإنجاز
Locutionary---	--- locutionnaire	--- القول
Perlocutionary---	--- perlocutionnaire	---التأثير
Aggression	Aggression	عدوان
Approximation	Approximation	تقريب
Argumentative strength	Force Argumentative	قوة حجاجية
Argumentativity	Argumentativité	الحجاجية
Assertives sentences	Enoncés assertifs	ملفوظات إخبارية
Assimilation	Assimilation	التطابق
Associationnism	Associationnisme	مذهبتداعي الأفكار
Atomism	Atomisme	مذهب الذرية
Autism	Autisme	مرض التوحد
Autonomy	Autonomie	استقلالية
Axiom	Axiome	بديهة/ مسلمة
Background	Arrière-plan	خلفية
Behavitives Verbs	Verbes comportatifs	أفعالسلوكية
Benefit	Bénéfice	منفعة
Canal	Canal	قناة
Carnival	Carnavalesque	احتفالية
Category	Catégorie	مقولة
Code	Code	رمز/سنن
Cognitive	cognitif	معرفي
Commissive Verbs	Verbes promissifs	الأفعال التعهدية
Competence	Compétence	كفاية
computation	Computation	الحوسبة
Context	Contexte	السياق
convention conditions	Conditions de convention	شروط المواضعة
Conventional aspect	Aspect conventionnel	مظهر عُرفِي/ تواضعي
Conversational implicature	Implicature conversationnelle	الاستلزام الحواري
Co-operation	Coopération	تعاون
Correspondance	Correspondance	تناسب
Costs	Efforts	جهود

Declaratives sentences	Enoncés déclaratifs	ملفوظات تصريحية
DEIXIS	DEIXIS	الإشارة
Discretion	Discrétion	التواري
Detachment/ distance	Distanciation	التباعد
Exercitives Verbs	Verbes exercitifs	أفعال تنفيذية
Explicit	Explicite	صريح
Expositives Verbs	Verbes expositifs	أفعال عرضية
Expressives sentences	Enoncés Expressifs	الملفوظات التعبيرية
Expressibility	Expremabilité	التعبيرية
Extralinguistic	Extralinguistique	براني خارج-لساني
Face-saving act	Acte de sauver la face	فعل الحافظ على الوجه
Face-threatening act	Acte de menacer la face	فعل تهديد الوجه
Facts	Faits	وقائع
Fallacy	Illusion	إيهام
Feedback	Feedback/Rétroaction	إرجاع/ تغدية راجعة
Illocution	Illocution	إنجاز
Implication	Implication	استلزام اقتضاء
Implicit	Implicite	مضمر
implied	Sous-entendu	القول المضمر
Incident	Incident	عارض
Infelicity	Infélicités	ملفوظات فاشلة
Inferences	Inférences	الاستدلالات
Inputs	Inputs / entrées	مدخلات
	Instance de discours	الترهين الخطابي
intention conditions	Conditions d'intentions	شروط القصد
Interpersonal	Interpersonnel	بيشخصي
Intersubjectivity	Intersubjectivité	تذاوت
Irony	Ironie	السخرية
homeostasis	Homéostasie	مبدأ الاتزان
hyperbole	Hyperbole	مبالغة
Law	Lois	قانون
Litotes understatement	Litote	تورية
Locution	Locution	قول
Logic	Logique	منطق
Manner	Manière	الجهة- مسلمة
Maxim	Maxime	قاعدة
Methaphor	Métaphore	الاستعارة
modularity	Modularité	القالبية

Mandatory	Obligation	الزامية
Misfires	Insuccès	إخفاقات
Model	Modèle	نموذج
Object	Objet	موضوع
Outputs	Outputs	مخرجات
Perfermance	Performance	كفاية
performative sentences	Enoncés Performatifs	ملفوظات إنجازية
Perspicuous	Clair	واضح
Relevance	Pertinence	ملاءمة
Politeness principle	Principe de politesse	مبدأ التأدب
Polyphony	Polyphonie	تعدد الأصوات
Pragmatic	Pragmatique	تداولية
Pragmatism	Pragmatisme	ذرائعية
Preliminary conditions	Conditions Préliminaires	الشروط الأولية
Preparatory conditions	Conditions Préparatoires	الشروط التحضيرية
Presumption	Présupposition	الافتراض المسبق
Principle	Principe	مبدأ
Proposition	Proposition	قضية
Pseudonym	Pseudo	مستعار
purpose conditions	Conditions de but	شروط الغاية
Quality	Qualité	الكيفية - مسلمة
Quantity	Quantité	الكمية - مسلمة
Rationality	Rationalité	المعقولية
Redundancy	Redondance	الإطناب
Refutation	Réfutation	دحض/ تفنيد
Rendition	Rendement	المردودية
Representational	Représentationnel	تمثيلي
Schizophrenia	Schizophrenie	مرض انفصام الشخصية
Semiosis	Sémiosis	سيرورة التدليل/ سيميوزيس
Sign	Signe	علامة
Sincerity conditions	Conditions de Sincérité	شروط الوفاء/ الإخلاص
Typology	Typologie	نمذجة
updating	Actualisation	تحيين
Uptake	Effet	الأثر
Use	Usage	استعمال
Verdictives Verbs	Verbes verdictifs	الأفعال الحُكمية
Wellformed Sentence	Enoncé Bien formé	ملفوظ حسن السبك